الجمهوريّة الجزائريـة الدّيمقراطيّة الشّعبيّـة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية كلية: أصول الدين

–قسنطينـة– قسم: العقيدة ومقارنة الأديان

رقم التسجيل:..... تخصص: العقيدة

الرقم التسلسلي:.....

التزكية الأخلاقية في فكر محمد الغزالي

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه علوم في العقيدة

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذ الدكتور:

سهيلة مازة اسعيد عليوان

أعضاء لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د.الزهرة لحلح	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة	رئيسا
أ.د اسعيد عليوان	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة	مشرفا ومناقشا
د.احسن برامة	أستاذ محاضر–أ	جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة	عضوا
أ.د.عبد الكريم رقيق	أستاذ	جامعة الحاج لخضر باتنة 01	عضوا
أ.د.السعيد رحماني	أستاذ	جامعة محمد بوضياف المسيلة	عضوا
د.عصام عبد الحفيظ	أستاذ محاضر–أ	جامعة عبد الحميد مهري–قسنطينة02	عضوا

السنة الجامعية: 1440هـ – 1441هـ / 2019 – 2020م

الجمهوريـــّة الجزائريـــــة الدّيمقراطيّـــة الشّعبيّـــــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية: أصول الدين

–قسنطينـــــة– — قسم: العقيدة ومقارنة الأديان

رقم التسجيل:..... — تخصص: العقيدة

الرقم التسلسلي:.....

التزكية الأخلاقية في فكر محمد الغزالي

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه علوم في العقيدة

إعداد الطالبة: سهيلة مازة

إشراف الأستاذ الدكتور: اسعيد عليوان

أعضـــــاء لجنـــة المنـــاقشة :

الاسم واللقب	الرتبـــة	الصفـــة	الجامعة الأصلية
		رئيسا	
أ.د اسعيد عليوان	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومناقشا	جامعة الأمير عبد القادر
		عضوا	
		عضوا	
		عضوا	
		عضوا	

السنة الجامعية: 1440هـ – 1441هـ / 2019 – 2020م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩
وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ ﴾

[الشمس: 7–10]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى روح اللذين قال فيهما تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا صَغِيرٗا﴾ الإسراء: ٢٤

إلى روح اللذين غرسا في قلبي وعقلي، كريم الخلق، وحب العلم، وشجعاني على تحصيل أعلى مراتبه.

إلى والديّ الغاليين رحمهما الله فضلا وعطاء.

إلى كل من درسني وعلمني حرفا أصبح سنا برقه يضيء الطريق أمامي، وينير قناديل العلم والمعرفة في قلبي...

إلى زوجي الكريم بدر الدين، وإلى أبنائي الأعزاء محمد أيمن، محمد إقبال، عبد الودود، وحاتم أنيس.

إلى روح محمد الغزالي الطاهرة

عرفانا بفضله وتقديرا لبذله أهدي نبتة من غرسه وأثرا من كلماته الطيبات هو هذا العمل.

سهيلة مازة

شكر وعرفان

الحمد لله على فضله ونعمائه، والشكر على توفيقه القائل في محكم تنزيله

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ إبراهيم: ٧

وعملا بقول رسول الله ﷺ: " من لا يشكر الناس لا يشكر الله".

أتقدم بجزيل الشكر وخالص الامتنان إلى الأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور السعيد عليوان على توجيهاته المنهجية وملاحظاته العلمية.

كما أشكر كل من د.حسن برامة، ود.زهرة لحلح، ود.آمال لواتي، ود.ذهبية بورويس، ود.ليلى لعوير، وكل من كانت له يد المساعدة في هذا البحث معنوية أو مادية من قريب أو من بعيد.

وإلى كل من زرع الأمل في دربي وشجعني بالكلمة الصادقة والدعاء الخالص وبارك لي هذا العمل.

سهيلة مازة

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

تطبع العقيدة الإسلامية معتنقيها في ممارستهم لها بطابع الوحدة فكرا ووجدانا وسلوكا، إلى درجة انتباه معينة تجعل النفس الإنسانية تقبل على ربها بما تملك من قواها فتطيعه وتعبده بيقين، وبذلك يتحقق الارتقاء والاستخلاف، إلا أن عقيدة المسلم لا تنشأ في مجلس مناظرة عقلية بل من خلال غرسها في الأفئدة لتواكب النشاط العقلي، فتثمر تصورا صحيحا وقلبا نقيا وسلوكا عمليا، ورغم أن المتكلمين في محاولتهم اعتمدوا على تثبيت العقائد الإيمانية بالوحي والدفاع عن العقيدة ضد الشبهات التي أثارها أتباع الأديان والفلسفات، إلا أن علم الكلام تأخر بعدما آل حال المسلمين إلى الجمود والركود، مما أدى نزوعه إلى التجريد واعتماده الطابع الجدلي العقلي والمنطقي، حتى انتهى إلى أن يكون علما جافا، فلم يُعن المسلم على بناء عقيدته وتزكية نفسه وخلقه بقدر ما أعطاه القدرة العقلية والاستدلالية، وبذلك لم يؤدّ علم الكلام القديم دورا حيويا فعّالا في الحياة الروحية للإنسان المسلم.

وإذا كان لكل علم آفة، فإن آفة التصوف الانحراف عن روحه والابتعاد عن غايته، وإساءة فهم مقاصده باتخاذ المظهر واللباس بدلا من السلوك المطابق في روحه لمبادئ التصوف، ولا شك في أن كثيرا من التصوف اليوم أو ما يظنه النّاس تصوفا لا يخلو من جهل وخرافة واستغلال للدّين ومغالاة في الشعائر والطقوس واستهلاك روحي. حيث بمجرد ذكر التصوف يثير عند البعض ردود أفعال مشمئزة وعند آخرون تعني جوهر التعاليم الإسلامية، ويأتي هذا الجدل نتاج عوامل منها: تبني رؤية مجزئة عن الإسلام، وظهور نوع من التصوف الفلسفي الرمزي، وإساءة استخدام التعاليم الصوفية الحقيقية من طرف الأتباع، وظهور خطاب إسلامي تصنيفي يثير الشقاق والانقسام، إلا أنّ أي تحليل يتسم بالإنصاف والموضوعية يقر بأن التصوف جانب متجذر في تاريخنا الذي يشهد له بدوره المحوري في نشر الإسلام في ربوع العالم في ظل غياب البعد الروحي في حياة الإنسان المعاصر، وغياب انسجام الإنسان مع نفسه ومحيطه ومع الحياة، وبالتالي فإنّه من الضرورة الاستفادة من التجربة الروحية بغية تقديم حل وتصوّر صحيح لتحولات الواقع الإنساني، وكذا البحث في كيفية إدماج المستجدات المعاصرة على مستوى البحوث لتزكية النظام الخلقي وتجديد روحه من القرآن

والسنة، وذلك بغية بناء تربوي روحي وخلقي يستند إلى أهداف قوية ومرجعية.

وتظهر الحاجة إلى مدارسة تراث محمد الغزالي في هذا الجانب الروحي والتزكوي الذي ينتهي فيه تأسيس الإيمان على ركائز عقلية وجعل العبادة قائمة على سلامة القلب تثمر تحقيقا لتوازن المسلم بين حبه وتعلقه بخالقه وعيشه على أرضه، مما يستدعي تناول مسألة التصوف تناولا متزنا في السياق الصحيح لها.

ولعل منهج محمد الغزالي في البناء التربوي، الذي يجمع بين إيقاظ العقول وترطيب القلوب، يختلف عن الخطاب الإسلامي السائد والذي يعيش انفصاما بين العقل والقلب، وبين الفكر والأخلاق، كما يختلف عن التوجيهات الدينية التي تجعل المبدأ الإيماني خاضعا لقصور كلامي؛ تحتل فيه المجادلات الكلامية العقدية مركز الاهتمام، فهو ينظر إلى التربية الروحية على أنّها التوجيهات الإيمانية التي تثبت الإيمان في العقول والقلوب، إذ أنّ الجدل في نظر محمد الغزالي ليس في اقناع الناس بالإيمان بل هي في تثبيته وترسيخه خلقا وسلوكا، وهذا التصور وجّه محمد الغزالي إلى الاستفادة من التراث، عندما اعتبر العقل والقلب معاً وسيلة ناجعة للوصول إلى الإيمان الحقيقي، وهو ما اعتبره تزكية للنفس والخلق.

فلم يعتمد محمد الغزالي في تجربته في التصوف على التجربة الشخصية، وإنما اعتمد على قراءاته لمؤلفات الصوفية، ورغم اقراره بمشروعية هذا الجانب من الثقافة الإسلامية ودورها؛ إلا أنّه لاحظ وجود نفائس صوفية تحتاج إلى غربلة مفاهيمها ونقدها، وهو بذلك يحاول أن ينقل التصوف من العزلة والزوايا إلى الحياة العملية الفردية منها والجماعية؛ وبالتالي نحن بحاجة –حسب رأيه–إلى علم تُدرّس فيه طرق تحويل الحقائق الدينية النظرية إلى تربية روحية وخلق لازم وعمل دائم وأسلوب في الحياة، فمشكلة إنسان اليوم في نظر محمد الغزالي ليست في معرفة الحق والصواب، بقدر ما هي في كيفية توطين النفس على انتهاجها وترجمتها خلقا وعملا في الواقع، وبالتالي فإن مشروع الغزالي في تجديد الفكر الصوفي يستمد أهميته المعرفية والمجتمعية من بواعث عدة، تجعله يكتسي طابع الإلحاح والراهنية، ومن جملتها حاجة الأمة إلى التربية الأخلاقية والعرفانية؛ في زمن تعاظمت فيه النزعات المادية والميول الفردية، التي لا تراعي قيّم الأمة الإسلامية ذات البعد الإنساني في المبدأ والجوهر، وتبقى

العودة إلى التصوف الرشيد مشروطة بأشكال متعددة من التقويم يحتاجها الفكر الصوفي، من شأنها أن تعيده إلى مساره الأخلاقي والروحي.

وضمن هذا المسعى يبرز مشروع تجديدي طرحه محمد الغزالي في معظم كتبه، وأهمها الجانب العاطفي من الإسلامي، خلق المسلم، ركائز الإيمان، فن الذكر والدعاء، مع الله، جدد حياتك...، تتجلى أهميته في التخلص من النزعة النظرية، التي غالبا ما تطغى على هذا النوع من المبادرات التجديدية، حيث يكتسي مشروعه صفة عملية، وذلك وعيا منه بأهمية وفعالية الجانب التزكوي والجمالي في حياة الإنسان.

1-دوافع اختيار الموضوع:

دفعني لاختيار هذا الموضوع أسباب متعددة، منها ما هو ذاتي، ومنها ما هو موضوعي:

فأما الأسباب الذاتية: فقد جاء موضوع التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي من خلفية اهتمامي به منذ مرحلة التدرج الذي كان منصباً على الفكر الإسلامي المعاصر وأعلامه، وخاصة فكر محمد الغزالي. كما كانت رغبتي، ولا تزال، تدفعني دوما للاطلاع والبحث عن الذات الإنسانية والوقوف على الجانب الروحي والأخلاقي فيها، وكذلك رغبتي في معرفة حقيقة التصوف، وفي استكمال البحث الذي قدمته لنيل درجة الماجيستر وهو بعنوان "الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي"، والذي اكتشفت من خلاله التلاحم القائم بين العقل والقلب، وبين الجانب الإيماني والخلقي في فكره، وأدركت حينها أنّ الدراسة لا تكتمل إلا بالتعمّق في بحث الجانب العاطفي والأخلاقي عنده، آملة أن أسهم في ابراز هذا الفكر والكشف عن مزاياه وأبعاده.

والدوافع الموضوعية تمثلت فيما يأتي:

1- الحاجة إلى دراسة مضيئة للفكر الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي والروحي.

2- حاجة المعرفة الإسلامية والإنسانية إلى مدارسة فكر محمد الغزالي ومنهجه في الجانب التزكوي.

3- قلة الدراسات التي تناولت المنظور التجديدي لمحمد الغزالي في ميدان التصوف، والتعرف على

منهجه وآراؤه في التزكية.

4- توسيع مفهوم التزكية وبيان خصائصها من أجل الارتقاء بهذا الجانب المهم إلى مستوى التأصيل والتجديد وتقديم البديل.

5- حاجة الإنسان المسلم المعاصر، في الوقت الراهن الذي طغت فيه الماديات بشكل كبير إلى النهل من المنابع الروحية والأخلاقية، التي تعرفه بربه، وتبين له طرق أخرى تكسبه السعادة، وتحقق له الطمأنينة، وتجعله أكثر انسجاما مع نفسه ومع محيطه بل ومع الكون والحياة.

2- أهداف الدراسة:

سعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف:

1-إبراز موقف محمد الغزالي من التصوف وبيان أهمية الجانب العاطفي والخلقي عنده، باعتباره محركا باعثا للتجاوب مع الوحي والتواصل مع الواقع.

2-استقراء أفكار محمد الغزالي وآرائه في التزكية الأخلاقية بغية توضيح نظرته الشاملة، خاصة أنّه من الذين كان لهم أثر بالغ في إثراء هذا الجانب التربوي والتزكوي.

3-الإفادة من موروث التراث الإسلامي في الجوانب الأخلاقية والتزكوية لتقديم بدائل تحقق التوازن في حياة المسلم المعاصر، مع ذكر أوجه الاستفادة من التراث الروحي، ووضع معالم للتزكية في واقعنا المعاصر.

4-توسيع دائرة الاستفادة من فكر الغزالي وإعادة الدرس التزكوي للجامعة بالقدر الذي يسعى في إعداد دراسات أكاديمية رصينة، تتناول حياة المجددين وتستلهم تجاربهم الإصلاحية، وتعتنى بتأصيل علم التصوف وتصحيحه.

3-إشكالية الدراسة:

تحاول هذه الدراسة تبيان نظرة محمد الغزالي إلى التصوف وما ينبغي أن يكون عليه، حتى لا يظل مجرد إعادة هوية تاريخية، وإنما يكون بديلا لبناء روحي أخلاقي يواجه به تغريب العلمانية

وسؤال الحداثة، وما تفرضه من عيش مستحدث، ونظرة معادية للدين والقيم.

فإذا كان محمد الغزالي يريد أن ينقل العقل من الوعي الصوفي الفردي، وإخراجه من صومعته إلى الوعي الاجتماعي والإنساني الفاعل، محاولا بذلك إنشاء نموذج خاص في المجال التداولي للفكر الإسلامي، فإن التساؤلات الناجمة عن ذلك هي الآتية:

- وبالتالي ما هي فلسفته في البناء الروحي والخلقي؟ وما مفهومه للتصوف؟ وهل تستوجب التزكية الأخلاقية في نظره تجربة صوفية؟

- وهل تحقق التزكية الأخلاقية ذلك؟

- وبالتالي ما مفهومه للتزكية الأخلاقية؟ وما هو منهجه فيها؟ وما هي فعالية المعاني الروحية والقيم الأخلاقية وأبعادها في نظره؟

- وما هي عوائق التزكية الأخلاقية عنده؟ وهل تصور محمد الغزالي للتزكية الأخلاقية بإمكانه أن يرقى إلى مستوى متطلبات الإنسان المعاصر؟ وهل سؤال التزكية الأخلاقية يستطيع مواجهة تحديات الحداثة؟

4- الدراسات السابقة:

كل دراسة مستنطقة لإشكالية معرفية تستند إلى أفكار تفتح المجال والآفاق وتضمن لها هذا الإطار المعرفي والأكاديمي. وفي هذا المبتغى تطمح دراستي هذه والموسومة بـــ"التزكية الأخلاقية في فكر محمد الغزالي" إلى تكملة الجهود العلمية السابقة في فكر محمد الغزالي، ومنها:

- البحث المقدم لنيل درجة الماجيستر للباحثة سهيلة مازة والموسوم بـــ "الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي"، (جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2012)، وهي دراسة متخصصة في الجانب العقدي عند الغزالي، تناولت فيها الباحثة جزءا من الجانب الأخلاقي وعلاقته بالإيمان، كما تطرقت إلى موقفه من التصوف، وكيف أنه دعا إلى الانتقال من الاتباع الموروث إلى الاتباع المبصر في التراث الصوفي، وهو يؤكد على تنقيته وتصحيح مفاهيمه الخاطئة، إلا أنها لم تفصل فيه، وقد استثمرت هذه الدراسة في بعض الجوانب النظرية للبحث.

كما لا يفوتني أن أشير إلى المقالات التي اشتغلت فيها الباحثة على بعض جوانب التصوف عامة، والجانب التزكوي في فكر محمد الغزالي خاصة، منها مقال "الخطاب الصوفي بين الصلاح الفردي والإصلاح الاجتماعي وخريطة التحديات"، (مجلة " Route Education And Social Science Journal" مجلة العلوم الاجتماعية والتربوية، ع 38 / مارس 2019)؛ حيث تناولت فيه الباحثة الجانب الإيجابي للتصوف عامة، وكيف يوظف صلاحه الفردي في الإصلاح الاجتماعي حتى يحقق المقصد من الدين، وهو التوحيد وتزكية الإنسان وعمران الكون، وبناء الحضارة فيه، وخلصت الباحثة إلى أن الصلاح هو تزكية النفس والإصلاح هو تزكية المجتمع، إلا أنها لم تتناول الجانب الصوفي عند محمد الغزالي، باستثناء الاستشهاد ببعض آرائه في التصوف، أما المقال الثاني للباحثة نفسها والموسوم بـــ "فلسفة البناء الروحي عند محمد الغزالي" (كتاب جماعي، "مئوية الإمام محمد الغزالي"، تحرير وصفي عاشور أبو زيد، إستانبول سنة 2018)، تناولت فيه الجانب الروحي عند محمد الغزالي، وكيفية بناء أسسه، وأنّ التزكية النفسية في فكره هي جوهر الدين ومقصده ، إلا أن هذه الدراسة لم تتوسع في الجانب التزكوي عنده. وقد استفدت منها عند الحديث عن تصنيف محمد الغزالي للأخلاق (الربانية والإنسانية). مع الإشارة إلى أن هذا الكتاب الجماعي تناول فكر محمد الغزالي بجميع مجالاته، ونشر في مجلدين، إلا أن هذه الدراسات لم تفرد لجانب التصوف والتزكية في أبحاثها.

وحسب حدود اطلاعي على الدراسات السابقة التي لها صلة بموضوع البحث، وتلامسه في جانب من جوانبه: دراسة جمال نصار بعنوان "البعد الأخلاقي في فكر محمد الغزالي" (مئوية الإمام محمد الغزالي)، حيث تناول فيها الجانب الأخلاقي وآثاره على حياة المسلم، مؤكدا على الجانب الأخلاقي لشخصية الغزالي، ومنبها لشمولية فكره الأخلاقي مختلف المجالات، كما تطرق إلى البعد الأخلاقي في مؤلفاته، إلا أن هذه الدراسة لم تفصل في الجانب الصوفي، ولم يرد عنده ذكرا عن التزكية الأخلاقية في فكر محمد الغزالي.

كما أن هناك دراسة لإبراهيم نويري، في مقاله الموسوم بـــ"من معالم خصائص شخصية الشيخ محمد الغزالي"، نشره في مجلة الحوار الجزائرية 2016/03/8 في الموقع

www.elhiwardz.com، تناول فيها الجانب الخلقي والنفسي في شخصية الغزالي، وعوامل تكوينها، وتطرق إلى ميوله الصوفي، إلا أن هذا المقال لم يتناول موضوع التزكية الأخلاقية بصفة مستقلة في فكر محمد الغزالي، مع الإشارة إلى أنني لم أقف على هذا المقال إلا بعد إتمام البحث.

ومن بين ما وقفت عليه في الدراسات التي تناولت جوانب من فكر محمد الغزالي وأعماله، والتي استفدت منها في التصور العام لموضوع البحث، منها: رسالة ماجستير لإبراهيم النويري "الغزالي مفكرا وداعيا" (جامعة الأمير عبد القادر، سنة 1994)، بعنوان "الشيخ محمد الغزالي نظرته في التخلف الحضاري"، (جامعة باتنة)، تناول فيها الباحث بصفة عامة الجوانب الفكرية والدعوية لمحمد الغزالي، إلا أنه لم يتطرق إلى الجانب الصوفي أو التزكوي في فكره.

كما نظم المعهد العالمي للفكر الإسلامي (1417-1997) ندوة فكرية تناولت "العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي"، دارت محاورها حول منهج الغزالي في الربط بين العقل والوجدان في فكره، وقد صدرت أعمالها في كتاب لفتحي حسن ملكاوي (مؤسسة آل البيت، جمعية دراسات والبحوث الإسلامية). ورغم قيمتها العلمية وتنوعها، وإمكانية الاستفادة منها، إلا أنها لم تفرد لجانب التصوف عند الغزالي دراسة مستقلة ودقيقة، و لم تذكر أهمية الجانب التزكوي في فكره كمشروع برز في مؤلفاته، مما يجعل الحاجة ملحة إلى تناول هذا الجانب بالدراسة والبحث، كما قدم الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال في ملتقى منهج الشيخ "محمد الغزالي" في التجديد والإصلاح بجامعة الأمير عبد القادر دراسة حول ثنائية العقل والقلب (كتاب جماعي، دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام)، حيث تناول فيها أسس منهج الغزالي في مشروعه التجديدي والإصلاحي، وأكد على تكامل العقل والوجدان فيه.

وتناولت دراسة أخرى "الفكر السياسي عند محمد الغزالي" للباحث السعيد تازولت (جامعة باتنة، سنة 2007)، حيث درس الباحث شمولية فكر الغزالي وواقعيته في نقل الفكر الإسلامي من النظرة التجزيئية للمشكلة السياسية القائمة على الأساس الممتزج من الجوانب الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، ومدى سعي الغزالي في تقرير هذا المبدأ في كتبه وفكره.

ومع الإقرار أن كثيرا من هذه الدراسات المذكورة وغير المذكورة تناولت بعض الجوانب التي

تضمنها البحث، إلاّ أن البحث في التزكية الأخلاقية عند الغزالي ودورها في حل الانفصام الواقع بين العقل والقلب، وبين الفكر والأخلاق لا يزال قائما، فلم أقف على دراسة تناولت الموضوع بهذا الطرح، وبهذا العنوان.

5-منهج الدراسة:

تقتضي طبيعة البحث استخدام مناهج لمعالجة إشكالية الموضوع، فكان المنهج الوصفي بآلياته التحليلية في الفصول والمباحث، والتحليل الممارس على نصوص محمد الغزالي قد توزع على طريقتين من حيث المفاهيم التصورات:

1- التحليل الذي يمكنني من استخراج القضايا (الآراء والمواقف) مع إبراز العلاقة القائمة بينهما.

2-التحليل الذي أحدد من خلاله المشكلة والموقف والحجة، وذلك بحسب ما هو وارد في نصوصه، ممّا يتطلب بعد ذلك استخدام المنهج التركيبي الذي يمكنني من ضبط النتائج المتوصل إليها.

كما وظفت المنهج المقارن في بعض جوانب البحث، قصد تبيان الاختلاف والتشابه في مواقف الغزالي وغيره من المفكرين حول التصوف والتزكية الأخلاقية مع الاستعانة بالمنهج التاريخي الذي توسلت به في قراءة النصوص واستقرائها، وكذا متابعة آراء الغزالي في التزكية الأخلاقية، وذلك بالاعتماد على معطيات التاريخ في أجزاء الدراسة.

6-مصادر البحث:

إن المتتبع لفكر محمد الغزالي في كتاباته وحواراته، نجده متسلسلا، فلم يتناول الجانب الأخلاقي في بعض كتبه فحسب، بل نجد جميعها لا تخلو من هذا الجانب، وإن أفرد له كتبا سماه **"بالجانب العاطفي للإسلام"**، **"فن الذكر والدعاء"**، **"خلق المسلم"**، **"ركائز الإيمان بين اقلب والعقل"**، **"تراثنا الفكري بين الشرع والعقل"**، **"ظلام من الغرب"**، **"الطريق من هنا"**، **"الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها العشرين"**، **"دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين"**، **"ليس من الإسلام"**، **"مائة سؤال"** وغيرها وهذا ما دفعني إلى معالجتها وكشف اللثام عنها. كما وظفت كتبا لتأسيس التصور الشمولي للبحث في مجال العقيدة والتصوف، منها: محمد عمارة "محمد الغزالي

الموقع الفكري والمعارك الفكرية"، أبو حامد الغزالي "إحياء علوم الدين"، والقشيري "الرسالة"، أبو العلاء عفيفي "التصوف والثورة الروحية في الإسلام"، أبو سراج الطوسي "اللمع"، علي سامي النشار "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"، أحمد زروق "قواعد التصوف"، زكي مبارك "مدخل إلى علم التصوف"، عبد الوهاب المسيري "العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة"، طه عبد الرحمان "روح الدين"، علي الوردي "وعاظ السلاطين"، محمد عمارة "الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية"، وسيأتي التفصيل في قائمة المصادر والمراجع.

7- خطة الدراسة:

في ضوء عرض محتوى الإشكالية ارتأيت أن أعالج الموضوع وفق التوزيع الآتي:

الفصل الأول: خصصته للحديث عن عصر محمد الغزالي وقضاياه، مصحوبا بتوصيف لحياته، مع تبيان مزايا فكره وآراء العلماء فيه، بما يتناسب وموضوع التزكية الأخلاقية في فكره.

والفصل الثاني: تناولت فيه مفهوم التصوف، ونشأته ومراحل تطوره، وخصوصية اللغة الصوفية، ومفهوم التصوف عند الغزالي بين الذوق والنقد، وكذا موقفه منه، ثم أدرجت علاقة التزكية بالتصوف.

والفصل الثالث: بيّنت فيه مفهوم التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي، وأسسها، وركزت على منهجه فيها الذي تضمّن العقل والنقل والوجدان، والعلم والواقعية، كما فصلت في القيم التي تقوم عليها التزكية عند محمد الغزالي، وخلصت إلى الكشف عن أبعاد التزكية الأخلاقية والتي تضمنت البعد العقدي والمعرفي، والتربوي والاجتماعي والجمالي والحضاري.

أما الفصل الرابع فخصصته لبيان عوائق التزكية الأخلاقية في منظور محمد الغزالي المتمثلة في المفاهيم المغلوطة للتدين، والجهل والتقليد، والأوهام والخرافات، والتي كانت سببا في التخلف المادي والخلقي للمسلمين، كما ناقشت التحديات المعاصرة التي تواجه التزكية الأخلاقية وركزت على الحداثة وسؤال التزكية الأخلاقية مع بيان الآراء البديلة التي يعتبرها محمد الغزالي كفيلة بتأسيس منهج للتزكية الأخلاقية لمواجهة متطلبات الإنسان المعاصر. وأنهيت الدراسة **بخاتمة** تضمنت أهم النتائج التي توصلت

إليها.

ثامنا: صعوبات الدراسة:

إذا كان الغالب في رسائل البحث استجابة لمتطلبات الضرورة المنهجية التحدث عن الصعوبات التي واجهت الباحث فإنّ الصعوبات في هذه الدراسة تحوّلت إلى تحديات تتطلب المتابعة وطول الانتباه في قراءة مشروع محمد الغزالي في التزكية، وربما كان ذلك حافزا على الاجتهاد في تقديم قراءة متواضعة في فكر محمد الغزالي واضاءة منهجه للتطلع على منهجه في التزكية الأخلاقية وذلك من خلال مؤلفاته وإنتاجه العلمي. كما تجدر الإشارة إلى قلة المؤلفات التي تناولت الجانب التزكوي من فكر محمد الغزالي. وكذلك صعوبة تتبع واستقراء مؤلفات محمد الغزالي لثرائها وتنوعها بسعة اطلاعه التاريخي والفكري والفلسفي والصوفي، مما جعل فكره مترامي الأطراف على مستوى قضايا ومجالات مختلفة، تحتاج إلى دراسات وبحوث للكشف عنها.

الفصل الأول:

محمد الغزالي عصره وحياته

المبحث الأول: عصر محمد الغزالي

المطلب الأول الحياة السياسية

المطلب الثاني الحياة الاقتصادية والاجتماعية

المطلب الثالث الحياة الثقافية

المبحث الثاني: حياة محمد الغزالي

المطلب الأول المولد والنشأة

المطلب الثاني إنتاجه الفكري

المبحث الثالث: مزايا فكر محمد الغزالي وآراء العلماء فيه

المطلب الأول مزايا فكره

المطلب الثاني آراء العلماء فيه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يحدد كل عصر معالم مفكريه بتوجيه اهتماماتهم وانشغالاتهم فيطبع بذلك بصماته على فكرهم فيكونوا صورة واضحة لمحرياته وأحداثه وانشغالاته فمن هو الغزالي؟ وكيف نشأ؟ وما هي الأحداث التي عاصرها؟ وما مدى تأثيرها في توجيهاته وتكوينه الشخصي والفكري؟

المبحث الأول: عصر محمد الغزالي

أتناول في هذا المبحث البيئة التي نشأ وعاش فيها محمد الغزالي على اختلاف أنماط مراحلها وجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، والتي كانت من أهم المؤثرات على اهتماماته وتوجهاته الفكرية المختلفة، لأن الانسان ابن بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها بما يسعه ذلك.

المطلب الأول: الحياة السياسية:

تميزت الأوضاع السياسية المصرية قبيل مولد محمد الغزالي سنة 1917م بمجموعة من الأحداث، حيث اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وترتب عليها أخطر حدث عرفه العالم الإسلامي، تمزيقاً وهيمنة، وللمرة الأولى في حياة المسلمين سقطت الخلافة بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن، فأزيلت بذلك السيادة العثمانية على مصر والعالم الإسلامي بأسره عندما أعلن كمال أتاتورك إلغاء الخلافة في 26 مارس 1924، ولقد أشار الغزالي إلى الحدث البارز الذي حل بالمسلمين قائلاً: "والقرن الذي وُلدت فيه من أسوأ القرون التي مرت بديننا الحنيف، لم أبلغ السنتين حتى كان المرتد التركي مصطفى كمال[1] قد رمى بالخلافة الإسلامية في البحر، نعم كان شبحاً لا روح له، بيد أن هذا الشبح كان مفزعاً لأعداء الإسلام، وإن كان مغمى عليه تحت هوى المطارق على أم رأسه فمن يدري؟ قد يستيقظ فجأة ويستأنف نشاطه المخوف فموته أجدى على أعداء الإسلام [2]، وبالتالي كان سقوط الخلافة الإسلامية نتيجة مباشرة للتشرذم الإسلامي وتراجع قوة المقاومة الفكرية والسياسية والعسكرية آنذاك.

---

[1]-مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938م): لقب بالذئب الأغبر، قائد حزب الشعب الجمهوري التركي، صاحب مشروع إلغاء السلطنة ومشروع كتاب اللغة التركية بالحروف اللاتينية، ينظر: حلمي مراد، **كل زعيم قصة: كمال أتاتورك**، مجلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ع407، ص 246

[2]-محمد الغزالي: **قصة حياة**، دار الرشاد للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، دط، دت، ص 12

ولما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية على سبيل الاحتلال المباشر ليس على الطريقة الفرنسية، أي دون محاولة محو الذات والهوية المصرية، ثار المصريون على الاحتلال البريطاني، فقد ترسخت في ذهن محمد الغزالي بعض الصور عن الثورة ضد الإنجليز والتي كانت قد امتدت إلى قريته، حيث قال: "برزت إلى الدنيا في كبوة من تاريخ الإسلام وأيام كئيبة كان الإنجليز فيها يحتلون مصر، كما احتلوا أقطاراً فيجاء من أرض الإسلام... وأذكر أنّ قريتي الصغيرة- نكلاً العنب محافظة البحيرة- شاركت في الثورة العامة ضد الإنجليز، وقَطعت أسلاك الهاتف، وأعلنت التمرد، وجاءت فرقة من جيش الاحتلال وعسكرت أمام أحد المساجد، واستخفى الناس في البيوت، وقتل أحد الفلاحين الذين لم يلتزموا بتعليمات منع التجول[1]، فكانت المواجهة بالمقاومة المباشرة وبالضرورة التجنيد الفكري.

وكان من أهم التيارات السياسية التي ظهرت بمصر خلال العقود الأولى من القرن العشرين: التيار الوطني الذي ركز نضاله السياسي على غاية تحقيق الاستقلال، وإجلاء الاحتلال العسكري في مصر، حيث دعا إلى فكرة القومية وبناء الوطن بتظافر جهود الجماعة الوطنية، ثم ظهر أيضاً التيار اليساري الديموقراطي متأثراً بما كان يحدث بأوروبا الشرقية[2] عامة وروسيا خاصة و دعا إلى العلمانية بفصل الدين عن السياسة، والاحتكام إلى العبقرية الإنسانية وهدى الضمير بدل الاكتفاء بالاحتكام إلى الإسلام –الكتاب والسنة- مع ترسيخ كثير ما تدعو إليه العصرانية، وبالمقابل تأسس تيار الاخوان المسلمين لغايات الإصلاح وإحياء الوعي الإسلامي، حيث كان لأفكار جمال الدين الأفغاني[3] ومحمد رشيد رضا[4]، ومحمد عبده[1]، وغيرهم دور بالغ الأهمية في بلورة الوعي بالمخاطر

---

[1]-محمد الغزالي: **قصة حياة**، المصدر السابق ص11

[2]-أحمد الطربين: **تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر – دراسة في التطورات والاتجاهات السياسية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1 1994م، ص 268

[3]-جمال الدين الأفغاني (1283-1332ه/1866-1914م): علما في الدين، سلفي العقيدة، لا يقول بالتقليد، نشر بحوثا منها: دلائل التوحيد، ديوان خطب الفتوى في الاسلام وغيرها. (ينظر: الزركلي: **الاعلام**، مرجع سابق ج2، ص 135)

[4]-محمد رشيد رضا: هو رضا بن علي بن محمد بهاء الدين بن مثلا علي القلموني البغدادي، صاحب مجلة المنار داعية التجديد والإصلاح وله تفسير القرآن الكريم المشهور باسم تفسير المنار ولد (1282 وتوفي 1313). ينظر ترجمته في: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار الملايين، بيروت، ص59.

الدقة والدعوة إلى اليقظة، وإحياء الوحدة الإسلامية العظمى وروح التضامن.

وقد تمكن الإمام حسن البنا[2] من صياغة الرؤى والآمال والتطلعات التي غيّر عنها هؤلاء الأعلام من دعاة الإحياء الإسلامي والجامعة الإسلامية، في شكل عمل جماعي تربوي سياسي شامل ومنظم هو تكتل جماعة الإخوان المسلمين[3].

تلك هي أهم التيارات السياسية التي ظهرت آنذاك، والتي تعاظم دورها وانتشارها زمن العهد الملكي إلى غاية قيام ثورة 1952م ومجيئ العهد الجمهوري، حيث ألغيت الأحزاب، فلم يسمح لأي تداول ديموقراطي على السلطة وذلك التضييق على حرية التفكير والتعبير والتجمع بذريعة صيانة وحدة الصفوف.

وكان من أهم نتائج إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء أي اتحاد أو تكتل بين المسلمين في مختلف بقاع العالم، وهكذا استراحت كل القوى المحاربة للإسلام من شبح الخلافة الذي ظل يخفيها قرابة أربعة عشر قرناً، وباتت متيقنة من عدم قيام كيان يوحد بين المسلمين ويجمع شملهم، وفي سنة 1948م شهد محمد الغزالي حدثاً سياسياً آخرا متمثلا في "**محنة ديسمبر** 1948" حين صدر قرار حل جماعة الإخوان ومصادرة ممتلكاتها، والتنكيل بأعضائها واعتقال عددا كبيراً منهم، فانتهى الأمر

= [1]-محمد عبدو: ولد في مصر سنة 1849م، من رجال الإصلاح والتجديد في العالم الاسلامي، اشتغل بالتدريس والصحافة، تولى منصب القضاء، ثم الإفتاء، توفي سنة 1905م، من آثاره: تفسير القرآن الكريم (ام يكمله)، رسالة التوحيد، رسالة الواردات في التصوف والفلسفة، الاسلام والنصرانية مع العلم والمدينة...و غيرها، (ينظر: الزركلي: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م، ج6، ص252-253)

[2]-حسن البنا: هو حسن بن أحمد عبد الرحمن البنا، ولد سنة 1906 في محافظة البحيرة بمصر، أبوه من العلماء المنشغلين بالحديث، التحق بدار المعلمين سنة 1930 في دمنهور، ثم دار العلوم، تخرج سنة 1927 وعين مدرسا، واشتغل بالدعوة والإصلاح، أسس النواة الأولى لجمعية الإخوان المسلمين سنة (1928م-1347هـ) أنشأ مجلة الإخوان المسلمين من آثاره مجموعة الرسائل-مذكرات الدعوة الداعية اغتيل في ربيع الثاني سنة 1368هـ/1949م، (ينظر: صلاح شادي: **كتاب الشهدان**، ص 11-44)

[3]-تعتبر حركة الإخوان من أكبر حركات الصحوة الاسلامية، حيث تعود نشأتها إلى أول اجتماع جمع بين حسن البنا وستة آخرين هم: حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم عبد الرحمن عبد الله، إسماعيل عز، وكي المغربي، في مارس 1928م في بيت حسن البنا فد مدينة الإسماعلية، حيث بايعوا الله على أن يكونوا لدعوة الإسلام جندا من أجل حياة الوطن وعزة الأمة، وفي سنة 1932م أصدرت حركة الإخوان مجلة النذير ثم في سنة 1947م صدرت مجلة الشهاب، ينظر عبد الله حلاق، **الصحوة الاسلامية (مناهج، مدارس، حركات)** بيروت، دار سبيل الإرشاد، ط1، 1420ه 1999م، ص 130-133.

باغتيال الحكومة جهراً لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول حسن البنا[1] ولم ينته النصف الأول من القرن العشرين حتى أصبحت أغلب الدول الإسلامية إن لم تكن جميعها تحت احتلال الدول الغربية، رغم مشاركة أغلبهم في الحرب العالمية الثانية بجانب الحلفاء. ذلك ما وفر عدة عوامل فكرية وسياسية واجتماعية فجرت كثيراً من المقاومات الشعبية ضد الاستعمار الغربي الذي فرض رد فعل جماعي ساد كل المجتمعات المسلمة ولم يكن محمد الغزالي —وهو طالب-بمعزل عن هذه الأحداث، بل كان يهتم بالشؤون السياسية منذ صباه فقد قاد إحدى المظاهرات في مصر حتى حُكم عليه بعدها بالفصل من الدراسة عاماً كاملا [2] وهو ما زاده يقينا بفريضة النضال لتحقيق غاية التحرر.

وما انفكت ألام محمد الغزالي تزداد كماً ونوعية وهو يرى الهزائم والمصائب التي حلت بالمسلمين فجعلتهم يتراجعون إلى الخلف باستمرار، تاركين الصدارة لغيرهم، بسبب تخلفهم الاجتماعي والسياسي وبالتجديد الفكري فبعد وفاة جمال عبد الناصر تولى أنور السادات الحكم حيث تميز حكمه بجملة من إجراءات التهدئة الاجتماعية أبرزها: إفراجه عن المعتقلين وإعلانه بدء سيادة القانون، ومحاربته مراكز القوة في العهد الناصري[3]؛ حيث توفر بذلك بصيص من الحرية كفل للمصريين التعبير عن آرائهم وإعلان وجهات نظرهم الناقدة في الممارسات السابقة، فانعتقت الأفكار وتحررت الأقلام، في الكتب المؤلفات تدون المشاعر المكبوتة وتنشر الصحف الأخبار المطموسة. وفي هذه المرحلة واصل محمد الغزالي مشواره الدعوي والفكري كإمام خطيب في الأزهر، ثم في جامع عمر بن العاص الذي شهد نوعاً من الانتعاش والتجديد، فأصبح يستقطب عشرات الألوف من المصلين الذين شدتهم خطبه الإصلاحية التي كانت زاخرة بتحقيقات ناقدة لواقع المسلمين، كاشفة لما كان يتربص بهم من الدسائس والمؤامرات، وكانت هذه الخطب بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وزجت بالغزالي إلى الخطوط الحمراء التي كان النظام يحضرها عليه، وعلى أي إنسان آخر، فقرر محمد الغزالي في هذه الأثناء ترك وطنه والسفر إلى المملكة العربية السعودية ما دام النظام في بلده قد

---

[1]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته –رحلة نصف قرن–**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط01، (1421هـ/ 2011م)، ص16

[2]-محمد الغزالي: **قصة حياة**، مصدر سابق ص 158

[3]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص 61

ضاق به ذرعاً وبات يهدده بشتى الوسائل والأساليب[1].

بعد هذا العرض الموجز لأهم أحداث وجوانب البيئة السياسية التي نشأ وعاش فيها محمد الغزالي يتضح مدى تأثره الكبير بها، نتيجة للظروف السياسية الصعبة التي اكتنفت حياته، ولازمت مشواره الفكري والدعوي، وما جرته عليه من التعذيب والسجن والإهانة تأكد بأن الاحتلال والاستبداد إذا حل بقطر لم يجعله إلا رمزاً للتأخر والانحطاط، ولهذا اهتم بحال العالم الإسلامي الذي تعرضت أغلب أقطاره إلى الاحتلال، وشهدت شعوبه حكاما ضيقوا عليها دوائر الحرية وكبتوا أنفاسها، فتفاعل مع الواقع السياسي بكل حيثياته رافضاً الاحتلال—الاستدمار-باعتباره كسب خارجي ساهم في تخلف المسلمين، كما أنه لم يهمل تأثير الأسباب الخارجية-ونجاح أعداء الإسلام في تقوية أسلحتهم وتجديد أساليبهم باستمرار لمنع أية نهضة مرتقبة، وشل أية حركة تسعى إلى تخليص العالم الإسلامي من تخلفه الكبير[2].

وتكونت لمحمد الغزالي نظرة عميقة وشاملة استوعبت معظم الملابسات التي اكتنفت مسار الحضارة الإسلامية، لذلك جاء تأكيده على الدوام بأن الداء نشأ من داخل الكيان الإسلامي، ثم نما واستفحل حتى إذا اصطدمت به أحقاد الأعداء، وأصابته سهامهم هوى على الأرض يترنح تحت أثقال التخلف، فالأسباب داخلية وخارجية، قديمة وحديثة، بسيطة ومعقدة ولكنها مع ذلك تلتقي في عامل مشترك هو الابتعاد عن الإسلام الحقيقي عقيدة وسلوكاً إما قصورا أو تقصيرا نحو، حينما غابت حوافز التفوق والتألق. وبدوره دأب على وصف العلاج لأزمة العالم الإسلامي بإبراز الأهمية الكبيرة التي تمثلها علاقة المسلمين بدينهم، وكيف أن ضعف هذه العلاقة كان سببا رئيسا فيما أصابهم من ذل وهوان، وتخلف كبير، ولهذا استغرب لكثير من مسلمي القرون الأخيرة، وتعجب من اعتقادهم بإمكانية تحقيق التقدم وإحراز الازدهار، وهم في منأى عن الإسلام، أو في كنف إسلام ناقص أو مجزأ أو مشوه، مؤكد أن الإسلام لوحده ولي النعمة على المسلمين عموما وعلى العرب خاصة، إذ أن العرب—بالإسلام وحده- دخلوا التاريخ وعرفتهم سكان المعمورة، ولولا الإسلام ما

---

[1]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص 61-62

[2]-للتوسع ينظر: محمد الغزالي: **الإسلام والاستبداد السياسي**، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط3، 1984، ص30. وينظر: محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، دار المعرفة، الجزائر، دت، س6-7

جاوزوا جزيرتهم، ولما كان لديهم شيء يقدموه للناس، ففضل الإسلام على العرب لا ينكره إلا أفاك جريء[1].

وسعيا من محمد الغزالي إلى تصحيح الوعي الديني للمسلمين، وتوثيق صلتهم بعقيدتهم وتعاليم ومبادئ وقيم الإسلام فإنه بيّن على أنّ معرفة الإسلام منوطة بالعودة إلى منابعه الأصلية القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، والتي يجعلها مشروطة بأمرين أساسيين هما:

أ- لابد من رد الروح إلى العقائد وربطها بالشرعية اعتقادا وسلوكا وأخلاقا، وإزالة الركام الكثيف من الجهل والتخبط الذي تزخر تحته أمتنا، ورفع المستوى الثقافي لها.

ب- لابد من رد روح العقيدة وقيمها الأخلاقية إلى النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية [2] وجعلها مشتقة من مناهج الإسلام، بمعنى ضرورة أن يتأثر نمط الحكم خاصة والأنماط الاقتصادية والاجتماعية عامة، بهذه الروح، بما يجعلها ليست فقط ملتزمة على سبيل التقليد، أو على سبيل الوراثة، ولكنها على يقين بأنّ الإسلام يستوعب التطبيقات الديموقراطية الأكثر تأمينا للحريات الفردية، والأكثر ضمانا للأمن الاجتماعي، وتحقيقا للازدهار والاقتصاد والتطور العلمي. وبذلك يتشبع الناس بقيم الإسلام فكرا وسلوكا وأخلاقا، بما يجعلهم أكثر التزاما بها وأكثر انسجاما بمقوماتها.

المطلب الثاني: الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

ترتبط الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالأوضاع السياسية حيث تشكل امتدادا لها، فقد كانت البيئة الاقتصادية المصرية التي عايشها الغزالي مرتبطة بدرجة كبيرة بالأحوال السياسية السائدة فيها والتي ميزها وجود الاحتلال الإنجليزي من جهة، ووجود القصر الملكي من جهة أخرى، وما يمثله من التبعية والانقياد للاحتلال، فقد كان الاقتصاد المصري تابعا بشكل عام للاقتصاد البريطاني في الفترة ما بين (1882-1919) [3] حيث وجهت بريطانيا الاقتصاد المصري بأسره إلى

---

[1]-محمد الغزالي: **مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف تفكر فيه**، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1989، ص 92-93

[2]-المصدر نفسه، ص 96.

[3]-أحمد طربين: **تاريخ المشرق العربي المعاصر**، مرجع سابق، ص269

قطاع الزراعة الذي اقتصر على زراعة القطن فلم تترك للفلاحين حرية إنتاج ما يريدون من مختلف المحاصيل الزراعية، وبالتالي فإن سياسة بريطانيا قائمة على جعل مصر سوقا لمختلف منتجاتها، وبمنع قيام أي صناعة فيها، حيث سيطر على الإنتاج المصري، ووجهه إلى مصالح بريطانيا، والحلفاء لتسديد خسائر الحرب، كما مكن الاحتلال للنقود الأجنبي خاصة في البنوك والشركات وقطاعات الاستثمار، فأنتج هذا الوضع تدهورا في القدرات الشرائية وانتشار البطالة، ولا سيما بين طبقات العمال والفلاحين.

كل هذه الأوضاع المزرية جعلت الكثير من المصلحين والمفكرين الاجتماعيين، يطلقون صيحات التحذير لشدة ارتباط هذه الأوضاع بمنظومة قيم المجتمع، ومن هؤلاء سيد قطب الذي أعلن احتجاجه حيث قال: "إني أتهم هذه الأوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الأمة عن العمل والإنتاج، وتشيع فيها البطالة والتعطل، وتقعدها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية وتؤدي بها إلى الضعف عن مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي تتزايد على مر الأيام[1]، ويضيف قائلا عن آثار هذه الأوضاع: "لقد انتهينا في مصر إلى مجتمع منحل مستهتر مريض بفعل جميع العوامل السيئة الناشئة عن الاحتلال الاجتماعي، والناشئة كذلك عن التيار العالمي المنحدر بين الحربين العالميتين... وأيا ما كانت الأسباب فقد انتهينا إلى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ويطفو على سطحه الاستهتار ويبدو الانحلال في جميع جوانبه"[2] فلقد توارثت سلالة العهد الملكي انتشار البؤس، والأمراض والأمية، وسوء حال الفلاحين، والمواطنين، وصغار الملاّك حيث كانت تستغل المزارعين أشد استغلال، وتفرض عليهم ضرائب باهظة مما خلف أوضاعا مزرية في المجتمع المصري، كان لها أثرها الظهار في اضطراب المستوى المعيشي، ميزه الفقر والمرض والبؤس الشديد، بل واهتزاز كثير من القيم الاجتماعية.

وبدوره يشير محمد الغزالي في كثير من كتاباته، وحواراته أننا لا نستطيع أن ننشئ عقيدة في مثل هذه [3] الأوضاع من الفقر والحرمان والقهر، هذا الثالوث الأخير الذي كان من أهم أهداف

---

[1]-سيد قطب: **معركة الإسلام والرأسمالية**، دار الشروق بيروت، ط1، 1980 ص 38

[2]-المرجع نفسه، ص 8

[3]-ينظر: محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، دت، ص61

الاحتلال والاستعمار.

فقد تأثر بالبنية الاقتصادية في عصره وألف أول كتاب في حياته كان " **الإسلام والأوضاع الاقتصادية** " منبثقا من زوايا هذا الواقع المر الذي نشأ فيه، حيث تناول فيه قضية الطبقية وسلبياتها المتمثلة في بناء الحواجز، وإنماء الفوارق بين أبناء الوطن الواحد، كما تناول قضية الملكية والاقطاع وما جرّته على المصريين من ذل وهوان وفقر وحرمان [1].

ولما كانت باقي الدول الإسلامية تمر بما تمر به مصر وتعاني مما تعانيه، فإن محمد الغزالي مضى في كثير من كتبه رافضا الاقطاع منددا بالطبقية صارخا في وجه الاشتراكية داعيا إلى الالتزام بقيم الإسلام، لأنه الدين الوحيد والنظام الفريد القادر على تخليص الشعوب من كل مظاهر التخلف والتقهقر والانحطاط، ذلك أن سياسته في المال الاقتصاد أكثر فعالية، وأوفر مردودية؛ ولأنه يوفق بين نظام اقتصادي وقيم اجتماعية، ولهذا اتجه محمد الغزالي في دعوته إلى تطبيق المنهج الرباني من خلال عدد من كتبه في مقدمتها "**الإسلام والمناهج الاشتراكية**"، و"**الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين**"، و"**الإسلام في وجه الزحف الأحمر**" و "**الإسلام والأوضاع الاقتصادية**"

كما ارتبطت الأوضاع الاجتماعية بالحالة السياسية في مصر إلى حد كبير، واتسمت الفترة التي عايشها الغزالي بأوضاع اجتماعية متردية، إذ أهم ما كان يسود هذه الحقبة تفشي الفساد الاجتماعي، ذلك أن السياسة البريطانية هدفها تشجيع الانحلال الخلقي في مصر بإبعاد الناس عن عقيدتهم وقيمهم الإسلامية[2].

بالتالي فإنه من الطبيعي إذ بعد تفشي الفساد السياسي والاجتماعي وضغط الاستعمار، في قلب الأمة وعقلها، أن تنشأ في المجتمع ألوان الظلم وصنوف القهر والبؤس ما تنوء بحمله الجبال، وعن المظالم الاجتماعية والفوارق الطبقية السائدة آنذاك حيث يوسف القرضاوي: "كان الظلم الاجتماعي أول ما لفت نظر الشيخ الغزالي وشغل قلبه وفكره" فقد نشأ في بيئة رأي، فيها آثار هذا الظلم صارخة حيث الإقطاعيات والخاصية الملكية تتحكم في الفلاحين الكادحين تحكّم السادة في العبيد...

---

[1]- محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص28-31.

[2]-المصدر نفسه، ص103

كان الغزالي بعقله وقلبه ومشاعره مع الطبقة الكادحة، إنها أحب الطبقات إلى الله وأحقها بالحياة الكريمة وأوجدها بالمستقبل الباسم... [1]

وعن أثر الظروف الاجتماعية في تكوين وعي محمد الغزالي وصقل مواهبه يقول أحمد العسال: "فكثيرون لا يعرفون أن الشيخ الغزالي –رحمه الله– نشأ في بيئة يطحنها الإقطاع، ويستغلها المُلاك من أرباب الباشوات والأمراء آنذاك، فأبصر المظالم عن قرب وأحس بالألآم عن معايشة ومكابدة، وأثرت في نفسه صور الفلاحين والمزارعين وهم لا يأخذون من خيراتهم إلا الفتات، ولا يستوفون من جهدهم وكدهم إلا القليل لذلك نشأ مرهف الحس، حي الوجدان، يقظ الضمير مشدوداً بفكره ونفسه وطاقته إلى رفع المعاناة عن الكادحين المظلومين[2]، إنه إحساس بالانتماء إلى هؤلاء بل إنه شعور الغزالي، وليست شهادة شاهد فقط.

ونتيجة للتحديات التي ما فتئت تجابه المجتمع المصري، وتحول بينه وبين حياة الرخاء والحرية والمساواة، فإن الغزالي الذي عايشها وتفاعل معها وأحس بما أضمرته من سوء وجور، تأثر بها كثيراً مما دفعه إلى رفضها في مختلف كتبه التي كانت سلاحاً على أعداء الإسلام، فرفض الطبقية ودافع عن المساواة ودعا إلى العمل والإنتاج في كتابه "الإسلام والأوضاع الاقتصادية"، كما فضح مؤامرات الأعداء الذين عملوا بجد لنشر الانحلال الخلقي والتفسخ القيمي والتحلل الاجتماعي في الأوساط المصرية، فدعا بذلك المسلمين إلى ضرورة التمسك بالدين عقيدة وسلوكاً من خلال معظم كتبه منها " ظلام من الغرب" و"الغزو الثقافي يمتد في فراغنا" إضافة إلى تصديه لكل أنواع الغزو الفكري التي تحاول النفاذ إلى قلب العالم الإسلامي، متخذة صوراً ومصطلحات شتى كالشيوعية والرأسمالية، والعلمانية والتبشيرية مؤكدا باستمرار أن هذه الأنماط الغازية للعالم الإسلامي هي التي جرته إلى ميدان التخلف الحضاري والخلقي، وأن الإسلام هو الكفيل الوحيد لضمان حياة اجتماعية يسودها العدل والمساواة والتعاون، ويملؤها عالم القيم والأخلاق والفضائل.

---

[1]-يوسف القرضاوي: **مجلة إسلامية المعرفة**، مطبعة زعباش، الجزائر، 1997، ع7، ص 29

[2]-فتحي الملكاوي: **العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي**، أحمد العسال، تنظيم المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، 1417-1997، ص 27-28

المطلب الثالث: الحياة الثقافية

يبدأ الحديث عن الأوضاع الثقافية التي عايشها الغزالي وتفاعل معها من مجال التعليم، لأنه يمثل عصب الحياة الثقافية والبنية الأساسية لنمو الفكر والإبداع الثقافي والحضاري لدى المجتمعات، فثورة 1919[1] بمثابة عهد جديد للثقافة المصرية، التي كان من نتائجها انطلاق نهضة واسعة وجهوداً مكثفة لإحياء اللغة العربية من جديد، وإعادتها إلى موقع الصدارة وترسيخها بين مختلف شرائح المجتمع المصري، كما شهدت مصر نهضة في مجال بناء الجامعات عبر مختلف المدن المصرية.

وحظي الأزهر بعناية كبرى بفضل صدور قانون إصلاحه سنة 1930م والذي بمقتضاه أصبح الأزهر معاهد وكليات، فأدخلت إصلاحات كبيرة في مناهجه، الشيء الذي مكنه من القيام بدور مهم في مجال الدراسات الإسلامية واللغة العربية، وكان الغزالي في هذه الفترة –فترة الإصلاحات– طالباً بالأزهر أين لمس ثمرة هذه الإصلاحات في الدراسة وفي المنهج قائلاً: "هي دراسة حسنة لا يجوز وصفها بأنها دينية خالصة، فإن العلوم المدنية كانت لها أنصبة محترمة، والنهج الذي ارتبطنا به كان من وضع الشيخ مصطفى المراغي[2] وهو من مدرسة محمد عبده الإصلاحية وأعتقد أن هذه الفترة من أزهى فترات التألق العلمي في الأزهر[3].

وموازاة مع النهضة التي عرفها التعليم واللغة العربية، كانت الساحة العلمية المصرية تشهدُ نهضة صحفية كبرى تشمل الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية المتخصصة والشهرية، أما مجال الكتابة فقد شهد تزايدا كبيراً في دور النشر، والطباعة، والترجمة، مما أثرى الساحة العربية بعناوين كثيرة ومتنوعة لكتب متعددة التخصصات، والواقع أن التحديات الثقافية في مصر خلال العقود الثلاث الأولى من القرن العشرين، قد أثمرت نهضة هائلة في الحركة الأدبية والفكرية، والفلسفية، حيث كان الإسلام وبواعث تجديد فكره يمثل روح هذه الحركة، وقد ساعد على ذلك نزوع الشعب المصري

---

[1]-شهد هذا العام قيام انتفاضة جماهرية في البلدان العربية ضد المستعمر الأجنبي الغاشم، وتوالت بعدها الثورات التحررية ضد الاستعمار الفرنسي و الانجليزي في كل من سوريا، العراق وفلسطين. ينظر: أحمد الطربين: مرجع سابق، ص271

[2]-مصطفى المراغي: مفسر مصري تخرج بدار العلوم، ثم كان مدرسا للشريعة الإسلامية بها، وليّ نظارة بعض المدارس الثانوية، ثم عيّن أستاذا للعربية والشرعية الإسلامية، توفي بالقاهرة سنة 1952م، من أهم مؤلفاته: الحسبة في الإسلام، الوجيز في أصول الفقه، تفسير المراغي، علوم البلاغة وغيرها. ينظر: الزركلي، **الأعلام**، مرجع سابق، ج1، ص258

[3]-الغزالي: **قصة حياة**، ص 16

الطبيعي الفطري إزاء الإسلام.

كما كانت دعوات جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبدو في اليقظة والصحوة، وكذا لأفكار محمد رشيد رضا، وحسن البنا، أثر فاعل في مسار الانتهاض الفكري والعلمي والأدبي [1]، إلا أن تصادم الثقافة الأصيلة مع الفكر الوافد ومع الاحتلال البريطاني قد استترف طاقة هائلة من الجهود، التي كان يمكن استغلالها في عملية البناء الاجتماعي والتأسيس الثقافي، ورغم الجهود إلا أن التوجهان بقيا على طرفي النقيض ففي الأدب ظهر العقاد وطه حسين، ومحمد حسين هيكل[2]، ومصطفى صادق الرافعي[3] وغيرهم، وفي الفلسفة والفكر برز منصور فهمي، مصطفي عبد الرزاق[4]، محمود شلتوت[5]، محمد البهي، محمد يوسف موسى، وأبو زهرة[6] وغيرهم.

كما ظل الاستعمار الثقافي يرصد عن كثب، هذه النهضة الأدبية والفكرية، والتي جعلت الأدب العربي يستعيد مكانته وازدهاره، الذي كان عليه خلال العصر العباسي الأول، فلم يحدث منذ وقت طويل في تاريخنا أن تعاصر مثل هذا الجمع من العمالقة كما حدث خلال هذه النهضة الحديثة[7]

أما الصراع الفكري فقد ازداد قوة وعنفوانا مع انتشار الصحوة الإسلامية، وتجاوب الشعوب مع طروحاتها ورموزها والواقع الذي ينبغي إثباته هنا أن هذه الصحوة الجدلية كثيراً ما كانت تأخذ

---

[1]-محمد الغزالي: **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، المحاكم الشرعية**، الدوحة، 1402ه، ص92-93

[2]-حسن هيكل: كاتب صحفي ومؤرخ لغوي وسياسي، حصل على الدكتوراه من جامعة السربون، تولى وزارة المعارف، من آثاره: حياة محمد، في منزل الوحي، ثورة الأدب، وغيرها، توفي في القاهرة 1956م، ينظر: الزركلي: **الأعلام**، المرجع السابق، ج6، ص107.

[3]-مصطفي صادق الرافعي: ولد في 1881م، أديب وشاعر، له ديوان شعر في ثلاثة أجزاء: تاريخ آداب الغرب، إعجاز القرآن، رسائل الأحزان...و غيرها، توفي سنة 1937م، ينظر: المرجع نفسه، ج7، ص235

[4]-مصطفى عبد الرازق: وزير الأوقاف وشيخ الأزهر بمصر، من تلاميذ محمد عبده، من مؤلفاته: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، والدين، الوحي والإسلام...الخ، توفي بالقاهرة سنة 1946م، ينظر: المرجع نفسه، ج7، ص 231

[5]-محمد شلتوت: فقيه ومفسر مصري، تخرج من الأزهر، اشتغل بالتدريس وعمل بالمحاماة، من أعضاء مجمع اللغة العربية، ثم شيخا للأزهر سنة 1958، له 267 مؤلف مطبوع منهم: تفسير القرآن الكريم، توفي سنة 1963م، انزر: المرجع نفسه، ج7، ص237

[6]-أبو زهرة (1316-1394ه_1898-1974م) تولى تدريس الشريعة، ثم عيّن أستاذا محاضرا للدراسات العليا سنة 1935م ثم كان عضوا في مجلس الأعلى للبحوث العلمية، فوكيلا لكلية الحقوق لمعهد الدراسات الإسلامية، له 40 مؤلف منها: الخطابة، تاريخ الجدل في الإسلام، أصول الفقه للتوسع ينظر: المرجع نفسه، ج7، ص237

[7]-محمد الغزالي: **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**، ص93

مظاهر الصراع وأشكاله، والتناقض الحاد بين العديد من الاتجاهات والتيارات الثقافية، فاستمرت بأساليب مختلفة إبان عهد الجمهورية بعد أفول النظام الملكي، وعلى الرغم أن كل نظام حاول بطريقته الخاصة احتواها واستغلالها لدعم وجهته، إلا أن هذه الحركة الثقافية هي من جهة المنبع والمنطلق ثمرة من ثمرات ثورة 1919م الشعبية، تلك الثورات التي أطلقت العنان لحرية الرأي والتعبير والمعارضة ودعت إلى الانفتاح الثقافي والحضاري على الغرب وشجعت حركة الترجمة في الفكر والأدب.

فرغم أن الحياة الثقافية المصرية قد شهدت نهضة حقيقية في هذه الفترة إلا أنها عرفت معارك وهجمات، استهدفت في أغلبها الدين الإسلامي، والثوابت الراسخة في عقيدة التوحيد، وقد تعددت الجهات والقواعد الخلفية لهذه المعارك، والهجمات بين العلمانيين والملحدين والشيوعيين والتغريبين[1] والماديين، والذين إذا اختلفت منطلقاتهم و ووسائلهم فإنها استهدفت كلها الدين الإسلامي بموروثه الحضاري والفكري والعقيدي والسلوكي والاجتماعي، فموجة الإلحاد استهدفت الجانب العقائدي في الإسلام، كما هو الحال بالنسبة لباقي الأديان فيما استهدفت موجة الشيوعية الجانب السلوكي، وأما الحركة العلمانية القومية العربية هي استهداف مباشر للمنظومة السياسية والاجتماعية للمسلمين، هو ما كان له دور في توجيه الحياة الفكرية للغزالي للدفاع عن الإسلام عقيدة شريعة وسلوكا، وفكرا وتراثا ومنهج حياة، فقد برز من بين الذين حملوا لواء الدفاع عن الإسلام، والذود عن حماه، فجابه هذه الهجمات وردّ عليه الشبهات، كما كشف عن أفكار الملحدين والشيوعيين والعلمانيين، وتجلى ذلك في كتاباته منها "من هنا نتعلم" و"دفاع عن العقيدة والشريعة" و"صيحة تحذير".

وقد كان لكتبه دور كبير في رد المفكرين ذوي التوجهات القومية والعلمانية اليسارية إلى الفكر الإسلامي، كما حدث ذلك مع خالد محمد خالد[2] على سبيل المثال، وهو ما يعني أن البيئة المليئة بالأفكار والثقافات والآراء على تباينها تعد في الغالب بيئة حبلى بالاجتهادات والتنافسات والصراعات والاختلافات، ومن ثمة فهي بيئة تستفز الفكر وتستدعي كل أنواع الأسلحة الفكرية

[1]-كان للغزالي مواقف ضد دعاة التغريب، ومن ذلك المؤتمر الوطني للقوى الشعبية 1962 الذي عقده جمال عبد الناصر وتحدث فيه الغزالي مناديا بضرورة استقلال الأمة في تشريعها، ووجوب تميزها في تقاليدها فلا تكون نسخة للغرب، ينظر يوسف القرضاوي الشيخ الغزالي كما عرفته، مرجع سابق ص 30، وسيأتي تفصيل موقفه من ذلك في الفصل الرابع من المبحث الثاني.

[2]-محمد خالد: كتب كتاب "من هنا نبدأ"، تحدث فيه عن فصل الدين عن السياسة، فتصدى له الغزالي، بكتابه "من هنا نعلم"

والعلمية والعقلية، فالقرنان التاسع عشر والعشرون شهدا حمى تيارات فكرية، وسياسية، واقتصادية لهبت العقول في العالم كله، فكانت اليسارية والليبيرالية والقومية وكان العالم العربي أحد أبرز المتأثرين بها، فلم يلبث هذا الأخير أن انفتح عليها حتى سار الكثير من النخبة المثقفة والمتعلمة في تبنيها، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل فقد تحول كثير منهم إلى رسل في أقوامهم يبشرون، وينذرون، وفي الوقت نفسه يسفهون الموروث الذي ظلت الأمة الإسلامية تعض عليه بالنواجد، إنها الأجواء التي ظهرت فيها حركة الإخوان المسلمين تيار حمل على عاتقه أمانة الدفاع عن الدين ضد تلك التيارات والأفكار التي سعت إلى فصل العقيدة عن الشريعة، ولقد كان الغزالي من أبرز رجالها الذين استفزهم تلك الأفكار والمشاريع الغربية من الأمة وتاريخها ووجدانها.

وإذا كانت الحقيقة التي عاصرها الغزالي مليئة بالتناقضات والانقسامات السياسية والدينية، فمما لا شك فيه أنه كان شاهد أعلى احتدام التناقضات، والاختلافات، وقد كان في موقع القلب منها إذ أسهم بفكره وعلمه في توجيه تياراتها، فكان له دورا هاما في إيقاظ العقول وتنبيه القلوب والثورة على الظلم، وإحياء الشعور الديني ونوعية الضمائر.

وهكذا تبدو ملامح الأوضاع الثقافية التي عايشها الغزالي والتي انطبعت بالصراع العقدي والفكري متراوحة بين الانقباض والتمدد، وبين التشدد والانفراج، وبين القطيعة والتهدئة، والذي يظهر بجلاء فيها هو تفاعله معها وتأثره بها وبكل ما حملته بين جنباتها من الأحداث والوقائع، وقد تجسد ذلك في مواقفه الجريئة وكتاباته الشجاعة التي كانت تلقى التأييد، والإقبال لدى الجماهير العريضة على العكس تماماً من مواقف السلطات العليا التي كانت كثيراً ما تصادر كتبه وتمنع تداولها ونشرها بين الفقراء لعلمها بمدى فعاليتها وتأثيرها فيهم، بحجة أنها أطروحات متطرفة تهدد الأمن الاجتماعي، ولعلّ مراحل حياته الشخصية والتعليمية كان لها تأثيرها على مواهبه.

المبحث الثاني: حياة محمد الغزالي

المطلب الأول: المولد والنشأة

1-ميلاده

ولد محمد الغزالي في 22 سبتمبر 1917 م في قرية نكلا العنب [1] محافظة البحيرة، من منبت طيب احتضنه ورعاه، حيث كان والده رجلاً عابداً قوّاماً ومكافحاً جلداً [2] وأمّه امرأة فاضلة، وقد سماه والده "محمد الغزالي" برؤية رآها: "وقد سماني محمد الغزالي لأن أبا حامد أوصاه بذلك في رؤيا صالحة رآها وهو أعزب [3].

نشأ محمد الغزالي بين تسعة إخوة هو أكبرهم، اهتم والده بتربيته وتعليمه منذ ولادته"، ولما كان أبوه من الحفاظ فلم يبلغ محمد الغزالي الخامسة من عمره حتّى أدخله في الكتاب، وحرص عليه حتى حفظ القرآن في سن العاشرة [4] " كما درس مبادئ الحساب وشيئاً من قواعد اللغة.

وربما أقلق الغزالي -كما حكى عن نفسه جوّ الدراسة في قاعة الكتّاب المليئة بعشرات المستويات، حيث تساءل عن جدوى هذه الطريقة في فهم كتاب الله وذكر أنّ هناك من رفضها بحجة أنها تشحن أذهان الأولاد بكلمات غير مفهومة، وربما قيل أنّ القرآن ما بقي متواتراً إلا بفضل الكتّاب، في حين ضاعت كتب سماوية أخرى. وإن كانت ضمانات الخلود توفرت لهذا القرآن العظيم فما ضاع منه حرف، غير أنّ ذلك لا يقصد لذاته، فبقاء المبنى هو من أجل حياة المعنى وازدهاره، والعمل به وإقامة حضارة على دعائمه...وحفظه بالألفاظ لا يحقق هذه العظات العظام، كما لاحظ الغزالي أنّ نظام الكتّاب قد تلاشى تقريباً وحلّت محله مدارس للقرآن فيها وجود يشبه العدم، وتكاد التربية الإسلامية عندنا تجف ينابعها [5]"، كما تمنى أن تقام مؤتمرات دائمة لاستبقاء

---

[1]-عبد الحليم عويس، الشيخ محمد الغزالي، تاريخه وجهوده وآراؤه، دار القلم، دمشق (1435-2000م) ص7، نكلا العنب ولد فيها ثلة من علماء مصر منهم محمود سامي البارودي، محمد عبدو، محمد شلتوت، حسن البنا،...و غيرهم

[2]-محمد الغزالي قصة حياة، **مذكرات الشيخ محمد الغزالي**، دار النشر والتوزيع قسنطينة-الجزائر ص12

[3]- المصدر نفسه، ص12

[4]-المصدر نفسه، ص13

[5]-المصدر نفسه، ص14

محاسن الكتّاب واستبعاد مساوئه ووضع سياسة جديدة لربط الأجيال الناشئة بأصولها وقيمها.

ولأنّ الغزالي قد برز في فترة من تاريخ الإسلام وأيّام كئيبة احتل فيها الانجليز مصر، ولظروف الجهل والتخلف والمعاناة، انتقل والد محمد الغزالي من القرية الصغيرة إلى الإسكندرية أملاً في تعليم الطفل الغزالي وتمكينه من فرص أكثر في المدينة؛ حيث استقرت الأسرة، أين اشترى والده مكتبة اتخذها محمد الغزالي ملاذه في الاطلاع والتحصيل، فقرأ فيها الروايات والقصص الشعبية وكان ذلك عاملا من عوامل توجيهه نحو الكتابة والتأليف مع العلوم الأخرى.

2-تعليمه:

دخل محمد الغزالي الأزهر في التعليم الابتدائي وعمره 11 سنة عام 1928م، حيث قضى تسع سنوات بمعهد الإسكندرية، تلقى فيه تعليماً دينياً ومدنياً كانت سنواته من أحلى أيام عمره[1] وعن دراسته في هذا المعهد يقول نجله علاء الغزالي: "في دراسته في هذا المعهد كان ينافس شيوخه ومعلميه بالحجة البالغة وقد شهدوا له بالنبوغ المبكر حتى تخرج من معهد الإسكندرية عام 1938م"[2]، ومن المعهد نفسه حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة 1937م، ثم التحق بالتعليم العالي – كلية أصول الدين بالقاهرة وفيها تلقى العلم عن شيوخه من كبار العلماء، حيث التقى بحسن البنا وأصبح عضوا بجماعة الاخوان المسلمين، فبدأت أهم تحولات حياته الفكرية والعلمية[3].

3- مساره العملي:

تزوج الغزالي وهو لا يزال طالباً بكلية أصول الدين وأنجب من الأولاد تسعة عاش منهم ولدان (علاء وضياء) وخمس بنات كما بدأت حياته العملية أثناء طلبه العلم بكلية الأزهر حيث عمل إماماً وخطيباً بأحد مساجد القاهرة، وعندما نال شهادته العالمية سنة 1941م عُيّن في العام التالي إماماً

---

[1]-محمد الغزالي، **قصة حياة**، مصدر سابق ص16

[2]-علاء محمد الغزالي، **السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي**، الغطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، فتحي الملكاوي، أحمد العسال، مؤسسة آل البيت (1417هـ – 1997م)، ص184

[3]-محمد عمارة، **الشيخ الغزالي**، الموقع الفكري والمعارك الفكرية، دار الفكر، دار الرشاد، ط1 (1418هـ-1998)، ص39

وخطيباً بمسجد العتبة الخضراء بالقاهرة سنة 1942م بوزارة الأوقاف المصرية، ثم تدرج في مناصب الدعوة والارشاد فيها.

وبعدها تولى التفتيش في المساجد، والوعظ بالأزهر الشريف، ومسؤولا عليها، فمديراً للتدريس، ثم مديراً للدعوة والارشاد في 1971م، فوكيلاً لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية في سنة 1981م[1]، كما كان رئيساً للتحرير في مجلة "نور السلام" الذي كان يصدرها الأزهر.

وقد كان لمحمد الغزالي نظر ورؤية ثاقبة في التوصيف والنقد حيث يقول عن وضع الدراسة ومستواها في الأزهر " إن المناهج الموضوعة تكفي وتشفي، إن الطريقة التي تعلمنا بها تفتق العقل والأذهان وتحرر المراد وتضبط المفاهيم، وتضمنت مناهج الكلية إلى جانب العلوم التقليدية دراسة موسعة للفلسفة في شتى العصور وتوسعاً آخر في علم النفس والأخلاق [2] أما عن تقيمه ونقده لمناهج الأزهر بعد دراسته يخلص إلى القول: "الحق أنّ الأزهر يحتاج إلى تجديد ثقافي وروحاني يقوم به رجال أولوا العزم [3] ".

باتت ظروف سياسية تضيّق من جهود الغزالي الفكرية والدعوية اضطرته إلى مغادرة مصر والانتقال إلى الدول الإسلامية التي فتحت له أبوابها منها السعودية التي عمل بها أستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وأمضى مدة ما بين (1974-1981م) وعمل بقطر أستاذاً ما بين (1982-1984م).

4-محمد الغزالي في الجزائر:

شارك في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر بانتظام منذ (1980 قبل أن يعيش فيها (1984-1989م) منشئاً وراعياً لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، ورئيساً لمجلسها العلمي [4] كما أسهم في حركة التعريب في الجزائر.

---

[1]-محمد عمارة، **الشيخ الغزالي**، مرجع سابق، ص39.

[2]-محمد الغزالي، **قصة حياة**، مصدر سابق، ص(161-163)

[3]-المصدر نفسه، ص(166-167)

[4]-محمد عمارة، **الشيخ محمد الغزالي**، الموقع الفكري والمعارك الفكرية، ص10.

تمّ انشاء جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بمدينة قسنطينة، حيث فتحت أبوابها في شهر سبتمبر 1984م أين عُيّن محمد الغزالي رئيسا للمجلس العلمي، فاختار لنفسه أن يدرس تفسير القرآن الكريم، وعمل في الجامعة موّجها وأستاذاً ومفتياً، يزوره الناس للفتوى في الجامعة وفي بيته، وقد كان محور أعماله[1] في الجامعة وخارجها، الدعوة إلى الله، ودراسة قضايا المسلمين، وأصبح محل اهتمام ومتابعة من خلال حديثه الأسبوعي الذي يلقيه في التلفزة كل يوم إثنين، كما كان يلقي كل جمعة تقريباً درساً في أحد مساجدها، وغالباً ما يكون في التفسير الموضوعي لسورة من السور، يربطها بأوضاع المسلمين قديماً وحديثاً [2].

لم يكتف "الغزالي" في نشاطه الدعوى في مدينة" قسنطينة" وحدها، بل كان يفعل ذلك في العديد من مدن الجزائر، وبذلك " أوصل ما انقطع من دعوة الإمام ابن باديس والشيخ الابراهيمي وغيرهما من رجال الدعوة والتجديد الذين دعوا في الجزائر وغيرها إلى النهضة والوعي وجاهدوا في الله حق جهاده، وحسب الناس أن ابن باديس قد بعث وأن الإبراهيمي قد عاد [3]".

قال عنه الجزائريون " أنّ الله قيض للجزائر من يحفظ لها عروبتها واسلامها مرتين عبد الحميد بن باديس أولاً ومحمد الغزالي ثانياً" كما كُلف من طرف " المعهد العالمي للفكر الإسلامي أثناء اقامته بالجزائر بعمل دراسة عن السنة النبوية، فاستجاب للطلب وقام بتأليف كتابه " السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث " الذي أثار ضجة بين طائفة من المسلمين، فأقيمت من أجله مؤتمرات لمناقشة الكتاب وتحديد معالمه [4]. بعد رحلة دعوية دامت خمس سنوات من العمل الدؤوب والاجتهاد المتواصل، من سنة 1984 إلى سنة 1989 قرر "الغزالي ترك الجامعة الجزائرية والعودة إلى بلده بسبب المرض وقرر الاستقرار في مصر وقال لو خرجت من جديد إلى خارج مصر لكانت البلد

---

[1]-عمار طالبي: **الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر**، إسلامية المعرفة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي، السنة الثانية، 1417هـ/1997م، ع7، ص54-55.

[2]-كان محمد الغزالي يدرس مقياس تفسير الموضوعي لطلبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر، سنة (1985-1989) لجميع المستويات.

[3]-عمار طالبي: **الشيخ محمد الغزالي كما عرفته في الجزائر**، مرجع سابق، ص 21

[4]-علاء محمد الغزالي: **السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي**: مرجع سابق، ص193

الذي أود إليه هي الجزائر. [1]

وكان من بين الخدمات الجليلة التي قدمها محمد الغزالي للجزائريين، فضلاً عن الدروس والمواعظ والتوجيهات أنه سمح بإعادة طبع كل كتبه تقريباً، مع تنازله عن تقاضي حقوقه المادية، كل ذلك تيسيراً لاقتنائها على القارئ الجزائري [2]، ومكافأة له على جهوده المتواصلة في خدمة الدعوة بأرض الجزائر، وعرفانا بفضله على شعبها، قام الرئيس "الشاذلي بن جديد" بتكريم – الغزالي قبل مغادرته-تكريماً على أعلى مستوى، مقلداً إياه وسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني [3].

لم ينقطع الغزالي طيلة فترة إقامته في "الجزائر" عن التأليف والكتابة، فأضاف بذلك مجموعة كتب إلى رصيده الفكري، منها: "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، "الطريق من هنا"، "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة ز الوافدة"، "جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج"، "سر تأخر العرب والمسلمين" و"المحاور الخمسة في القرآن" والجزء الأول من الحق المر " و"مستقبل الإسلام خارج أرضه"، "كيف نفكر فيه" و"صيحة تحذير من دعاة التنصير".

وفي سنة 1996 شاءت حكمة الله أن يسافر إلى الرياض للمشاركة في مهرجان "الجنادرية" أين فاضت روحه الطاهرة سماء يوم الأحد 19 شوال 1416ه الموافق لـــ 9 مارس 1996م وهو على منبر الدعوة إلى الله.

5-العوامل المؤثرة في فكره:

تتلمذ محمد الغزالي على أيدي أساتذة هم في اعتباره رجالٌ راسخون أمثال **أبي زهرة، محمد العمراوي، محمد عبد الله دراز، آمين الخولي وعبد الوهاب عزام، عبد الوهاب خلاف الشيخ محمد الخضر، محمد البهي، محمد يوسف موسى** وغيرهم مما تأثر محمد الغزالي وأخذ عنهم نصيباً وافراً من مختلف العلوم والمعارف التي شكلت له زاداً غنياً وفكراً عميقا، وقد تميزت هذه المرحلة الأزهرية بدخوله لأول مرة عالم الكتابة وتفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يدي حسن البنا

[1]-عمار طالبي: **الشيخ محمد الغزالي كما عرفته في الجزائر**، مرجع سابق، ص 54-55

[2]-مسعود فلوسي: **الشيخ محمد الغزالي غصن باسق في شجرة الخلود**، مرجع سابق، ص 91

[3]-المرجع نفسه، ص 91.

وجماعة الاخوان حتى أطلق عليه "أديب الدعوة" وفي هذا يقول محمد الغزالي: تأثرت بالشيخ **عبد العظيم الزرقاوي** المدرس بكليه أصول الدين وهو مؤلف **"مناهل القرآن"** وتأثرت بالشيخ **إبراهيم العرباوي** والشيخ **عبد العزيز بلال** والشيخ **شلتوت** والشيخ **العناني** أما الذي تأثر به أكثر هو الإمام حسن البنا حيث يقول "تعلمت من حسن البنا الانصات للغير مهما خالف في الرأي نعم عندما أخالف أحداً ما فلا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير ومواهب قد أفادها الله عليه[1].

المطلب الثاني: انتاجه الفكري

ترك محمد الغزالي على امتداد خمسين عاماً، رصيداً كبيراً من الكتب والمقالات والخطب والدروس التي ألفها وألقاها، فكانت متنوعة تنوع الظروف التي عاشها وتفاعل معها، والتجارب التي خاضها والمواقف التي شهدها، كما أنها معبرة عن حصيلة السنين التي حملت في طياتها معاناة عميقة عاشها الغزالي وذكريات قضاها في مختلف ربوع العالم، فكان انتاجه الفكري ناطقاً بالحقائق معبراً عن واقعه حتى وصفه محمد عمارة بأنه يشمل جامعة للفكر الإسلامي[2] فقد كتب الغزالي في محاور مختلفة للفكر الإسلامي، ففي محور العقيدة كتب **"عقيدة المسلم"، "ركائز الايمان"، "مع الله"، "تراثنا في ميزان الشرع والعقل"** وفي محور الثقافة الإسلامية وجهه لخدمة الإسلام والدفاع عن حماه وإحياء روح العقيدة فيه ايماناً وخلقاً ووجداناً، ضمّه كل أحاسيسه ومشاعره، كما عبّر عن نفسه: "كل كتاب كتبته، وكل محاضرة أو ندوة أو مداخلة شاركت فيها انما بقلب يحترق وعاطفة تتحرك وكل ذلك أقدمه بين يدي ربي عزّ وجّل يوم القيامة، وأسأله أن يتقبل ذلك خالصاً لوجهه تعالى[3]".

فقد كان واحداً من العلماء الذين عملوا على انقاذ الثقافة الإسلامية من الفصل بين العقل والقلب، ذلك الفصام الذي حوّل حتى العبادات إلى أشكال جفت فيها الروحانية وحوّلت القلوب إلى بدع وخرافات، عندما انتهى الصراع بين الصوفية والفقهاء إلى فقهاء لا قلوب لهم، وصوفية لا عقول لهم، فجاءت مدرسة لإحياء والتجديد التي تربى فيها الغزالي وأصبح من أعلام علمائها لتعيد الوفاق والاتفاق والتكامل بين "العقول المؤمنة" و"القلوب الواعية" فانتصرت العقلانية المؤمنة والمجاهدة

[1]-محمد عمارة: **الشيخ محمد الغزالي**، ص 42

[2]-المرجع نفسه، ص 6

[3]-المرجع نقسه، ص 6

الروحية التي تزكي النفوس وتفجر شلالات النور الإلهي من القلوب وفي البناء الاجتماعي ومواجهة الجمود والحرفية النصوصية كتب **"تأملات في الدين والحياة"**، **"ليس من الإسلام"**، **"كفاح دين"**، **"قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة"**، **"مشكلات في طريق الحياة الإسلامية"**، **"دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين"**.

أما في محور السيرة والأدب النبوي، والفقه والاجتهاد، كتب **"فقه السيرة"**، **"فن الذكر والدعاء"**، **"هذا ديننا"**، **"دستور الوحدة الثقافية"**، **"كيف نفهم الإسلام"**.

وفي محور السنة ومنهج التعامل معها كتب **"السنة بين أهل الفقه الحديث"**، **"كنوز من السنة"**.

ولقد كانت للغزالي وجهة جديدة في الدراسات القرآنية تجلت في كتابه **"نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم"**[1]، كما تناول علوم القرآن، بأسلوب جديد في كتابه **"نظرات في القرآن"**، وكتاب **"المحاور الخمسة للقرآن الكريم"**.

أما في محور المواجهة الثقافية والدفاع عن هوية المسلمين الحضارية ومواجهة التحديات فقد كتب: **"قذائف الحق"**، **"ظلام من الغرب"**، **"الغزو الثقافي يمتد في فراغنا"**، **"صيحة تحذير من دعاة التنصير"**، **"دفاع عن العقيدة والشرعية ضد مطاعن المستشرقين"**.

وفي محور النظم الإسلامية والصراع الايديولوجي الإسلامي والأوضاع الاقتصادية، كتب **"الإسلام في وجه الزحف الأحمر"**، **"الإسلام والاستبداد السياسي"**، **"حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلام الأمم المتحدة"**.

وفي رأي عبد الحليم عويس أن كتب الغزالي قد واكبت التحديات وتصدت للمشكلات وعبرت عن الإسلام أصدق تعبير [2]، كما وصفها محمد شلبي إذ يمكن اعتبارها سجلا لتاريخ الدعوة

---

[1]-محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي، الموقع الفكري والمعارك الفكرية، المرجع السابق، ص 6

[2]-للتوسع ينظر: سهيلة مازة، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، رسالة ماجستير، إشراف: اسعيد عليوان، كلية اصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2011-2012م، ص 206.

الفكري إلى حد بعيد لذلك نستطيع أن نرسم الملامح الرئيسية الإسلامية وتطورها من خلال هذه المؤلفات [1].

البعد الأخلاقي لمؤلفاته:

تميزت كتابات محمد الغزالي بإنتاج الأفكار الناهضة بالأمة من كبوتها، ومع ذلك نجد له عشرات الكتب في المجالات الإسلامية المختلفة، أما مؤلفاته التي تناولت الجانب الأخلاقي والروحي بشكل واضح وإن كانت لا تخلو باقي مؤلفاته منها:

–**عقيدة المسلم**: اعتنى الغزالي بالرباط الوثيق بين الأخلاق والتوحيد، وأنّ الأخلاق هي مؤشر على وجوده من عدمه، أو زيادته ونقصانه، وكانت هذه القضية هي جوهر كتابه "عقيدة المسلم" الذي تأسس على ثلاثة محاور.

أ– القرآن وهو كتاب عقيدة وحياة

ب–الأخلاق والإيمان

ت–الخلاف بين السلف والخلف، خلاف يُدرس في إطار ظروفه وملابساته التاريخية ومكانه قاعات البحث وأماكن الدرس، ووجوب ردّه إلى القرآن والسنة.

كما تميّز هذا الكتاب بمخاطبة العقل والقلب معاً، مثيراً للعاطفة موقظاً للانفعالات النفسية والقوى الذهنية، وهو عمل متميّز في ميدان الإصلاح النفسي والاجتماعي والسياسي حاول الغزالي من خلاله ترطيب جفاف التفكير العقلي برشحات من المشاعر الحية.

–**خلق المسلم**: يعد هذا الكتاب حلقة ثانية بعد كتاب "عقيدة مسلم" تعالج جزء مهماً من منهج تربية المسلم على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم. تحدث الغزالي في هذا الكتاب عن الأخلاق بطريقة مختلفة عما سبقه فيها، مستوحياً إياها من القرآن والسنة وقد عبّر عن منهجه في تأليف هذا الكتاب بقوله: "هذه نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم بها دينه وتصلح بها دنياه وآخرته، مهدت لها وعقبت بتفاسير موجزة تعالج ما انتاب المسلمين في هذه

[1]-محمد شلبي: **الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الاسلامي**، دار الصحوة، القاهرة، دط 1987م، ص 166

الأعصار من انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل[1] واكتفيت بما سقت من آيات وذكرت من أحاديث فلم استطرد إلى ايراد الشواهد الأخرى من أقوال الأئمة وحكم العلماء، وعظات العباد المتأدبين على كثرتها في تراثنا القديم لأني قصدت أن نرجع إلى الشريعة وحدها وأنّ اعرض جانب التربية على أنّه توجيه الهي نطالب المسلم بالتزامه ويعتبر مقصراً في حق الله حين يعرض عنه... وفرق المطالبة بأدب ما أنّه خلق عام وبين التكليف به على أنّه دين كسائر العبادات المفروضة في هذا الدين" [2].

ويرى محمد الغزالي أنّ جوانب من شعب الايمان قد أشبعت بحثا تحقق في العبادات والمعاملات وأخرى لم تلق الاهتمام الكافي وهي الجوانب المتعلقة بالأخلاق والنفس وورد في الكتاب أن الناس أضاف أصحاب العواطف الحارة، وأصحاب العقول القوية، والمحزن أن أصحاب العاطفة يميلون للجهل والخرافات، وأصحاب العقول يغلب عليهم الجفاء والقسوة والإسلام لا يقر هذا ولا ذاك بل يؤسس الإيمان على ركائز عقلية، وهو في ذات الوقت عبادة قائمة على سلامة القلب والمحبة والأدب، كما يعرض محمد الغزالي مثالين: الأول كيف أن صدق العاطفة لا يبرر تجاوز المنهج العلمي، وكيف أن اطلاقها يرث الضلالة والبعد عن التفسير والتعاليم القومية، وفي المثال الآخر كيف أن جفاف العقل والأخذ بظاهر التعاليم والنصوص لا تحقق الفائدة المرجوة.

كما تحدث محمد الغزالي في هذا الكتاب عن الإحسان وأنّه فريضة مكتوبة على كل شيء، وقوانين الإحسان وأخطاره، والإحسان بين التأمل الذاتي والصلاح الاجتماعي، فإنّ الأمة بين الإساءة والإحسان كما تناول العديد من الأخلاق الورع، العفة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف، حب التوكل...

-الجانب العاطفي من الإسلام: بحث محمد الغزالي في هذا الكتاب الخلق والسلوك والتصوف حيث أحيا فيه جانباً مهماً من مواريثنا العلمية تفتقر إليه الحياة المعاصرة، وهو الجانب العاطفي والنفسي والفكري، ساعياً بذلك محاولة إخراج التصوف من صومعته ليكون طاقة محركة بعد أن

[1]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، دار المعرفة، باب الوادي الجزائر، ص3

[2]-المصدر نفسه، ص 4

أغمط حقه حيث لم يلق العناية الدقيقة التي لقيتها الجوانب الأخرى، وميدان التربية الإسلامية في هذا العصر أحوج ما تكون إلى هذه الدراسات؛ كما يرى الغزالي أنّ ما كتب في التصوف ينقصه المنهج العلمي ويغلب عليه الطابع الشخصي؛ حيث يقول في معرض حديثه عن الهدف من هذا الكتاب "وقد حرصت على ضبط المفاهيم الإسلامية وتقريبها إلى الأجيال الجديدة. وكان همي الأول كيف أصّل بين العمل المطلوب في هذا العصر وبين المعاني الروحية الموفرة لدينا كي تنطلق هذه الأعمال بطاقة داخلية قوية ينتعش بها الحق ويسبق [1].

كان محمد الغزالي صاحب رسالة يعيش لفكرته التي كانت مجّسدة في مشروعه الفكري والعملي ممّا جعله يقف بين الدعاة علما وبين المصلحين مصلحا بين مفكري وكتاب النهضة والتجديد قلماً الذي سخّره لبيان مقاصد الإسلام وجلاء أهدافه وشرح مبادئه وهذه شهادات بعض العلماء تقّر بذلك.

-ركائز الإيمان بين العقل والقلب: هو استكمال لكتابه الجانب العاطفي من الإسلام. حيث وضعه خدمة للثقافة الإسلامية قاصداً أمرين هما: إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ومعالم النبوة متحرياً انارة الحق، ومتلقيا الحكمة حيثما وجدها وماحياً للشبهة وكذا مبدداً الغيوم التي تراكمت خلال قرون الضعف في تاريخها.

فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء: هذا الكتاب سياحة في جابب الذكر والدعاء، وهو جزء من الجانب العاطفي للإسلام يقف بين يدي الرسول ﷺ متجولاً في سيرته يشعر أنّه أمام فن في الدعاء وهو يناجي ربّه بقوة العاطفة حيث يصور الغزالي صورة يوم واحد من حياة نبيّ الإسلام.

من أهم عناوينه:

-جدد حياتك: هذا الكتاب محاولة إنارة الطريق لمن يريد أن يبدأ صفحة جديدة في حياته، وهو أيضاً مقارنة بين تعاليم الإسلام وبين ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك، وجاء ردّاً لكتاب (دع القلق وأبدأ الحياة) لمؤلفه **ديل كارنيجي** إلى أصوله الإسلامية حيث شرح فيه

[1]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الاسلام**، نهضة مصر، النشر والتوزيع ، ط3، 2005، ص 4.

الغزالي وظيفة الفطرة السليمة في التعرف على الحق وتعريفه[1].

-كيف نفهم الإسلام: في هذا الكتاب اجلاء لمعارف إسلامية صحيحة عرفها القليل ومحاولة لتغيير ودحض خرافات علمية وخلقية وعقدية، انتشرت في بقاع العالم.

"مع الله": هذا الكتاب للدعاة وليس للعامة درّس الغزالي جملة من أبوابه حين كلفته مشيخة الأزهر بأن يحاضر لطلبة الدعوة والإرشاد حيث يفصل فيه البعد الأخلاقي والروحي للإسلام.

-سر تأخر العرب والمسلمين: الكتاب محاولة لاستجلاء الأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وتراجعهم، فأزمة الدعاة الواعيين قليلة، وأهل الذكر الذين جمعوا بين القراءة والفقه قلة نادرة، وبعض المسلمين أساءوا بتملكهم العاطفة المنفصلة على التعقل.

[1]-محمد الغزالي، **جدد حياتك**. دار البعث ، قسنطينة، الجزائر، 1986، ص 4-5

المبحث الثالث: مزايا فكر محمد الغزالي وآراء العلماء فيه

المطلب الأول: مزايا فكره

1-الشجاعة الأدبية:

كانت هذه الميزة للغزالي وليدة التربية التي نشأ عليها، والتي تشبع فيها بالقيم الإسلامية، ويقين النضال، مما جعله وفيا لمنطلقاته الفكرية، مستوعبا لمختلف الآراء وتفاوت الرؤى، مستثمرا في ثراء التعدد ورخاء التنوع، مدركا لواقعه الاجتماعي والاقتصادي، موظفا لبصيرة العقل، جريئا فقد ألزم نفسه منذ يفوعته بالتحلي بفضيلة الشجاعة، والتحلي عن الخوف، حيث حكى عن نفسه قال: "حدث وأنا غلام في مرحلة التعليم الثانوي أن أجتاح قريتنا حديث عن الأشباح التي تظهر بالليل، وشعرت بوجل يملكني وأنا أستمع إلى أنباء هذه الكائنات المخيفة، ثم انكرت من نفسي هذا الفزع الذي لا ينبغي أن يخامر مؤمنا فإنّ المؤمن يخشى الله وحده...إذا فلأؤدب هذه النفس الهلوع وبم؟ إكراهها على مواجهة ما تخاف؟ وبعد العشاء اخترقت وحدي الليل المخيم على البلاد والحقول، ولفت على المقابر الموحشة بعيدا عن العمران، وأخذت أنقل خطواتي بين دروبها الضيقة، وعيناي تستشفان كل شيء حولي، وقلبي لا يفتأ يدق، وكانت رحلة شعرت من أعماقي كرها لها، ولكن ما منها في نظري بد... لقد قررت أن أدخل هذه المقابر من طريق وأخرج من طريق آخر [1] وقد كان لذلك أثره البعيد في تربيته النفسية والروحية، حيث شارك وقاد عدة مظاهرات احتجاجية ضد الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، ويذكر له أنه عندما كان في معتقل الطور ورأى العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعتقل يأكلون حق السجناء، فخطب الجمعة داخل المعتقل، وألهب المشاعر، وأيقظ الروح ضد الثورة على هذا الظلم، وبعد انقضاء الصلاة قاد الغزالي في السجن احتجاجا أجبرت المشرفين على الرضوخ لمطالب المعتقلين، فأصبحوا منذ ذلك اليوم يتسلمون ما تقرر لهم من الأطعمة الجافة والمعلبات ليقوموا بأنفسهم بطبخها وتوزيعها [2]، وعلى هذا النحو انطبعت شخصية الغزالي، إذ أنه كان ينبذ الجبن، فالجبان في رأيه لا يؤمن إلا بنفسه إذ يقول "...لم أر في حياتي جبانا

---

[1]-محمد الغزالي: **جدد حياتك**، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، 1986، ص232.

[2]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص17.

وصل إلى المقدمة وهو ليس لديه الشجاعة أن يتقدم خطوة، وهو في غالب الأحيان لا رأي له فهو يقبل على الشمس إذا اشرقت ويدير لها ظهره إذا غربت[1] فالمقدام في رأيه لا يخاف إلا الله، وغضبه ولا يخشى إلا سلطان الحق، إذا حارب في النور، وإذا أدرك ضلالا سارع إلى محاربته دون تردد ودون كلل ولا ملل، إذ نجده مثلا يعلن عن شجاعة في مقدمة كتابه "الإسلام في وجه الزحف الأحمر" يقول: رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، فأودعتها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق أمته، وأعرف أني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن تبقى ويفنى الإسلام [2].

2-استقلاله الفكري:

عاش محمد الغزالي حرا ومنعتق الفكر والضمير، حر القلم واللسان لم يخن ضميره، و لم يخضع لعدوه، و لم يعبد إلا ربه، رفض الخضوع لمغريات العوام وسلة الحكام، فبرزت سمة الشخصية القوية في شخصه من خلال كتبه، ومقالاته وخطبه ومؤلفاته، حيث كان جريئا مع حسن الأدب، صادقا في القول، ترجم إيمانه في سلوكه وحسن معاملاته لغيره، حسن الجواب، يحترم اختلاف الآراء، يجيب الأمي والمتعلم والمتعصب والمعتدل، بقوة أدبية، كما عرف بصراحته فلا يخاف في الله لومة لائم وهو يدافع عن الإسلام ويبين تعاليمه.

ولقد شهد له الكثير من المفكرين بهذه الشجاعة، فيوسف القرضاوي يقول: "فلسان الغزالي لم يخلق ليهتف باسم الله وحده، ذاكرا له وتاليا لكتابه وداعيا إلى دينه، ويد الشيخ لم تخلق لتصفق لزيد أو عمر من الناس بل لتمسك بالقلم سلاحا تشهره في وجوه الطواغيت، وينير بكلماته السبيل أمام طلاب الهداية في تيه الضلالات وملتمس النور في دنيا الظلمات [3].

وقد يكون من مواصفات الغزالي سرعة الغضب، إلا أنه سريع الفيء، رجّاع إلى الحق إذا تبين له، كما عُرف بنقذ الذات والرجوع عن الغضب، فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقده خطأ،

---

[1]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، دار السلام للنشر والتوزيع، الجزائر ، ص 188

[2]-محمد الغزالي: **الإسلام في وجه الزحف الأحمر**، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص2

[3]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص66-67

وشجاع عندما يعترف بأنه لم يحالفه الصواب، ولعل هذه شجاعة لا تتوفر إلا في القليل من الناس.

ومن أمثلة إثبات هذه الصفة فيه، مراجعة الغزالي موقفه بعدما اختلف مع حسن الهضيبي [1]، وتبين له أنه هناك أحيانا حدة في طبعه كثيرا ما تسبب في إبعاده عن الموضوعية، فأصلح ما وقع بينه وبين الهضيبي قبل رحيل هذا الأخير [2].

ومن مواقفه أيضا أنه ناقش الاشتراكية، حينما سادت موجتها في العالم العربي تصدى لها الغزالي، فثمنّ فيها ميزة العدالة الاجتماعية، وقد اضطره الأمر إلى استعمال بعض المصطلحات مثل الاشتراكية الإسلامية والديموقراطية وغيرها، هادفا من وراء ذلك رد المعجبين بالشيوعية والمد اليساري عامة، وقد ضاهى الغزالي في خطته هذه كثيرا من المفكرين الإسلاميين أمثال مصطفى السباعي[3]، سيد قطب، مالك بن نبي [4] يؤمن بحرية الفكر عند الوفاق، وبالموعظة الحسنة عند الاختلاف.

وبعد تراجع المد اليساري، راجع الغزالي منهجه في محاربة هذا التوجه، إذ نقرأ له في الكثير من كتبه وحواراته عن هذه المراجعة معتذرا بذلك عن هذا المنهج رغم جدواه الهائلة في تلك المرحلة التاريخية قوله: ..."والكتب الأولى التي ألفتها في شبابي كانت دفاعا عنيدا عن الإسلام وتقديمها للبدائل التي تغني عن الشيوعية، وهنا نقد موجه لهذه الكتب يتلخص في هذه النقاط: أن حقائقها العلمية مبعثرة ينقصها التماسك الفني، وأن العاطفة الحادة تسودها وأنني قبلت مصطلحات

---

[1]-حسن الهضيبي: هو المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين من مواليد 1891م بمصر، تولى القضاء، ثم مستشارا قضائيا، خلف حسن البنا إدارة شؤون حركة الإخوان المسلمين، سجن بعد الثورة المصرية، لاتهامه بالتآمر على جمال عبد الناصر، توفي سنة 1973م، ينظر: الزركلي، **الأعلام**، مرجع سابق، ج2، ص225

[2]-محمد الغزالي: **من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث**، دار الهناء والطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ص24

[3]-مصطفى السباعي: كان على رأس كتيبة الإخوان المسلمين في الدفاع عن بيت المقدس سنة 1948، كان أستاذ بكلية الحقوق ومراقبا عاما للإخوان، ثم عميد كلية الشريعة عام 1955، من مؤلفاته: السنة مكانتها في التشريع الإسلامي، اشتراكية الإسلام، شرح قانونا لأحوال الشخصية وغيرها، توفي بدمشق 1967م، ينظر: الوركلي، **الأعلام**، مرجع سابق، ج7، ص231-232

[4]-مالك بن نبي (1905-1973م): من أعلام الفكر العربي، ولد بقسنطينة، درس في المدرسة القرآنية والابتدائية بالمدرسة الفرنسية، سافر إلى فرنسا وبعد عودته انغمس في الدراسة والحياة الفكرية، ثم انتقل إلى القاهرة بعد 1954، فحضي باحترام كبير، حيث كتب فكرة الإفريقية الأسيوية، وبعد الاستقلال عاد إلى الجزائر وعيّن مديرا عاما للتعليم العالي، حتى استقال سنة 1967، حيث تفرغ للكتابة، ينظر: **ويكيبيديا**، الموسوعة الحرة https://ar.am.wikipedia.org.netأو ينظر: موقع الأستاذ مالك بن نبي: مالك ابن نبي رجل مفكر وحضارة

الديموقراطية والاشتراكية وذلك لا يجوز، وهذه التهم فيها قدر من الصواب، وفيها أيضا بخس لجهد كبير، وعذري أني كنت أرتاد ميدانا لم أسبق إليه، والرائد يستكشف ويدع لغيره التنظيم وهذا ما حدث... أما قبول المصطلحات الحديثة، فمازلت مترددا في حكمها، ولا ريب أني سأهجر هذه المصطلحات الدخيلة بعدما يتحرك الفقه الإسلامي ويضع ما يغني عنها [1] ".

كما يشهد محمد عمارة للغزالي هذه الخاصية حيث كتب يقول عن مراجعته له، "وهو مما يضرب نموذجا آخر من نماذج الموضوعية في محاسبة النفس، ونقد الذات، ومراجعة الفكر والعودة لما يراه حقا... وتلك لعمري شواهد صادقة على عظمة هذا الشيخ الأواب [2].

ونسجل هنا موقفا بارزا آخر للغزالي مع محمد عمارة، عندما سارع إلى مراجعة ما بدر منه في شأن هذا الأخير، وهو ينتقد التيار الإسلامي، وقد ذكره من هؤلاء [3].

كما نجد الغزالي يقف وقفة شجاعة مع إنصاف المرأة المسلمة ومساواتها مع الرجل في الحق العام[4]، وليس بالمبالغة القول أنّ الغزالي قد قاد تيارا شجاعا لإنصاف المرأة من منطلق الرؤيا الإسلامية المعتدلة والتي تؤصل لها حقوقها وواجباتها الاجتماعية والإنسانية، فبيّن أنّ الإسلام قلب الموازين العالمية السابقة والتي كانت تهين المرأة وتحتقر أنوثتها ووظيفتها الطبيعية، فقد رفض تيار التفريط الذي أوقعها فيه تخلف المسلمين بحرمانه حقوقها، ووظيفتها واسهاماتها في المجتمع، وقاوم مقابل ذلك تيار الإفراط الذي أوقعتها فيه الحضارة الأوروبية، والتي تعبت بإنسانية المرأة وتجعلها مادة وسلعة تباع وتشترى باسم حرية الجسد وحرية المتعة البهيمية، ومازال موقفه الناري من حقوق المرأة يتردد في كل مكان، حيث يؤيده في مواقفه هذه محمد أبو زهرة إذ وجها البحث معا في شؤون المرأة وجهته الصحيحة.

---

[1]-محمد الغزالي: **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، دار الكتب، الجزائر ط1، 1987، ص137-138

[2]-محمد عمارة: الشيخ الغزالي: **الموقع الفكري والمعارك الفكرية**، مرجع سابق، ص103

[3]-ينظر: المرجع نفسه، ص 108-109

[4]-كحق تولى المرأة جميع الوظائف ما عدا الخلافة، وأيضا حق مساواة المرأة في الدية مع الرجل. ينظر: محمد الغزالي: **قضايا المرأة بين تقاليد الراكدة والوافدة**، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1992، ص 39-42.

ومن مواقفه أيضا التي تعبر عن قوته وشجاعته، موقفه في أحد الملتقيات الإسلامية التي كانت تعقد في الجزائر في أواخر الثمانينات [1] عندما تحدث سعيد رمضان البوطي عن ضرورة انشغال الدعاة بالشريعة وترك السياسة لأربابها، وقد آثار كلامه هذا قلق كثير من الحاضرين، وكان الرئيس الجزائري السابق الشاذلي بن جديد حاضرا فطلب الغزالي الكلمة وصعد إلى المنصة فبعد أن أنثى عن صديقه البوطي، خطأه في توجيهه، وبيّن له بكل أدب وحوار المتعلم أن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم، وأن العالم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل أو يتغاضى عن المنكر من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل الله، فاستراح الجميع لتعليقه وتصحيحه الرأي بالشجاعة والدليل [2]. ولعلّ رمضان البوطي لم يعبّر إلا على فقه مذهب الصوفية الذي دأب على عدم التطلع إلى السلطة ولا التورط في تزكية ممارستها أو بُغضها.

وربما كان رد الغزالي على خالد محمد خالد قبل تراجعه ردا جريئا وشجاعا عندما كتب كتاب "من هنا نبدأ" يروج فيه لفكرة فصل الدين عن السياسة، فتصدى له الغزالي بكتابه "من هنا نعلم" وعلق عليه بقوله: "إن نظام الحكم الإسلامي ليس من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء ويهمل ما يشاء وإنما هو نظام منبثق رأسا على عقيدة التوحيد وعبر عنها في واقع الحياة الاجتماعية"[3].

وبهذا استطاع الغزالي واستعابه وبيانه وجرأته وشجاعته أن يعبّر عن قيم الإسلام العقائدية ومقاصده الكلية ومشروعه الحضاري، إذ أنّ الشجاعة والجرأة والصدع بالحق لا يكون له معنى بعد رحيل الأحياء لعالم الموت، فكم من نافذ تناول الزعماء وذوي السلطات بالنقد بعد موتهم، لكن الغزالي كان يصدع بما تأمره عقيدته السليمة، كانت غايته من ذلك تبليغ كلمة الله وتصفية الإسلام من لوث بعض القراءات غير الموفقة، والممارسات التي كرست ثقافة موروثة بما لا يواكب المستجدات، مبيّنا أنّ الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان.

---

[1]-محمد الغزالي، **البناء الروحي للمجتمع الإسلامي**، الملتقى الفكري الإسلامي الثالث والعشرين المنعقد بقسنطينة، 1989، ص338-339.

[2]-ينظر يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص150

[3]-محمد الغزالي: **من هنا نعلم**، دار الكتب الحديثة، ط6، 1965، ص10

كما ظهرت عزة النفس[1] في شخصية الغزالي من خلال أقواله ومواقفه إزاء كثير من الأمور، ولعل تطلعه للمزيد من الكرامة إنما استمده من إيمانه العميق، بأن رب الكون قد كرم بني آدم لقوله تعالى: ﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [2] فلماذا يذل الإنسان نفسه ويستكين للهوان؟ فكان الغزالي يردد دائما قول الشافعي:

همـــتي همـــة الملـــوك ونفســـي نفـــس حريـــري المذلـــة كفـــرا[3]

ولعل أهم ميزة المؤمن هي التواضع في المواقف والمرونة في الرأي والتسامي في الثقافة، أمّا اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربه، هو من كبرياء إيمانه، وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان، فقد كان الغزالي لا يغضب إلا لبغضه للظلم والهوان لنفسه، فلا يُحب أن يظلم أو يستخف بكرامته وكرامة غيره، ولا يطيق العوج والانحراف [4]، وفي هذا يقول الغزالي "إن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه هو من كبرياء إيمانه وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان فيها من التمرد بقدر ما فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التضامن، فيها الترفع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأباطيل الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين، والتبسط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، وطلبوا العظمة من أصدق سبلها" [5].

فالعزة والإيمان من أبرز الحلال الذي نادى به الإسلام، وغرسها في أفراد المجتمع، وتعهد نماءها، لما شرع من عقائد وسنن وتعاليم، والعزة كما يرى الغزالي حق يقابله واجب، فلا يحق لأمرئ أن يطالب بماله من حق حتى يؤدي ما عليه من واجب قَالَ تَعَالَى: ﴿ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ

---

[1]-سهيلة مازة، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص36

[2]-سورة الإسراء آية 70

[3]-الشافعي، **الديوان**، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1426هـ-2005م، ص53، من بحر الخفيف

[4]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، رحلة نصف قرن، مرجع سابق، ص44

[5]-محمد الغزالي: **خلق المسلم**، دار المعرفة، الجزائر، ص 196

وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ [1]

فالإسلام قد أوصى المسلم بالعزة، وهداه إلى أسبابها ويسر له وسائلها، وأفهمه أن الكرامة في التقوى، وأن السمو في العبادة وأن العزة في طاعة الله [2]، لذا كان الغزالي يقيم المعارك وهو يحمل نفسا خاشعة تأنس للحق وتهمش له وتستعلي عن الباطل وتعرض عنه وترى في ذلك كرامتها وعزتها[3].

كما تلمس فيه نفسية عامرة بالثقة بالله وبتأييده ونصرته عز وجل فكان ذا أنف حمي، وغيرة أبيه على دينه، ولقد مكنته هذه من السير والتقدم حثيثا في سبيل الإصلاح رغم العوائق التي اعترضت طريقه، والحقيقة أن استعلاء الإسلام في نفس المسلم لا تنبع إلا من حسن عبادته لربه وحده، ولهذا كانت غيرة المسلم تتضاءل دونها القوى، فمن أعتز بالله أصبح سيّدا في نفسه.

3-الاستشعار الروحي والإحساس بالآخر:

عرف الغزالي بارتباطه بالملأ الأعلى فلا ينسى في حديثه الدار الآخرة، بل ينفعل إلى حدود بعيدة عند الحديث عن هذا الأفق الرحب من آفاق الإيمان وربما أحيانا أحرج جلساؤه بهذا الانفعال دون قصد منه حيث يقول عبد الحليم عويس رحمه الله عن هذه الصفة في شخصية الغزالي: "إن هذا الداعية لم يتعصب قط لنفسه ولم يشعر بأنه فوق الخطأ البشري بل عاش مع الناس في مشكلاتهم يتحدث عن أيام الضراء كما يتحدث عن أيام السرّاء ... يداعب ويمزح حتى يظن محدثه أنه خال من الهموم فإذا جاء ذكر الله والآخرة بكى حتى أحرج جلساؤه ومحدثيه وقد كنت أصلي به إماما في بعض الظروف وبإصرار منه—فيبكي وأنا أقرأ القرآن بعد الفاتحة فاضطر إلى اختصار القراءة[4] ولأنه كان يدرك فيه صلاح النفس وتزكيتها وأثره البالغ في نجاح الداعية أو نجاح أي خطاب للإصلاح فقد ذكر في كتابه جدد حياتك، أنّ صلاح المؤمن أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان وخلقه الفاضل

---

[1]-سورة يونس، آية 26

[2]-ينظر محمد الغزالي: **خلق المسلم**، ص 197-198.

[3]-قطب عبد الحميد قطب: **خطب الشيخ محمد الغزالي**: دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع مصر، القاهرة، المجلد الأول، ص 9.

[4]-عماد الدين خليل: **الشيخ الغزالي، صور من حياة مجاهد عظيم**، دار الصحوة، ط1، ص11.

هو السر الذي يجذب إليه الأفئدة. إن الخطبة البليغة المعجبة، والكتاب المبين الذكي، والجماهير العاشقة لا تساوي كلها قشرة نواة إذا كانت علاقة المرء بربه واهية) [1] ومع شجاعته وحميته كان الغزالي يحمل قلبا وديعا منيبا إلى ربه ذا خشية ونضرع، دائم التلاوة للقرآن، عظيم الحب والتوقير لرسول الله، فِقه السيرة النبوية وتأملها وأحصى أخلاق المسلم من خلال كتاب الله ونبيه ورسوله، فظهرت هذه الأخلاق في حياته حبا وحنانا وخفضا للجناح ورحمته بالفقراء والمساكين، جوادا كريما، بعيدا عن أثرة المادة وطغيانها... حيث كان بيته مقصدا لطلاب العلم.

وعن الأوراد والأذكار يرى الغزالي أن الذكر قد يكون جهاز الصيانة يصلح ما تعطل ويجدد ما بلى حتى لا تتعطل الوظيفة الأصلية ونفقد ما لدينا قيمته [2] وعن الذكر يقول كلاما أشبه لكلام أصحاب المقامات والأحوال: "الذكر الحقيقي ليس شقشقة لسان وليس عمل الفم ومضغ الكلام إنما الذكر الحقيقي لله قلب ينبض بمشاعر الرغبة والرهبة ويمشي على الأرض وهو يرنوا إلى السماء يخشى ربه ويرجو منه الوقار وينتظر عنده الخير ويأمل في الدار الآخرة يوم اللقاء [3].

4-الشمول والتنوع الفكري[4]:

يتسّم العطاء الفكري والعلمي لمحمد الغزالي بالشمول والتنوع في الموضوعات التي تناولها حيث نجد في مؤلفاته ما شمل الجانب العقدي والجانب الاجتماعي، الجانب الوجداني والاقتصادي والسياسي والتربوي، بل وقد نلمس في الكتاب الواحد التوجهات التعليمية والأخلاقية والعقدية والسياسية والاقتصادية وهو يعالجها بفكره مبديا رأيه فيها، ما يدل على الوعي بواقعه ومعايشته ولعل لظروف نشأته تأثيرٌ على شخصيته الفكرية؛ حيث أن هذه الظروف جعلته يحاول رفع معالجتها إلى أفق الإضاءة الروحية وجذبها إلى إطار التدين، فكانت كتبه فكرا يسعى لتربية الأمة واستعادة الثقة في دينها، وخطابا حضاريا ورسالة وعيٍ، حيث كانت تواجه بتنوعها التحديات المعاصرة الداخلية والخارجية على حد سواء بتتبعه الدقيق وانشغاله بما يجري في العالم الإسلامي من مستجدات

---

[1]-محمد الغزالي: **جدد حياتك**، ص95

[2]-محمد الغزالي: **سر تأخر المسلمين**، ص105

[3]-خطب الشيخ محمد الغزالي، ج1، ص132

[4]-ينظر سهيلة مازة، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص40

وأحداث ورهانات، وقد عبّر عن ذلك عبد الحليم عويس يقول: "والخاصية الكبرى لكتب الغزالي انّها واكبت التحديات وتصدت للمشاكل وعبّرت عن الإسلام تبير أعمق تعبير"[1] كما كانت كفاحا ضد موجات القهر والالحاد والاحتلال التي زحفت على المسلمين في عصره، فكان بذلك من الأوائل الذين أدركوا الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها أعداء الإسلام من خلال واقع اجتماعي ليس له من الإسلام إلا الاسم وبهذه الشمولية والتنوع في الفكر، تقف مدرسة الغزالي وسطا بين كل التيارات الإسلامية تدعو إلى التعامل والتنسيق بين كل العاملين للإسلام كما تضع الرؤية الحضارية الشمولية فوق الرؤى الجزئية، فقد كان فكره متصلا ومتواصلا مع الماضي والحاضر والمستقبل ملتمسا هموم الأمة ومتطلبات حياتها المعاصرة بأفق علمي وفكري وخلقي وجداني، وبمنهجية سعت إلى حسن التعامل مع القرآن والسنة ومع التراث الإسلامي والإنساني بغية بناء نظام معرفي متكامل ينشد بناء المجتمع الإسلامي والانساني.

5-لغته:

وظّف محمد الغزالي معطيات اللغة في اظهار حلال القرآن وجمال السنة وكمال الشريعة وسمو مقاصدها وشمول معانيها، فقد كانت له فصاحة وجمال اختيار اللفظ وبلاغة العبارة وسعة وامتداد التركيب وبراعة في الكتابة ودقة اختيارها في سياقاتها، أما عن اللفظ وجماليات اختيارها فقد تميزت ألفاظ كتبه بحسن الانتقاء، وعمق الدلالة واتساع المفهوم، فبديع قلمه على أوضح الكلمات فهما وأسرعها إلى العقل إدراكا ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتابه فقه السيرة فهو في أثناء حديثه عن غزوة الأحزاب وكأن القارئ يسمع صوت الكر والفر والهرج والمرج وكأن الكلمات تريه كيف تتطاير الرؤوس هنا وكيف تتقطع الأشلاء هناك، وعندما يصف كيف تألبت وتجمعت طوائف الكون من يهود ومشركين على الإسلام ليُنهوا فكرته ويزيحوا رايته راسما بكلماته اجتماعهم موضحا بألفاظه دواخلهم فيقول: "أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته كل طائفة مفردة وأنها ربما تبلغ أملها لو رمت الإسلام كتلة واحدة، وكان زعماء اليهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام، وحشدهم في جيش كثيف يترل

[1]-عبد الحليم عويس، **الشيخ محمد الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم**، القاهرة، 1993م، ص 10-11.

محمدا ﷺ وصحبه في معركة حاسمة، وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستفزونهم لحرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معهم عليه حتى نستأصله وكانت قريش قد أخلفت عدها مع النبي عاما، وهي لابد تخرج لقتال المسلمين؛ انقاذا لسمعتها وبراً لكلمتها، وهاهم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبغون فلا مكان لتوجس أو اختلاف [1] نلاحظ هنا دقة اختيار اللفظ وبلوغها قمّة الفصاحة فاختار رجالات يهود ولم يقل رجال يهود، لأن الرجالات هم عليّة القوم وسادتهم وموضع نظر الناس فيهم [2] وقوله (رمت كتلة واحدة) يدل على دقة التصويب، وسرعة الوصول إلى الهدف والتخطيط لتدميره.

وفي عتابه عمّن يتمسك بظاهر الدين دون جوهره، ويتظاهر بحبه وهو في الحقيقة خوار ناكص عن صدق الوجهة يقول: "فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ ويتشبث بثيابه وهو حي، أو يتعلق برفاقه وهو ميت فأعلم أنّه طفل غرير، ليس أهلا لأن يخاطب بتعاليم الرسالة، بل له أن نستقيم على نهجها، في مسجد النبي ﷺ، بالمدينة رأيت حشدا من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة، ويود أن يقضي العمر بجانبه، ولو كان النبي بينهمَّ على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم. إن رثاثة هيئتهم، وقلة فقههم وفراغ أيديهم وضياع أوقاتهم، وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبي الإسلام أوهن من خيط العنكبوت، قلت لهم: ما تفيدون من جوار النبي؟ وما يفيد هو منكم؟ إنّ الذين يفقهون رسالته ويحبونها من وراء الرمال والبحار هم أعرف بحقيقة محمد ﷺ منكم؛ إنّ القرابة الروحية والعقلية هي الرباط الوحيد بين محمد عليه الصلاة والسلام ومن ينتمون إليه، فأنى للأرواح المريضة والعقول الكليلة أن تتصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا؟ أهذا الجوار أية حب ووسيلة مغفرة؟ [3] فكان اختياره لكلماته دقيقاً، وكم أظهرت ألفاظه المختارة المعنى الجليل فكم رسمت الكلمة الموقف ومثلته خير تمثيل.

أما عن جمال التعبير وبلاغته من أمثلة ذلك ما جاء في كتابه "خلق مسلم" الذي نضحت بالبلاغة عباراته واتسعت من خلالها دلالاته، يقول الغزالي: "قيل لعالم مسلم: هل قرأت أدب النفس

---

[1]-محمد الغزالي، **فقه السيرة**، دار الشهاب، باتنة، ص 66

[2]-وصفي عاشور أبو زيد، **منوية الإمام محمد الغزالي**، دار المقاصد ط1، 1439-2018، ص 316-317.

[3]-محمد الغزالي، **فقه السيرة**، ص22.

لأرسطو فقال: بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله –عليه الصلاة والسلام– لقد قرأنا أدب النفس لأرسطو ولأمثاله من الفلاسفة وقرأنا أدب النفس لمحمد بن عبد الله –عليه الصلاة والسلام– فوجدنا ما يتخيله الأولون واصطنعوا له بعد العناء صورا بعضها كامل وبعضها منقوص؛ وجدناه قد تحول إلى حقائق حية تجسّد فيها الكمال وأضحى سيرة رجل وأدب أمة وشعائر دين ضخم لذلكم هو أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ [1].

أما أهم سمات عبارات الغزالي وخاصة في جانب الإخلاص منها أنها مؤكدة، اسمية كانت أم فعلية؟ لأنها أقارير وحقائق، فإذا كانت فعلية بـــ (قد) أو (لقد) وبالمفعول المطلق وإذا كانت اسمية فهو يصدرها بأنّ وحدها أو باللام وحدها أو بهما معاً ويتبعها بآيات أو أحاديث [2] تؤكد ما يقول: "الايمان قوة عاصمة عن الدناياـــ، دافعة إلى المكرمات؛ ومن ثم فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر يجعل ذلك بمقتضى الايمان المستقر في قلوبهم، وما أكثر ما يقول في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم يذكر بعد ما يكلفهم به ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾، مثلا وقد وضّح صاحب الرسالة أن الإيمان القوي يلد الخلق القوي وأن انهيار الأخلاق مردّه ضعف الإيمان أو فقدانه بحسب تفاقم الشر، أو تفاهته، فالرجل الصفيق الوجه، المعوج السلوك الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد يقول رسول الإسلام في وصف حاله: "الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدها الآخر رفع الآخر، والرجل الذي يؤذي جيرانه ويريهم السوء يحكم الدّين عليه حكما قاسيا، فيقول فيه الرسول ﷺ: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: من يا رسول الله، قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه" وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتفعيلها حتى تؤتي ثمارها معتمدا على صدق الإيمان وكماله [3].

وعن الدقة في كتاباته والمعنى التي يرغب في قوله، ما يدل على إلمامه الواسع وقراءاته ورسوخ قدمه في اللغة على سبيل المثال عندما كان يمهد لكتابه: " الجانب العاطفي في الإسلام" وقد آسفت

---

[1]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص 4.

[2]-المصدر نفسه، ص 9

[3]-المصدر نفسه، ص 10-11.

كما أسف غيري لصنفين من الناس؛ صنف تلمس في قلبه عاطفة حارة ورغبة في الله عميقة، وحباً لرسوله بادياً ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة يعلم منها قليلا، ويجهل منها كثيرا ويغريه التعصب للقليل الذي يعلمه أنه يئس من نفسه صدق الوجهة وقوة محبته لله ولرسوله بما افتقدناه في غيره، فلم يشعر بها وصنف تلمس في عقله ذكاء وفي علمه سعة وفي قوله بلاغة، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية، ويؤدي العبادات المطلوبة منه أداء لا بأس به ولكنه بارد الأنفاس، بادي الجفوة غليظ القلب، يكاد يتمنى العثار لغيره، كي يندد بأغلاطه ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق... وكان يغبطني من الآخرين استكبارهم لما هُدوُا إليه من صواب في بعض الأحكام العقدية والفقهية واستهانتهم بآفات القلوب، وفراغهم من حرارة الاقبال على الله، والحنو على عباده... والمسلم الكامل رجل نيّر الذهن والقلب معاً: حاد البصر والبصيرة معاً تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله، ومعاملته للناس، فلا تدري أيهما أسبق؟ صدق أدبه، أم حسن معرفته؟ ولا تدري أيهما أروع خصوبة نفسه الجياشة أو خصبة عقله اللماح [1]، وبالتالي من خلال قراءة هذه العبارات نجده قد عبّر عن الأول بجمل من الكتابات فاقت حد التصور، وتتابعت ترسم صورة صاحبها كأنها تراه العين وعبّر عن الثاني بمثلها مع استعمال ألوان الطباق وأنواع التضاد وأصناف الجناس كقوله يعلم منها قليلا ويجعل منها كثيرا... وقوله لكنه بارد الأنفاس، بادي الجفوة وغيرها.

والقارئ لكتب الغزالي يجده قد جمع بين البساطة والعمق وقلما يجتمعان لكاتب أو مفكر، إذ نجد بعض المفكرين يعتمدون العمق في إيصال الفكرة بلغة تستعصي على الأفهام وبعضهم ينهج نهج التبسيط فيأتي بفكرة عاجزة عن الوصول إلى الأعماق، لكن الغزالي جمع بين ملكة البيان والتبليغ أجاد به أداء ما أعده له ذهنه من أفكار وتحليل لأعقد المشكلات كما أنه ببساطة في الأسلوب وعمق في الفكرة خاطب واجتهد في إقناع العقل وتحريك القلب دون تقعر وتكلف بعيداً عن الرموز وتكثيف المصطلحات.

وعلى سبيل المثال فيما يتعلق بالبساطة والعمق ما لمسه الكثيرون من خلال الحديث الأسبوعي[2] الذي كان يقدمه الغزالي في الجزائر، حيث التف حوله جمهور من الجزائريين وعنه يقول

---

[1]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي في الإسلام**، ص (8-9)

[2]-حديث أسبوعي كان يلقيه الغزالي كل يوم اثنين في التلفزة الجزائرية طيلة مكوثه في الجزائر –قسنطينة–

عمار طالبي [1]: "الذين كانوا يجتمعون أمام الإذاعة والتلفزة للاستماع لحديث الغزالي فلم يكن حديثا جافا تنفر منه النفوس، بل لين الأسلوب شيق العرض، بسيط العبارة عميق الفكرة، إذ لم يكن حديثه خوضا في النظريات والترف الفكري، وإنما كان علاجا لقضايا الناس التي تتعرض حياتهم فيناقشها على ضوء تعاليم الإسلام ومبادئه الواقعية الإنسانية، إذ يجد الناس في تلك الأحاديث الأدوية الشافية والأجوبة الكافية، والتوجه الهادف حتى حسب الناس أن بن باديس قد بعث وأن الإبراهيمي قد عاد"[2]. وهنا يشهد له عمار طالبي بوضوح فكرته وسهولة عباراته وصدق لهجته، وحسن استشهاده بالقرآن، فتفهمه الجماهير بفطرتها لأنه يخاطبها في أعماقها، فتستجيب له عقولهم وقلوبهم، لفكره السديد وحسن أسلوبه، وكما كان يرد الناس من الجزئيات إلى الكليات، ومن الفروع إلى الأصول والأولويات، ومن المختلف إلى المتفق، ومن الغلو إلى الاعتدال، ومن التركيز على أعمال الجوارح إلى أعمال العقول والقلوب [3].

التأصيل والتجديد:

يمثل التجديد أحد المحاور الفكرية الحضارية الهامة التي استقطبت جهود الباحثين والمفكرين فهل كان التجديد في فكر محمد الغزالي استجابة لضغوطات خارجية؟ أم استجابة لحاجة موضوعية؟

يحمل القرآن الكريم والسنة النبوية العديد من النصوص تشير إلى مفهوم التجديد، بشكل أو بآخر، أما حديث النبي ﷺ فهو يشير إلى التجديد بشكل مباشر في قوله: "إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" [4] ولم ترد كلمة التجديد بلفظها في القرآن إلا أنه لا

---

[1]-عمار طالبي الرئيس الأول لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية فترة ما بين 1984-1990م، من مواليد 1934 بقرية جلال (خنشلة)، تعلم في الكتاب، درس المرحلة الثانوية بتونس (1947-1954م)، تحصل بالزيتونة على شهادة التطويع، المكافئة لشهادة البكالوريا، انخرط في جبهة التحرير الوطني، ثم التحق بجامعة القاهرة، قسم: الفلسفة، تحصل على شهادة الليسانس سنة 1962م، تكفل بتمرين معلمي اللغة العربية عند عودته الى الجزائر، ثم معيدا بالجامعة، تحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه

[2]-عمار طالبي: **مجلة إسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ص136

[3]-سيأتي التفصيل فيه في الفصل الرابع، مبحث عوائق التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي.

[4]-أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، (1425هـ-2005م)، ح4291، ص799.

يخلو من مفهومه في التعبير عنه بمعانٍ كثيرة منها الإصلاح والاحياء والتغيير [1] وبالتالي فالتجديد لا يعني تغيير جوهر الدين أو أصوله، وإنما اعادته إلى النقاء الذي كان عليه، حيث الأصالة والالتزام بتعاليمه الصحيحة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعني القدرة على استيعاب مستجدات العصر وما يحمله من قضايا جديدة واشكاليات تحتاج إلى إجابات، وموقف الشريعة منها بحيث يتم ذلك من خلال الاجتهاد سواء كان فرديا أو جماعيا، فهو في الحقيقة تجديد وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين في دنياهم والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه في عصر من العصور [2].

ولقد أدرك الغزالي أن الحاجة للتجديد أصبحت ضرورة تاريخية لسبب واحد وأن اشكالات عصرنا ليست هي إشكاليات العصر الإسلامي الوسيط، والوضع التاريخي واشكاليات العصر يفرضان الحاجة إلى التجديد في الفكر، وبالتالي فإشكاليات العصر تتطلب إجابات معرفية علمية وعقلانية حتى نستطيع من خلالها أن ننتج مشروعاً معرفياً للنهوض بأمتنا في عصرنا. وهذا هو التجديد الارتقائي الذي يدعو إلى النهوض أما الضابط للتجديد حسب ما يرى الغزالي هو القرآن والسنة وضمن هذا الوحي توجد كل القضايا التي تساعدنا على التجديد منها الدعوة إلى إعمال العقل، وهذه قضية مركزية في ديننا.

كما أنّ هناك مفاهيم كبرى لو اشتغلت وشغلت لأنتجنا صرحاً معرفياً جديداً يجيب على إشكالية عصرنا ويؤطر التفكير الإسلامي. فمثلا مفهوم "الاحسان" لم نؤسس له نظرية وانما اقتصر عموما على الصدقات، مفهوم التغيير وأيضا التسخير وغيرها من المفاهيم وبالتالي أهم اصلاح معرفي يتطلب ترشيد طرائق التفكير عند الصفوة والنخبة، كما دعا الغزالي إلى مراجعة التراث، يؤطرها النص القرآني فهي مسألة مهمة لأنها تساعدنا على إمكانية الابداع في مجالات مختلفة، وذلك أن التراث انتاج انساني، وجب التجديد فيه ليتجاوب مع إشكاليات العصر، وأن التراث الإسلامي كان إجابات لإشكالات عصر مضى ولا يمكن أن تكون حلولا لقضايا الراهن.

---

[1]-يوسف عبد الفتاح: **التجديد السياسي والواقع العربي المعاصر**، رؤية إسلامية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، القاهرة ص4.

[2]-المرجع نفسه، ص 5-6.

وباستقراء أعمال الغزالي يمكن القول بأن سمة الاجتهاد والتجديد حاضرة بوضوح في كل إنتاجه، سواء في تركيبه للأفكار أو في أسلوبه في الطرح والحوار، أو في الوعاء اللغوي، وعلى مدى نصف قرن من جهاده الفكري هبت في وجهه مختلف الجبهات المتناقلة في تفكيرها والتي أخذت من حيث اعتراضها على أفكاره متطلباته التجديدية.

وما يقصده الغزالي بالتأصيل، هو رد الأفكار والنظريات إلى المرجعية الإسلامية، ومحاولة التدليل عليها، والاحتجاج، والاستشهاد لها من القرآن والسنة أو ما صح من تراث الأمة الفكري، وهو تأصيل فكري.

كما اهتم الغزالي بالإبداع والعمل من أجل تحقيق شمولية الإسلام، ولذا حرص على تأصيل المعرفة الإسلامية بردها إلى ينابيعها أولا، لأن التجديد يكون في الوسائل والكيفيات لا في المرجعية والمقاصد[1].

فالراصد لكتب الغزالي يدرك أنه جمع فيها بين التأصيل وعناصر التجديد، فقد اهتدى بفكره إلى موضوعات ينبغي التأصيل لها والتجديد فيها برؤية شاملة، وبأداة واقعية تحققت بها نظرته. ساعياً بذلك استثمار العلوم الإسلامية ذات الطابع الفلسفي النظري (علم الكلام، الأصول، المقاصد) في الرد على الحرب المسلطة على القيّم وإعادة احياء وظيفتها التي غُيبت في الآونة الأخيرة في ميادين شتى كالأخلاق.

ففي إصلاحه لعلم الكلام[2]، يرى أن صياغة علم العقيدة كما عرضته الثقافة الدينية في المراحل السابقة، لم يعد وافياً بحاجة المسلمين المعاصرين، نظراً لاختلاف الزمان وتغيير التحديات التي ترد على أصول العقيدة الإسلامية، نظرته الحضارية والتي ظهرت جليّة في العديد من كتبه مثل **"سر تأخر العرب والمسلمين" "دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين"، "هموم داعية"، "الغزو الثقافي يمتد في فراغنا"** كما ألف الغزالي عن قضية التأصيل لمعارف الدين بأسلوب استجاب لدعاوي الواقع الإسلامي المعاصر، حيث اهتدى فيها إلى كيفيات التأصيل ومواطن التجديد في طرحه الفكري في

[1]-محمد هيشور، **منهج محمد الغزالي والإصلاح**، مرجع سابق، ص 80-81

[2]-ينظر: سهيلة مازة، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص68-70

كتاباته من "**عقيدة المسلم**" "**كيف نفهم الإسلام**" "**عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق**"، وأن أسلم طريق لإصلاح هذا الفهم هو العودة بأصول العقيدة إلى نصوص الكتاب والسنة على أن تكون هذه العودة مجردة من الآراء التي أنتجها صراع الفرق والمذاهب عبر التاريخ الإسلامي.

ونلمس توجهه في تجديده في هذا العالم من خلال تأليفه لكتاب "عقيدة المسلم" حيث يقول في المقدمة "هذه بحوث في العقيدة دفعتني إلى كتابتها قلة الرسائل التي تعني هذا اللون من علوم الدين وتعرضه في أسلوب يتفق مع حاجة المسلمين والمعاصرين، وقد رأيت أن أسوق الأصول العلمية (لعقيدة المسلم) في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته من هذه الأصول في كل مضامينها من ثقافتنا الدينية، لا لأني سآتي بجديد في هذا الميدان، بل نزولا إلى منطق التجارب، وانتفاعا بما اكتشف جوانب التاريخ الإسلامي من أحداث وتوخيا للسير على هذه النصوص المجردة من الكتاب والسنة، مع استخدام العقل المنفعل بالوعي والاستعانة بنتائج العلم الحديث [1].

وتجدر الإشارة إلى أن الغزالي كان من المجددين الذين سعوا إلى إخراج الدراسة في الأزهر من دائرتها الأكاديمية إلى الميدان التطبيقي العملي، ومن مثاليتها التاريخية إلى واقعية معاصرة؛ حيث دعا إلى تجديد علوم الشريعة وجعلها مواكبة بقدر يحفظ ثابتة الأصالة، وفي الوقت نفسه يستجيب لمعطى المعاصرة عن طريق تطويرها تدريساً وتأليفاً، تنظيراً وتنزيلاً ساعياً بذلك إلى التجديد في المناهج التعليمية في الجامعات التي عمل بها، حتى تساهم هذه الأخيرة في تكوين العقل الناقد، وتحصيل المناعة الفكرية لدى الطلبة، لذا حاول الغزالي الاستفادة من محاسن ثقافة عصره وعلومها متسائلا عن موقع العلوم الإنسانية في عصرنا الراهن من إتمام الدرس المعرفي الإسلامي المعاصر، وكذا عن العلوم الضرورية لفقه الواقع.

ونحا في تفسيره للقرآن الكريم منحى جديدا وسبيلا لم يسلكه أحد من قبله، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم قد أرتاد طريقا لم أسبق إليه، أفتح به بابا من أبواب الخير"[2]. وفي هذه الدراسة الجديدة ذكر القرضاوي أن تفسير الغزالي لسور القرآن هو دراسة

---

[1]-محمد الغزالي، **عقيدة المسلم**، عقيدة المسلم، دار القلم، دمشق، 1420هـ-1999م ص 7، وسيأتي التفصيل فيه في الفصل الثالث، مبحث منهج الغزالي في التزكية

[2]-محمد الغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1413 هـ-1992م، ج1، ص3.

جديدة، حاول فيها يرسم صورة موحدة تدور حول موضوع معين، ويربط أوائل السورة بأواخرها ويصل أطرافها بأوسطها، فنظر إلى كل سورة باعتبارها وحدة متكاملة، وهذا توجه جديد في التفسير[1].

كما دعا الغزالي إلى إيجاد منهج معرفي إسلامي جديد قادر على صياغة جديدة يكون من خلالها ركيزة وحدة ومناصرة وتأييد، يؤلف له مجمع علمي يتعاون رجاله على غربلة التاريخ الإسلامي كله غربلة قوامها نشدان الحق، وعلاج الهفوات الفردية بما يرد للشعوب الإسلامية اعتبارها، ويجمع شتاتها[2].

وتبرز نظرته إلى التراث الإسلامي المجددة، بتجديده ما يتناسب المبادئ والمقاصد أو ما يخالفها، ودعوته إلى إزالة العوائق المفتعلة والهموم القاصرة، وفتح الباب لذوي الكفاءة والابداع أن يخطوا بالأمة قدما، إذ كثيرا ما كان يردد قوله بأن الأمة تحتاج إلى أن تعيد النظر في الطريقة التي تفكر وتحيا بها، وهذا تجديد في الفكر والرؤية، وربما هذا ما يقصده الغزالي بالتأصيل الإسلامي الذي – يعني في نظره –رد الأفكار والنظريات إلى المرجعية الإسلامية ومحاولة الاستدلال عليها والاستثمار لها من القرآن والسنة، أو ما صح من تراث الأمة الفكري، وبيان السبق العلمي والفكري لرواد الحضارة الإسلامية في مجالات كثيرة كالطب والرياضيات وتخطيط الخرائط الجغرافية، فابن الهيثم والخوارزمي والادريسي وغيرهم كانوا روادا في مجالات العلوم الطبيعية والفلكية، أبدعوا من خلال الحوافز الإيمانية التي استمدوها من الوحي، حيث آمنوا بشمولية العبادة في حياتهم حتى كاد يتساوى عندهم الوجود في الحراب والمخبر، وهذا النهج أراد الغزالي استئنافه مرة ثانية، فسعى إلى نقل موضوع الخطاب الإسلامي إلى قطاعات وميادين لم تعهد في الماضي كالبيئة، ونقل التكنولوجية والتصنيع، وأمور الحكم والسياسة والاجتماع إلى المنابع الصحيحة، فلم يكن الغزالي من الذين يظنون انغلاق باب الاجتهاد بل دعا إليه وعمل به، وهو يؤمن بالتفاعل المؤثر والتوليف بين التراث الإسلامي والتراث الإنساني وبهذا التفكير وضع الغزالي قواعد التأصيل، وضوابط التجديد التي تربط الأمة بماضيها، وتضع لها مستقبلا زاهرا.

---

[1]-يوسف القرضاوي، **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص42

[2]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، دار الشهاب للطباعة والنشر، ص 200

6- الاجتهاد

حيث وضح أن إغلاق باب الاجتهاد هو اجتهاد وبإغلاقه ينتهي الأمر إلى ضرر كبير وهو أنّ الامة توقفت فعلا عند التفكير القديم الذي كان سائدا في القرن الرابع تقريبا، والزمن يتجدد، وكما يقال تحدث لتأمن أقضية بقدر ما أحدثوا من أنزعة فلابد من أن يترك باب الاجتهاد مفتوحاً [1]. ، فإذا كان الاجتهاد هو وليد التفاعل والتعامل مع الواقع، فإن الغزالي قد نزل يتعامل مع قضايا العصر تعامل المتفاعل مع الواقع حتى وجد نفسه قد اجتهد في أمور كثيرة واهتم بالمنظومة القيمية للإنسان حيث اعتبرها عاملا هاماً في نهضة الأوطان معبراً عن ذلك "الاخلاق تأتي قبل العبادة في الإسلام" حيث لا يكتمل إسلام الفرد إلا بالالتزام بالأخلاق منبها على ضرورة انخراط العلوم الإسلامية في الصراع الفكري المحتدم حول القيم واثبات فعاليتها فيه.

كما دعا إلى تجديد الإيمان وتزكية النفس وضرورة تعميق الصلة بالله وبالآخرة، وإصلاح النفس في ضوء هداية الوحي **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[2]وهو يؤمن أن السنة الكونية والتغيير يبدأ بما في الأنفس **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ۝١١﴾[3] .

وفي هذا يقول الغزالي: "نحن ننشد إقامة الشرائع التي تقينا السيئات وترهب المجرمين، ولكنها قبل ذلك تقيم العقائد التي تربط الناس بالله عز وجل وتجعل تعاملهم معه وخوفهم منه وأملهم فيه"[4] ولعل دعوته إلى الاستفادة من التصوف النقي هو شعور كبير بحاجة الأنفس إلى تزكية وإصلاح وتجديد إيمانها، حيث يقول: "مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحثه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملا وتأملا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه

---

[1]-محمد هيشور، **منهج محمد الغزالي والإصلاح**، مرجع سابق، ص 80-81

[2]-سورة الشمس، الآية 9-10

[3]-سورة الرعد، الآية 11

[4]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، دار الهناء الجزائر، ص 95

نظر يتسم بالسداد" [1]

ولما كان التجديد في الدراسات الاسلامية يبدأ من الدرس المقاصدي الذي يعيد الفعالية الحضارية للفكر الاسلامي، فإن للغزالي مساهمة كبيرة في تفعيل علم المقاصد وإخراجه من مجاله الفقهي إلى فضاءات أوسع، ليشمل العقائد خاصة وذلك لاستعادة الفعالية لقضايا العقيدة وتأثيرها الايجابي لأن تعطيل فاعليتها في النفس واهمال وظائفها في الادراك الانساني كان سببه اهمال مقاصد العقائد.

وإلى جانب ذلك فإن للغزالي خيارات فقهية، ولكنه لم يخرج بالكلية عن التراث بل جدد فيه في إطار الوحي، فقد نرى له رأيا في حد الردة [2] مثلا، وله رأي في وقوع الطلاق [3] بمجرد اللفظ بعد شيوع الاستهانة به عند المسلمين، كما له رأي في مسائل الميراث والوصية والزكاة [4] ومصارفها، وغير ذلك مما يعد من اختيارات الغزالي التي جدد فيها ويخلص إلى أن الغزالي يؤكد على أن يكون للتجديد دورا في النهوض الحضاري وأن يكون فاعلا في صناعة رسالة هذا النهوض، وذلك بتجديد طرائق التفكير وآليته، والحرص على عملية التوليف بين التراث الإسلامي والانساني تحت مظلة تأطير النص القرآني والسنة النبوية.

7-نظرته النقدية:

كان الغزالي حر الفكر والقلم واللسان، ورغم تأثره بمن سبقوه واستفادته منهم في الفكر والعلم (كما سبق ذكره)، ورغم أنه كان على منهج السلف في عقيدته إلا أننا نلمس استقلالية في تفكيره، وهو يكتب أو يحاور أو يخطب، إذ كان كثيرا ما يردد قول الشافعي رحمه الله معبراً عن نفسه:

أنا وإن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبراً[5]

---

[1]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص 103

[2]-ينظر: يوسف القرضاوي، **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص 273-286

[3]-ينظر محمد الغزالي، **ترثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل**، ص 133-134

[4]-محمد الغزالي، **هذا ديننا**، ص 179، ينظر **قضايا المرأة** ص 181-187، ينظر **هذا ديننا**، ص 137-138، وينظر **الأوضاع الاقتصادية**، ص 163-169

[5]-الشافعي، **الديوان**، مرجع سابق، ص 53.

حيث نجده يستشهد بالدليل، وبأسلوب مقنع متحملا مسؤولية أقواله وأفعاله، مؤمنا بالتغيير إلى الأحسن و لم يلمس له في مسيرته الفكرية تعصباً للرأي بقدر سعيه لإيصال الحقيقة بلطف الإقناع وأدب الحوار حيث يقول هنا: "الشيء الذي نرفضه ويرفضه جموع الفقهاء العقلاء أن يحسب أحد الناس أن رأيه دين وأن ما عداه ليس بدين، وأن يجمد ما عنده جمودا قد يضر بالإسلام كله ويصدع وحدته [1].

وكثيراً ما حارب الغزالي التعصب المذهبي الذي لاحظ أنه أدى في كثير من الأحيان إلى نزاع محتدم بين أصحاب المذاهب، حيث يقول: "لم أر أناسا حبستهم الجزئيات على رشدهم مثل صرعى التعصب المذهبي [2] فلم يتحيز في مسيرته الفكرية لمذهب دون مذهب أو فكر دون فكر، وإنما كان يقول عن نفسه أنه عند الحق حيثما كان فيقول" "أنا أحترم حرية الرأي إلى أبعد حد، أكره الغباء والافتراء ومساندة الدعوة بالعصى، واستغلال العمل بحيث تعجز كل المفاتيح الحقيقية عن فتحه [3].

فالاستقلالية الفكرية لا تعني عند الغزالي مخالفة الصواب والتعصب له، والخروج عن الإجماع كما يقول: (قد أعطي نفسي الحق في مخالفة أي فكر ديني سابق أو لاحق، ولكن لا أعطيها أبدا حق الشذوذ أو الخروج عن الإجماع، إن أوثر السير مع الجماعة الكبرى وأحب وحدة الصف والهدف وأرفض أن تكون القضايا الصغرى سببا في تنافر الأفئدة وأوصى أن نتشبث بمعاقد الدين وعراه الوثقى) [4]، بل تعني حسب ما ذكر أن لكل إنسان شخصيته المستقلة، وفكره الحر، إذا حافظ على هذا الاستقلال، ودعم أصوله وزكى فروعه، وعاش في نطاق ذاتيته الخاصية، فقد مضى على سنة الله قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴿١٤٨﴾﴾ [5].

كما أن الاستقلالية لا تعني أيضا عدم تحري الصواب، ومنح النفس عنائها للفساد والابتعاد عن الحق، إذ يقول مؤكدا هذا المعنى: "إني أسير وفق خصائصي النفسية كما يسير القطار على

---

[1]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، مصدر سابق، ص 64.

[2]-علاء الدين وحيد، **محمد الغزالي وتحطيم القيود**، دار السنابل للنشر والتوزيع، ص 136

[3]-ينظر: المرجع نفسه، ص 137-144

[4]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، مصدر سابق، ص 235

[5]-سورة البقرة، الآية 148

قضبانه، عندما أخرج عنها أتوقف لفوري"[1].

بل أن النظر إلى الحياة من زواياها المختلفة كما يرى الغزالي يكفل الإحاطة بأوفر حظ من الصواب والخير[2]، بل هو نوع من التعاون الذهني على استشارة ما في الكون من منافع حسية ومعنوية.

ومع أن حرية الرأي هي حق طبيعي، إلا أنه حق يتخذ صفة التكليف اللازم والرسالة الواجبة الأداء، فكل مسؤول على ما يفكر ويقول، بهذه الرؤية عبّر عن آرائه في التأصيل والتجديد، وفي كثير من القضايا في كتبه، وعلى سبيل المثال فيما يتعلق باستقلالية فكره وعدم تعصبه أن كثيرا من المفكرين من ردوا عليه بعض آرائه أمثال عبد الله عويس، يوسف القرضاوي، فقبل ذلك بصدر رحب وحاورهم موضوعيا، كما أنه في كثير من المواقف أعلن الغزالي استعداده لتغيير آرائه إذا أقنعه الآخرون بخطأ تصوره.

وفي رد إبراهيم البليمي في جريدة الرياض السعودية عن الهجمات الشرسة ضد الغزالي، كتب يقول: "أن الغزالي يؤمن بأن القدرة على التفاهم هي ذروة الإدراك العقلي، وبامتلاك الإنسان لهذه القدرة يتسع عمله ويتعمق فهمه فيدرك حدود الفهم البشري، ويفقه العوائق التي تعوق الفهم، إذ أنه كلما تألق عقل الإنسان صار أكثر تواضعا، وأقل ادعاء وأشد تسامحا وعفوا عن الآخرين وأكثر تفهما لوجهات النظر المتفاوتة والمختلفة[3]، ذلك أن الاختلاف أمر طبيعي ناشئ عن النقص الملازم للبشر، وهذا منهج الغزالي في الحوار بل في الفكر أيضا إذ يقول: "إني لا أتعصب للأولين ولكني أقدرهم قدرهم، وأطلب أن يكون المجتهدون الجدد على مستواهم الفني والخلقي، وأن يدركوا ما وفرت به الحياة من مشكلات، ويحسنوا التماس الحلول الجدية" [4] ويقول أيضا في بعض ردوده: "والرأي الفقهي مكانته العلمية ولمن شاء أن يأخذ به، وأن يدعوا إليه غيره، ونحن نؤثر رأيا عن أخر،

---

[1]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، ص 123

[2]-محمد الغزالي، **جدد حياتك**، ص 130

[3]-ينظر سهيلة مازة، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص52.

[4]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، ص 99.

لأن اقتناعنا بهذا أكثر من اقتناعنا بذلك، ولأن هذا الرأي أدى إلى تحقيق المصلحة العامة وأرفق بعباد الله [1].

وليس فيما سبق تزكية الغزالي، ولا أن يُتصف بالعصمة، فهو مفكر مجتهد قد يخطئ ويصيب وله في ذلك الأجر والأجران، إلا أن رد الغزالي مثلا على هجوم بعض النقاد والسلفية (السلفية بمفهومها المعاصر) ودعاؤه لهم بالخير جعله ينفرد بشخصية متميزة ومستقلة، والحقيقة أن التفكير السليم –في نظر الباحثة–لا يتعارض مع منهجه الموضوعي والإنساني المتفهم للواقع والواعي له.

ولعل ما ساعد الغزالي على ظهور هذه الاستقلالية في فكره، وثباته عليها –دون تعصب لها– هو سعة علمه واطلاعه على العلوم والمعارف والتخصصات الأخرى، بل وعلى الديانات المختلفة بهدف تجليه الرأي الصحيح، وكذلك حسن استفادته من التجارب والقراءات الكثيرة ودراسته للتاريخ، تدل على أنه دقيق الفكر والفهم فيما يقرأ ويقول، تتداعى الآيات والأحاديث والحجج والبراهين العقلية والواقعية على لسانه وفكره كأنما طوع بنانه، إذ نجده يعبر عن هذا فيقول: "إني أطيل النظر في كتب السنة معتقدا أن بها كنوز من تراث النبوة وأستهدى بفطرتي في تجنب الضعيف وقبول الصحيح، وهي فطرة صقلتها التلاوة الدائمة لكتاب الله والحب الصادق لهدى الوحي المبارك"[2].

ويقر الغزالي عن نفسه بكل قوة وجدية أنه تعلم من غيره آداب الحوار وفضل الخلاف فيقول: "وقد تعلمت من حسن البنا الإنصاف للغير مهما خالف في الرأي، نعم عندما أخالف أحدا في الرأي في حكم ما، لا يجوز أن أهمل ما لديه من صواب كثير ومواهب قد أفاءها الله عليه، يجب أن أحترم ذلك فيه، بل يجب أن أحترم ما وراء خطئه من غيرة دينية تربطني به وإن أنكرت قوله" [3] وحين انتقد الغزالي التراث فلا يعني أن جميع ما يحتويه هذا الأخير لا يصلح لبناء معرفي يؤهل العقل لاستئناف نشاطه الحضاري، بل يقصد الجزء الغالب الذي طغى على حركة الفكر في عصور مضت، وصاع حاضر العقل هذه الصياغة التي شلت قدراته على الحراك والإبداع، والتراث انتاج بشري كان

[1]-محمد الغزالي، **بين أهل الفقه والحديث**، دار الشروق، بيروت، ط 1409هـ، ص72

[2]-محمد الغزالي، **السنة بين أهل الفقه والحديث**، مصدر سابق، ص73

[3]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، ص 135

استجابة لإشكاليات عصره، ويعتريه من النقص كما يقول الغزالي "في تاريخنا العلمي ما يستحق النقد والغربلة ولكنه في صميمه تاريخ دؤوب وسعى ملخص وبحر متلاطم الموج من المواهب والمدارك الجديرة بالدرس" [1].

كما انتقد الغزالي بعض أساتذة الأزهر: بقوله "كانت مشاعر الروحانية الجياشة تنقص أساتذتنا في كلية أصول الدين، إذ كانت الدراسة نظرية شاحبة على الألسنة ولا تتحرك بها القلوب بل رأى أنها من الناحية العلمية بحاجة إلى اضافات مفيدة إلى بتر وايجاز موضوعات أثرية لا قيمة لها، وربما احتاج الأمر إلى إعادة تشكيلها في نظام داخلي يمتد إشرافه على اليقظة والعمل والانسجام [2].

المطلب الثاني: آراء العلماء فيه

نذكر من أهم آراء هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا على سبيل الحصر مايأتي:

-محمد عمارة: لم يكن في نظر محمد عمارة مجرد مجدد وداعية يحمل هموم الأمة ومرابط على ثغور الإسلام على امتداد 50 سنةً حيث أنجز فيها ما يقارب 60 كتاباً، إضافة إلى مقالات والخطب والمؤتمرات قد تعد في نظره جامعة في الفكر الإسلامي، تتلمذ عليها الأجيال، كما كان قلبا نورانيا عاش في سناد عارفيه، وكان محمد عمارة غالبا ما يستشهد بتعريف الغزالي للإسلام "أنه قلب نقي وعقل ذكي" وقد أضفت له في هذه الدراسة "وخلق زكي" وبهذا المفهوم عمل محمد الغزالي على انتقاد الثقافة الإسلامية من ذلك الفصام الذي حوّل العبادات إلى أشكال حفت فيها الروحانية وحوّلت القلوب إلى البدع والخرافات كما أن عمارة يشيد بدور مدرسة محمد الغزالي الإحياء والتجديد التي تربى فيها والتي أعادت الوفاق والاتفاق بين العقول المؤمنة والقلوب الواعية وانتصرت للعقلانية المؤمنة والمجاهدة الروحية التي تعد صراع بين الصوفية والفقهاء انتهى إلى فقهاء لا قلوب لهم وصوفية لا فقه لهم[3].

---

[1]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، ص 182

[2]-محمد الغزالي، **قصة حياة**، ص 36

[3]-ينظر: محمد عمارة، **المشروع الفكري**، مرجع سابق ص 5

-يوسف القرضاوي: عَرف يوسف القرضاوي الغزالي لمدة خمسين سنة يذكر أنه يتميز بالعقل الذكي والقلب النقي والخلق الرضيّ والعزم الأبي لمس الصدق في الإيمان والسداد في القول والإخلاص في العمل والرشد في الفكر والطهارة في الخلق والثبات في الدعوة ومحبته للخير وحرصه على العدل، كما ذكر عنه أنه لم يكن صوفيا ولكنه كان أقرب إلى الله من كثير ممن يزعمون أنه أصحاب الأحوال والمقامات وعندما كان يتحدث الغزالي عن الله فإنّه يراه بجلاله وجماله وكماله [1].

-عمار طالبي: يقول عن الغزالي لقد أوصل الغزالي ما انقطع من دعوة الامام ابن باديس والشيخ الابراهيمي وغيرها من رجال الدعوة وتجديد الدين دعوا في الجزائر وغيرها إلى النهضة والوعي وجاهدوا في الله حق جهاده وحسب الناس أنّ ابن باديس قد بعث وأنّ الابراهيمي قد عاد[2].

-فهمي جدعان: ذكر عنه أن الغزالي قد ابتغى صوغ منظومة فكرية تصويرية بآليات المنطق التقني ومنهجيات العلم الطبيعي، حيث حرص على أن تكون هذه المنظومة تمثل الإسلام في وجوهه التفصيلية المختلفة الروحية/الخلقية/ الاجتماعية/ وغيرها [3].

-طه جابر العلواني: يذكر أن مجموعة من الخصال اجتمعت في محمد الغزالي العالم المعاصر منها السماحة والاعتدال فهي سيمة فهمه الدقيق لوسطية الإسلام والادراك العميق لقيمته العليا التوحيد/التزكية/العمران.

-عبد الحليم عويس: صاحب ترجمة كتاب حياة الشيخ محمد الغزالي، عاش الغزالي في الجزائر داعية وباعث نهضة عربية وداعي للذات والأصالة ومن قريب ما رأيته –وقد غلبته الدموع–يتحدث عن كلمة التوحيد عن (لا إله إلا الله) يقول: إني أحب هذه الكلمة وأود لو أقبلها، أبثها حبي وشوقي وولهي! وحديثه عن أحباب الله وأصفيائه حديث عامر فياض [4] وكنّا يوماً في الجزائر نقرأ عليه

---

[1]-ينظر: محمد الغزالي، **قصة حياة**، ص 202

[2]-نظر: المصد نفسه، ص 265، 266

[3]-نظر: المصدر نفسه، ص 264

[4]-فتحي الملكاوي: **العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص 15.

ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بعض حكم ابن عطاء الله السكندري، فأخذ يبكي ويتأوه ونحن في سكون ووجوم، لا ندري ماذا نفعل [1].

-**محمد عبد القدوس (صهره)**: يذكر أنّ محمد الغزالي لم يضق أبداً برأي و لم يرفض فكرة وانما كان دائماً واسع الصدر هادئاً ودوداً، وقد تعلم أحفاده منه تلك الخصال النبيلة فكانوا يقلدونه في كل شيء... [2]

-**رمضان خميس الغريب صاحب كتاب المشروع الفكري لمحمد الغزالي**: الذي ذكر فيه أنّ محمد الغزالي قد جمع الرؤية الصادقة لخريطة الإسلام عملاً وسلوكاً وفكراً وفهماً فكان آية في التطبيق والفهم الشامل بكل جنبات الحياة وكان له جهود ضخمة في العلوم الثقافية والفكرية وفي العقيدة والتصوف والاستشراق والتفسير وعلوم القرآن والحديث وقضاياه. كما أنه عالج محور التصوف في كتبه وجعل له مكان في مشروعه الفكري منطلقا في ذلك من فهمه للقرآن الكريم الذي اعتنى بالروح وتهذيب الوجدان، ومراحل التربية السلوكية كما اهتم بالجسد. [3]

وبعد التعرف على أهم الأحداث، والوقائع التي اكتنفت الأوضاع السياسة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، للفترة التي عايشها الغزالي، والتعرف على أهم محطات حياته الشخصية والتعليمية، والتي جعلت منه شخصية ذات معالم متميزة، كان بها أهل للدراسة والتحليل، ويمكننا القول بأن الغزالي كان متأثرا ومؤثرا فيما حوله، متفاعلا مع مختلف الأحداث التي شهدها ومستفيدا من أغلب التجارب التي خاضها أو لمحها، مما يؤكد أن أولى دواعي اهتمامه بترسيخ العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين، ونشر الفكر الإصلاحي الإسلامي، وربطه بضرورة الجد والعمل وحرية الاجتماعي، وربطها أيضا بالعمل والخلق، كانت منبثقة من هذا التفاعل ونظرته لواقع المسلمين، حيث شكلت له حافزا قويا لإنكار هذا الواقع ورفضه، ودافعا جادا لإيجاد الحل الكفيل. وكان التصوف من أهم اهتمامات فكره، حيث تطرق إلى أغلب قضاياه في محاولته لتنقية التراث الروحي.

---

[1]-عماد الدين خليل، **الشيخ الغزالي**، صور من حياة مجاهد عظيم دار الصمود ط1 ص 11

[2]-المصدر نفسه، ص 269

[3]-ينظر رمضان خميس الغريب، **محاور المشروع الفكري لدى الشيخ محمد الغزالي**، دار الحرم للتراث، ط1، 1423ه، ص63-64

الفصل الثاني:
محمد الغزالي و التصوف

المبحث الأول: التصوف بين النشأة وخصوصية اللغة

المطلب الأول: تعريف التصوف

المطلب الثاني: نشأة ومراحل تطور علم التصوف

المطلب الثالث: أقسام التصوف

المطلب الرابع: التصوف وخصوصية اللغة

المبحث الثاني: قضايا التصوف

المطلب الأول: الزهد والتصوف

المطلب الثاني: الفلسفة والتصوف

المطلب الثالث: الفقه والتصوف

المطلب الرابع: المقامات والأحوال وآثارها على السلوك

المبحث الثالث: التصوف عند محمد الغزالي بين الذوق والنقد

المطلب الأول: نزعته الصوفية

المطلب الثاني: مفهوم التصوف عند محمد الغزالي

المطلب الثالث: نقد محمد الغزالي لبعض قضايا التصوف

المطلب الرابع: صلة التزكية بالتصوف عند محمد الغزالي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: التصوف بين النشأة وخصوصية اللغة

المطلب الأول: تعريف التصوف:

اختلف الباحثون في تعريف معنى ومنشأ التصوف بحسب طبيعة تفكيرهم والمناهج التي يأخذون بها في بحوثهم حتى وصل عددها عند نيكلسون إلى غاية سبعين تعريفا [1]، حيث يرى السراج الطوسي[2] أن اسم الصوفية مشتق من الصوف، والسبب في ذلك أنه لم ينفردوا بنوع خاص من العلم، بل إليهم جماع العلوم كلها، كما يذكر الكلباني[3] أن الباحثين اختلفوا في تفسير التصوف، فمنهم من يرى أن الصوفية سموا بها لصفاء أسرارهم ونقاء آثارهم، وقال بشر بن الحارث : "الصوفية من صفا قلبه لله"، وقال بعضهم أيضا :"الصوفي من صفت معاملته لله"، كما ذهب آخرون:"إلى أنهم سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ" [4] .

وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال اشتقاقه من الصفا، أو من الصفة، فيعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه [5].

كما يُرجّح ابن خلدون اشتقاق التصوف من الصوف، لأن الصوفية في الغالب مختصون بلبسه مخالفة للناس في لبس فاخر الثياب، وقد غلب على الصوفي الزهد والانفراد عن الخلف، والاقبال على العبادة، ما جعل بعض التعريفات في التصوف تركز على هذه الصفات منها: تعريف معروف الكرخي للتصوف بأنه: "الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق ويعرفه القشيري أيضا: (التصوف قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس)، وقول أبو بكر الشبلي (التصوف الجلوس

---

[1]-تاريخ العلامة ابن خلدون، (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر) دار الكتاب اللبناني بيروت 1960، ج2، ص 863، وينظر: علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، دار المعارف، ط8، ج1، ص53 .

[2]-السراج الطوسي، **اللمع**، مرجع سابق، ص4

[3]-أبو محمد الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، تقديم يوحنا الحسين، دار المعارف، بيروت، ط2، 1427ه، ص68

[4]-ينظر علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج3، ص 42-46

[5]-ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مرجع سابق، ص 863

مع الله بلا هم) وأخيرا قول أبو حامد الغزالي في توضيح سمات التصوف "بأنه طرح النفس في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، وأنه تصفية القلب عن مرافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، واخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية ومتابعة رسول الله في الشريعة .

ويقول ابن خلدون أن أصل التصوف هو: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، كما نشأ الاقبال عن الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[1].

كما اشتهر الصوفية بشدة محاسبة النفس في سائر أعمالهم والنظر في حقائقها، "فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والترك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمزيد مقاماً، ويترقى منها إلى غيرها [2]. وبناء على ذلك تولى عدد من علماء الصوفية منذ القرن الثالث الهجري الكتابة عن الصوفية وشرح مصطلحاتها فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كالمحاسبي، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعل القشيري، والسهروردي إلى أن جمع أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء أحكام الورع والاقتداء وآداب القوم وسننهم وشرح مصطلحاتهم وصار علم التصوف في الملة علما مدونا [3].

وعلى الرغم مما تقدم أن بعض الزهاد الأوائل الذين حملوا اسم التصوف لم يكن موقفهم سلبيا من الأوضاع العامة في المجتمع، بل كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الولاة والسلاطين.

---

[1]-ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مرجع السابق، ص 867

[2]-المرجع نفسه، ص 866

[3]-المرجع نفسه، ص 886

ولعل أحسن ما ذكر في حقيقة التصوف التي تباينت عبارات الناس في تحديدها ما قاله أحمد زروق[1]: "قد حدّ التصوف ورسم وفُسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى وإنما هي وجوه فيه [2] ثم قال واضعا لهذه القاعدة شروطها حتى لا يزيغ زائغ في فهمها أو في تطبيقها" قاعدة صدق التوجه مشروط لكونه من حيث يرضاه الحق وبما يرضاه... فلا تصوف إلا بتفقه إذ لا نعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق توجه ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحدا منها بدونه، ومنه قول مالك رحمه الله من تصوف و لم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه و لم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق [3].

فالتصوف كلمة عامة وغامضة وليس ثمة اتفاق على معناها ولعل غموض هذا المصطلح –رغم شيوعه بين الناس–يرجع إلى عدم تحديد اللفظ ذاته هذا بالإضافة إلى أصل كلمة (تصوف) متعددة المعاني وأصل التسميّة أي اشتقاقها اللغوي لم يحسم بعد ثمّ إن هذا المصطلح شأنه شأن اللغة يتطور بتطور العصر الذي يوجد فيه ويتأثر بظروفه.

من خلال التعريفات السابقة يمكن أن نصل إلى تعريف للتصوف بأنه: منهج تعبّد وطريق يسلكه المتصوف للحصول على مرضاة الله.

المطلب الثاني: نشأة ومراحل تطور علم التصوف

1–نشأته

ظهر التصوف في بداية القرن الثاني الهجري[4] إلى أن وصل إلى أوّجه في القرن السابع الهجري، فقد نشأ في أحضان الكتاب والسنة في صورة الزهد، واهتم بعض الخاصة من المسلمين بالمعاني الرقيقة

---

[1]-هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفارسي المعروف بزروق (1442-1493م)، (846-899ه)، هو فقيه مالكي مشهور ذو مشرب صوفي معتدل، وهو من أهم من اعتنى بجانب التربية والسلوك في الكتابات الإسلامية، حيث قام بتصحيح مسيرة التصوف واجتهد في ابرازه على أنه من تعاليم الإسلام المهمة لما يحمله من معالم الإحسان والتزكية، من مؤلفاته : عدة المريد الصادق/ من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت، ثلاثة شروح على المقدمة القرطبية،(علي فهمي خشين، ينظر أحمد زروق والزروقية، **دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة**، دار المدار الإسلامي، ط2، 1902م، ص 48-49)

[2]-أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، **ايقاظ الهمم في شرح الحكم لأبن عطاء الله السكندري**، دار الفكر، ص 4

[3]-المرجع نفسه، ص 5

[4]-ينظر علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ص14-15

في القرآن ذات الطابع الخلقي العميق، حيث رأوا فيها حقائق خفية أعمق مما يرى عامة الناس[1] أصاب كيان التصوف النظري والعملي تطورا سريعا منذ ظهوره، حتى برز تصوف القرن السادس في صورة فلسفية تستمد عناصرها من الأفلاطونية الحديثة والغنوصية، حتى انتهوا إلى عقائد مختلفة أهمها عقيدة الحلول ووحدة الوجود، لكن في الوقت ذاته كان التصوف السني ينكر على التصوف الفلسفي أكثر عقائده ، وبدأ يحدد معالمه ويسيطر على الجانب الخلقي في العالم الإسلامي، كما مثل التصوف السني المجتمع الإسلامي من وجهة نظر خاصة، حيث كان هذا التصوف ثورة اجتماعية على الترف العقلي والمتمثلة في الفلسفة وعلم الكلام، والترف الاجتماعي والاقتصادي متمثلا في الطبقة العليا من أغنياء الدولة وكبار التجار[2] كما جاء في حكمة الاشراق للسهروردي، وهو في القرن الخامس الهجري مزاجا من الزهد وعلم الكلام والفلسفة حتى بلغت أوجها على يد ابن سينا الذي كان في مرحلة من حياته صوفياً، وهكذا إذا تقدمنا في الزمن أو تأخرنا وجدنا الطابع العام للتصوف في تغيّير مستمر خاصة في القرون المتأخرة والعصر الحاضر حتى فقد التصوف عند بعضهم أصالته في المشرق والمغرب، وصار مجموعة من الأفكار الساذجة مقرونة بمظاهر يعدّها الصوفية المحدثون كرامات وفوارق تتصل بصدق توجههم.

2-مراحل تطور علم التصوف:

تطور هذا العلم عندما أخذ المهتمون به يدونونه كتخصص قائم بذاته ويثبتون له شرفه وفضله ومع مرور الوقت توسعت علوم الدين حيث ظهر دارسوا علم التصوف في جميع الأنحاء وبشتى اللغات، وظهرت معها تقسيمات أخرى لهذا العلم؛ ومهما يكن فإن هذه البحوث على اختلاف صيغها قد مكنت للتصوف كعلم يتناول في عدة اختصاصات أدبية وفلسفية وسيكولوجية وتربوية وأنثروبولوجيا، أما عن ظهور هذا العلم وانتقاله من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، فإن المراحل التي مرّ بها هي:

---

[1]-علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ج1، ص52-53، وينظر محمد البهلي النيال، **حقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي**، نشر وتوزيع مكتبة النجاح للنشر والتوزيع، تونس، 1384-1965م، ص 1-4

[2]-علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ج3، ص53.

1- **المرحلة الأولى: مرحلة التدوين والتأريخ:** أبرز رواد هذه الرحلة أبو نصر سراج الدين الطوسي (378ه) واحد من الذين دوّنوا لعلم التصوف في كتابه اللُّمع [1]؛ وضع فيه قاعدة للتصوف على أساس العلم والعمل والتحقق فيها، كما عرض فيه لمشايخ التصوف وأشهر أقوالهم والمفاهيم المتداولة عندهم [2]

أما سلسلة التصوف السني الإيجابي [3] تمتد إلى عبد الوهاب الشعراني وإلى غاية القرن العشرين وهي موصولة بأحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي رائد الطريقة العلوية. ولما كان التصوف ذا شقين شق عملي تعبدي وشق معرفي يبحث في الصفات وحقائق الموجودات، فقد ظهر خصوم آخرون من المتكلمين وأصبحت كتبهم هي:

أ. المجاهدات وما يحصل عنها من الأذواق والوجد ومحاسبة النفس.

ب. الكلام في الكشف والحقيقة المدركة عن عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي وغيرها.

2- الفاظ مبهمة صدرت عن كثير من الأئمة يعبرون بها عن الشطحات، أمثال السهروردي وابن منصور الحلاج وابن العربي حيث تعد بداية الدخول في مرحلة ثانية.

---

[1]-من المؤلفات التي تعد أكبر موسوعة صوفية عرفها التاريخ جاءت أبوابه مقسمة كالتالي: باب في تعريف التصوف ونسبة الطريقة، وباب في الأحوال والمقامات، وباب: صلة التصوف بالسنة، أما الأبواب الأخرى: تبحث في الآداب، السماع، الوجد اثبات الآيات والكرامات والشطح.

[2]-أبو عبد الرحمن السلمي صاحب كتاب "طبقات الصوفية" ذكر فيه صاحبه أشهر المتصوفة وأقوالهم. أبو طالب المكيّ صاحب كتاب "قوت القلوب" وهو من معاصري أبي حنيفة.أبو بكر محمد الكلاباذي صاحب كتاب " التعرف لمذهب التصوف " عرض فيه منهج التصوف وطريقتهم في فهم القرآن والسنة.أبو القاسم بن هوازن القشيري (465ه) صاحب كتاب "الرسالة القشيرية"، سلك فيها نهج سراج الدين والسلمي مضيفا أمورا تتعلق بالأحوال والمقامات والسكر والشطح. الامام أبو حامد الغزالي في نهاية القرن الخامس حيث وحد التصوف مذهبا قائما بذاته، فآمن بالتصوف حيث يقول: وانكشف لي اثناء هذه الخلوة أمورا لا يمكن احصاءها واستقصاءها لكن القدر الذي اوكده لينتفع به، هو أني علمت يقسنا أن الصوفية هم السابقون لطريقة الله خاصة، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء على أن يبدلوا شيئا من سيرهم لم يجد إلى ذلك سبيلا فإن جميع سكناتهم وحركاتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نورا النبوة نورا يستضاء به ، أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق، ص190-191

[3]-كما يصطلح عليه بعض المؤلفين -الفلسفة الصوفية في الإسلام-

2-المرحلة الثانية:

تميزت هذه المرحلة بشيوع اتجاهين صوفيين

أ- : الصوفية الغنوصية حيث امتزج فيها الطرح الغنوصي الشرقي والغربي، واشهر أعلام هذا التصوف الفلسفي، البسطامي (261ه) والحلاج (309ه) والنقري (35هـ) وفي مدرسة أهل الملامة منذ منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن الرابع والسادس (39-95هـ) والسهروردي (578هـ) مع المدرسة الاشراقية ثم مدرسة ابن العربي (638هـ).

ب- الصوفية السنية: كانت رد فعل للتصوف الفلسفي، فجاء المحاسبي ردا على البسطامي، وأبو حامد كرد فعل لمدرسة الحلاج، ثمّ انظمت إليهم المدارس التي آمنت بالتصوف السني الإيجابي كالأشاعرة الذين رفضوا كل ما يشير إلى نظريات الاتصال والحلول ووحدة الوجود، والذي يهّم في هذا المجال هو اهتمام أعلام الصوفية بالنفس واحوالها ودرسوها دراسة تحليلية، كما اهتموا بالأخلاق وطورها وفق تفسير القرآن تفسيرا ذوقياً.

3-المرحلة الثالثة:

تميزت هذه المرحلة بانتشار الطرق الصوفية، وتعني الإطار الذي يضم التصوف كظاهرة اجتماعية، والطريقة هي أيضا اختصاص صوفي، أو الأسلوب المتميز بظاهر التصوف في منطقة ما، بمعنى أن كل طريقة سمات وخصائص تتفرد بها عن الطرق الأخرى، والطريقة الصوفية تتكون من شيخ ومريد وبيعة وعهد يلتزم فيها المريد على أساس هذا العهد بسلوك معين[1]، وللشيخ صفات والمريد صفات، كما أن للبيعة صفة وشروط فشيخ الطريقة يتلقى طريقته من شيخ آخر وهو بمثابة المعلم والمرشد أو يتلقاه مباشرة من الله أو من الرسول ﷺ. وهناك عدة طرق أشهرها:

- القادرية: نسبة إلى الشيخ عند القادر الجيلالي (471-561).
- الشاذلية: أسسها أبو الحسن الشاذلي "تقوم على الأخذ بعلم الله قرآنا وسنة والاقتداء بالخلفاء والصحابة والتابعين".
- السنوسية، الأحمدية، البرهانية، النقشبدية والعلاوية.

[1]-علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج3، ص22

4-المرحلة الرابعة:

هي مرحلة مكنت للتصوف حيث أنّ روادها كانوا من العلماء والفلاسفة الذين أُعجبوا بالطرح الصوفي، وكتبوا فيه معتمدين منهجهم الفلسفي أو النقدي كما انظم إلى هذه المرحلة نقّاد التصوف والمستشرقون وأبرز علماء هذه المرحلة: ابن سينا، عبد الرحمن ابن خلدون، اذ لم يكتفوا بالتأريخ للتصوف بل نظروا له فيه فلسفيا، وإن طبعت المسحة الذوقية العرفانية أعمالهم.

5-المرحلة الخامسة:

تتمثل في أعمال المستشرفين الذين بحثوا في التصوف وفق مدارس ثلاثة هي:

أ-المدرسة الإنجليزية: يتزعمها "رينولد ألن نيكلسون" [1] حاولت هذه المدرسة فهم التصوف من كتب الصوفية القديمة ونشرها بلغتها الفارسية أو العربية، وذكرت أن التصوف تطور لحركة الزهد في الإسلام، كما درست هذه المدرسة النظريات الفلسفية لدى الصوفية في الإسلام انطلاقا من الرهبانية النصرانية، ورياضات الهنود في مستعمراتهم القديمة وفي نظر نيكلسون أن التصوف يرجع أيضا إلى عوامل كثيرة أبرزها الأفلاطونية المحدثة المتأخرة متمثلة في أفكار ذي النون المصري ومعروف الكرخي، وفي بيانات المسيحية، والمذهب الغنوصي، وعوامل عملية نتيجة احتكاك المسلمين بثقافة الهند والفرس الدينية المتمثلة في مذهب أبي يزيد البسطامي... وبذلك لا يمكن القول بأن التصوف إسلامي خالص أو أنه هندي أو فارسي أو مسيحي وإنما هو جماع ذلك [2].

ب-المدرسة الألمانية: هي مدرسة تكاد تكون مدرسة فيلولوجية أي أنها تفسر الموقف التصوفي من ناحية تحليل مصطلحاته وتعبيراته، وأنه تعبير عن فكره الفلسفي أو الكوني[3]، يتزعمها جولد زيهر Gold Ziher تحاول هذه المدرسة الكشف عن مصدر التصوف في تاريخ الفكر الإسلامي وحصر ما دخل فيه من مؤثرات بسبب اتصال العرب بوثنيات الهند وفارس ثم اليهود أو النصارى وأيضا

---

[1]-من أبرز أعماله "مختارات من ديوان شمس التبريزي" 898، أسرار النفس لمحمد اقبال، ومن بحوثه "دراسات في التصوف الإسلامي" 1920

[2]-بدوي عبد الرحمن، **موسوعة المستشرقين**، دار الملايين، بيروت، ظ 1984، ص 140، وينظر علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج3، ص24

[3]-ينظر علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج3، ص23

المستشرقين الألمان هورتن (Max Horten) الذي كتب "نصوص صوفية من الإسلام"

وجولد زهير له مصنفات مشهورة في الإسلام كما له في التصوف رسالة الحسين ابن منصور، ودراسة عن الزهد الصوفي وعن الصوفية، كما ذكر عنه أنه متحامل على المسلمين.

ج-المدرسة الفرنسية: تعد من أوسع المدارس الأجنبية في دراسة التصوف يتزعمها لويس ماسينيون Louis Massignon [1] تهتم بحركة الاستشراق عامة، كما تهتم بدراسة مواضع الملل والنحل والكلام، ومن أبرز أعمال ماسينون "أخبار الحلاج ندواته" الشيخ المصلوب والطريقة الحلاجية" وطواسين"، وماسينون يرفض النظريات التي ترد التصوف الإسلامي إلى التأثيرات المسيحية واليهودية والهندية والفارسية ويؤكد على مصادره الإسلامية الكتاب والسنة، ومن أعلام التصوف الذي تناولهم أيضا المحاسي والسقطي، وابن سعين وغيرهم أما المسلمون المحدثون الذين أخدوا عنه فهم زكي مبارك، عبد الحليم محمود، عبد الرحمن بدوي، وهؤلاء عرفوا بدراساتهم للتصوف التي تتسم بمنحى خلقي سيكولوجي ولأمانة البحث الأكاديمي تقول أن الاستشراق لعب دورا كبيرا في التأريخ للتصوف، وفي توضيح الجوانب النفسية والسيكولوجية المتعلقة به، لا يزال امتداد هذه الأعمال إلى يومنا هذا [2].ولعل أهم ما شهدته المدرسة الفرنسية من جهود في التصوف ما عرف عن المستشرق (Guenon Rene) (1901) ومن جينون إلى مانسيون.

المطلب الثالث: أقسام التصوف

1-التصوف المعرفي:

يحيل التصوف المعرفي أو العرفاني إلى مجموعة من النصوص الواسعة التلّقي والامتداد، فهي لا تقتصر على النصوص الإسلامية فحسب، وإنّما تستفي الحكمة والعرفان من الفلسفات الشرقية الممتدة على أرض وتاريخ الهند وغيرها، كما تعد هذه الكتابات مصدراً من الكتابات والتيارات

[1]-ومن أبرز أعمال ماسينون **"أخبار الحلاج ندواته"** الشيخ المصلوب والطريقة الحلاجية **"وطواسين"**، ينظر علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ج3، ص24-25

[2]-ظهر مستشرقون حملوا لواء كلا من ماسينيون ونيكلسون اختصوا في كتابات التصوف منهم: Zarcone Thiery في كتابه Mystiques, philosophes, et francs-maçons وAsin Palacios في كتابه islam et christianisme études sur le souffisme

الفكرية والفلسفية والأدبية، ومن أهم نصوص التصوف المعرفي ديوان الحسين بن منصور الحلاج، وكتاب "منطق الطير" لفريد الدين العطار و"المثنوي" لجلال الدين الرومي والفتوحات المكيّة لأبن العربي وكتابات السهروردي وغيرها، ويدخل عدد من هذه الكتابات في دائرة قوائم النصوص التي تحرم قراءتها لدى عدد من الاتجاهات منها التقليدي والتصوف الطرقي إلا أن الملاحظ أنّ هذه الكتابات تُعتبر مصدر إلهام ومعرفة فلسفية لدى فئات كثيرة التنوع وربما التضاد، فأخذ منها المسيحيون واليهود(المتصوفة) وأتباع الديانات الأخرى[1].

ونجد كثيراً من هؤلاء يمجدون الإسلام وتعاليمه نتيجة قراءتهم لهذه النصوص العرفانية في مسعى ربما ينتقص من كل التجليات الأخرى الحاضرة عبر المذاهب الإسلامية، إذ شكلت هذه النصوص العرفانية بنية أساسية لما يُعرف اليوم بالعرفانيين الجدد أمثال رينيه غينون (عبد الواحد يحي) وفريتشه شيون (عيسى نور الدين أحمد ومارتن (أبو بكر سراج الدين)) وسيد حسن نصر وآخرين ولعل من أكثر الانتقادات التي توّجه للتصوف المعرفي قضية "الحلول والاتحاد" أو قضية وحدة الوجود التي يعزو إليها كثير من الباحثين سبب مقتل الحلاج وغيره وربما يُضاف إليها قضية التخوف من التشرع والمسار التأويلي الذي تتبعه هذه الاتجاهات، فالظاهرية هنا تصف أصحابها بأنهم أهل الكشف في حين نصف الآخرين خاصة المذاهب الفقهية السائدة بأنّهم أهل الرسم، وأهل الكشف والرسم مصطلحان لها دورا كبيرا في سلطة التأويل، وإذا كان أهل الرسم يتبعون مجاز الكلام بغية حرف الكلِم عن مواضعه وتحريف مقصد الإسلام، فأن أهل الكشف يتبع حقيقة الكلام المراد من قبل الله وبتحديد أكثر دقة، بينما يفهم أهل الرسم من الخطاب في هذه الآية {يا أيها الذين آمنوا} بأن المراد ازدادوا إيمانا، ويفهم أهل الكشف بأنّ المراد هو حقيقة الايمان، وأن المقصد من هذا الخطاب هو اصلاح الايمان المزيف لهؤلاء المؤمنين، وبالتالي فإنّ أهل الرسم ومنهم أتباع المذاهب الأربعة التقليديين حرفوا مقصد الإسلام وهم المقصودون بهذا الخطاب "آمنوا" وبالتالي فإن مسألة التصوف المعرفي من أهم ما يفرضه واقعنا اليوم على كل من يشتغل في حقل المعرفة بشتى فروعه وألوانه، والدي يكون فيه مولود الابداع والتفنن رهينا سنين عجاف من الاعتكاف في محراب العلم والمعرفة، والقراءة والكتابة، يُلقي فيها المتعلم صداع العالم وراء ظهره، ويغلق خلفه نوافذ المجتمع وضجيجيه الذي لا ينتهي، ويخلو بنفسه في عزلة تؤتي أُكلها ولو طال الزمن، ولا شك أن واجب

[1]-أحمد عبد الحميد غانم، **نظرية المعرفة في التصوف**، دار الحوار، اللاذقية، ط1، ص36.

التثقيف والتعليم ونشر المعارف قد يقال بأنه يناقض هذا المعنى شكل عام، فيقال: لا خير أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة لسد ذاك الفراغ وما أكثرهم في عصرنا، فلا نرى حاجتنا لهم بقدر حاجتنا للفئة الأخرى.

2-التصوف السني

بدأــ زهدا ثم تصوفا وانتهى إلى الأخلاق حيث وضعه في صورته الكاملة أبو حامد الغزالي وأصبح طريقا من طرق أهل السنة، وأحيانا يظهر كفرقة إسلامية تتميز بمذهب خاص في الفقه والعبادات وفي المسائل الإعتقادية، ثم ظهر قسم آخر تمثل في التصوف السلفي إبن تيمية[1]

3-التصوف الطرقي:

يقوم التصوف الطرقي على اتباع المذاهب الإسلامية والنظر إليها، على أنّها الجزء الذي لا يتجرأ في مسار العلاقة مع الله حيث يقوم هذا النوع من التصوف على ثنائية مهمة هي التشرّع والتحقق، والتشرّع اتباع أوامر الله المنصوص عليها في القرآن والسنة، والمفسّرة من قبل الفقهاء، والتحقق هو النظر إلى المخلوقات على أنّها تجليات صفات الخالق، ولا يقوم التصوف الحقيقي إلا بالجمع بين هذين الركنين، وبالتالي فمن تشرّع ولم يتحقق فقد تفسّق، ومن تحقق ولم يتشرّع فقد تزندق، ونشير هنا أنّ التصوف الطرقي يحتل جغرافية واسعة من العالم الإسلامي، كونه يعتبر حالة مدرسة منظمة تقوم على علاقة ثانية بين الشيخ ومريديه، والمريدين أنفسهم، والمريدين مع عموم الناس، وهناك عدد من الطرق التقليدية المعروفة التي تتبع هذا النوع من التصوف كالطريقة الشاذلية، والدرقاوية والقادرية والرفاعية.

المطلب الرابع: التصوف وخصوصية اللغة:

مرت اللغة الصوفية في نشأتها بثلاثة مراحل:

1-المرحلة الأولى: كانت فيها اللغة الصوفية بسيطة، بساطة تجربة الصوفي نفسه، تلك التجربة التي ساعد القرآن على تبلورها من خلال التلاوة، حيث أن التجربة الصوفية وليدة التفكير في القرآن

[1]-ينظر علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج3، ص19-20

والاكثار من تلاوته واستعادة بعض ألفاظه كالمحبة والقرب، الشوق، وهنا يمكن القول أنّ التصوف نشأ نشأة إسلامية خالصة من خلال تدبّر معاني القرآن وألفاظه فهناك من الآيات ما تعكس تجربة صوفية عميقة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[1]

ولقد أحصى المستشرق لويس ماسينيون عددا كبيراً من المصطلحات التي استمدها الصوفية من القرآن منها ذكر، قلب، استقامة، استواء، اصطناع، صدق، اخلاص، رضا، خلق، علم، نفس مطمئنة، سكينة، توبة، يقين، كما اشتق المتصوفة اصطلاحاتهم مثل: توكل، خلة، طمس، لدنّي، وألفاظ متشابهة أو مقابلة منها: الظاهر والباطن، الطول والعرض، القبض والبسط، الصبر والشكر وغيرها [2].

2-المرحلة الثانية: في هذه المرحلة بلغت التجربة الصوفية، عند ابن العربي والحلاج تطورها حيث بلغت اللغة الصوفية أشدها وأصبحت التجربة خلاقة تأتي بمعطيات جديدة لم تكن في القرآن الكريم، وتساعد الصوفي على النظر إلى كل شيء نظرة تأويلية وفي هذا يقول أحد الباحثين المعاصرين[3] أنّ التجربة ربطت بين الصوفي والقرآن صلة جديدة هي الاستنباط أي أنّ التجربة الروحية تلقي على النص أضواء جديدة فتصبح طريقة خاصة لفهم معانيه واستنباطها: أي جرّها إلى الوجود من أعماق ليست إلا أعماق التجربة التي عاشها الصوفي.

3-المرحلة الثالثة: فيها بلغت الرؤية الصوفية أقصاها وتبدأ مع منتصف القرن الرابع، ويمثلها النفري حيث ينتقل فيها هذا الصوفي من التفكير في القرآن إلى مخاطبة الله من خلال كتابة **"المواقف"** حيث يمتزج الرمز بالإشارة في لغته ويكسوها الغموض والابهام، وتصبح لغة صعبة حتى على ذهن الخواص لأن الصوفي وصل إلى مرحلة ما لا يقال والصمت عما لا يقال على حد تعبيره "وأوقفني في العلوم كلها وقال لي: اطلع: فرأيت العلوم تأكل بعضها بعضا ورأيت الأكل كيف يأكل المأكول،

---

[1]-سورة ق، آية 22.

[2]-ينظر حميدي خميسي، **مراحل التصوف في الإسلام**، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر، عدد 10، 1417هـ-1996م، ص27-38.

[3]-نقلا عن: المرجع نفسه، ص30.

كيف يعود فيأكل الأكل وقال لي: العلوم كلها آكلة مأكولة"، وبالتالي فإن مصدر التعقيد الأساسي في لغة المتصوفة هو عمق التجربة نفسها لأن هذه التجربة تقوم أساساً على قطع العلائق واليأس مما في أيدي الخلائق ذلك أن جسر التواصل –وهو اللغة– لم يعد قادراً على تأدية وظيفته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: قضايا التصوف

المطلب الأول: الزهد والتصوف:

جاء الإسلام بالاعتدال والتوسط في كل شيء، فأنكر كل افراط وتفريط، والزهد في الدنيا يجري على هذا الميزان، فلم يقر جشع اليهود وإفراطهم في الدنيا، كما لم يأخذ بالرهبانية التي ابتدعها النصارى، في حين أن هناك من المسلمين من قرأ قوله **تَعَالَى**:﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [1] وقوله **قَالَ تَعَالَى**:﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [2] وقوله ﷺ "لدنيا أهون على الله من شاه ميتة على أهلها [3] على ظاهره، فبالغوا في هجر الدنيا من غير بحث عن حقيقتها وسموا ذلك زهدا، والحقيقة أن الذم الذي اشتملت عليه النصوص الصوفية هو لأفعال الجاهل أو العامي في الدنيا أما العارف فإنه إذا اقتنى المال المباح وأصلح به وأدى حق الله فيه فذلك عبادة، وما يؤكد ذلك قول النبي ﷺ "نعم المال الصالح للمرء الصالح"[4].

ولقد فرق المستشرق "جولد زيهر" متأثرا في ذلك برأي ابن خلدون بين تيارين مختلفين في التصوف الاسلامي، الأول الزهد في نظره قريب من روح الاسلام ومذهب أهل السنة وإن كان متأثرا إلى حد كبير بالرهبانية المسيحية، والثاني التصوف بمعناه الدقيق وما يتصل به من كلامه في المعرفة والأحوال والمواجد والأذواق، وهو من ناحية أخرى متأثرا بالأفلاطونية الحديثة والبوذية الهندية[5]. ويرى بعض أقطاب الصوفية مثل الحلاج أنّ العز بالزهد وترك الدنيا كما في قوله [6]

عليـــــك يـــــا نفـــــس العـــزّ بالزهـــد والتخلّـــي

---

[1]-سورة آل عمران، الآية 185

[2]-سورة الحديد، الآية 12

[3]-رواه أحمد ابن ماجه في السنن: أبواب الزهد، باب: مثل الدنيا، 5/230_231، رقم الحديث: 4111.
قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه على سنن ابن ماجه:" صحيح لغيره، ت: عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ - 2009 م. –ورواه أحمد في مسنده، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1421 هـ-2001 م.

[4]-صحيح البخاري، كتاب الدعوات رقم 6344

[5]-ينظر نيكلسون، **في التصوف الإسلامي**، مصدر سابق، ص 200

[6]- لويس مانسينيون، **الحلاج حسين بن منصور، الجريدة الآسيوية**، المطبعة الوطنية باريس، ص81

ويفرق القدامى بين الزهد والتصوف حكم أن المسلمين بعد رسول الله لم يتصف أفضلهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم الصحابة ولما أدركهم أهل العصر الثاني سُمِّيَ من صحب الصحابة "التابعين"، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين، الزهاد والعباد ثمّ ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل طريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة [1] ومن مآخذ ابن الجوزي على أبي نعيم الأصفهاني، في حليته ذكر: "اضافة التصوف إلى كبار السادات كأبي بكر وعمر وعمار وعلي والحسن وشُريح [2]، وسفيان ومالك والشافعي، وأحمد وليس عند هؤلاء القوم خير من التصوف، فإن قال قائل: إنما تمنى الزهد في الدنيا وهؤلاء زهاد، قلنا: التصوف مذهب معروف عند أصحابه ولا يقتصر فيه على الزاهد، بل له صفات وأخلاق ليعرفها أربابه [3]

ويمكن القول أنّ البوادر الأولى لنزعات التصوف مما كان عليه الحسن البصري (ت 110ه) من زهد وخوف من الله وحده، حتى انعكس ذلك في نفوس الناس وبلغ الخوف منهم مبلغا كبيرا، حتى قال سفيان الثوري: "ما أطاق أحد العبادة ولا قوي عليها إلا بشدة الخوف [4]، وقد أراد بذلك الحسن البصري وضع مجموعة من القواعد التنظيمية للتعبد تلمس فيها البذور الأولى لنمط جديد في الحياة الروحية مثل قوله: "إذا أراد الله بعبد خيراً في الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد" [5] وبالتالي فإن نزعات التصوف زرع بذورها الحسن البصري حيث وضع علم القلوب الذي نما بعد ذلك على أيدي غيره من الصوفية فبعد أن كان الزهد في القرن الأول انصرافا عن متاع الدنيا وزخرفها صار له مدلول آخر في القرن الثاني، وهو طهارة النفس ونقاء القلب وصفاءه والإخلاص لله، ومن ثم حلت

---

[1]-القشيري، **الرسالة**، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان 1955 ص 218، وينظر: علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي**، مرجع سابق، ج3،ص ص21

[2]-يقصد به شريح بن الحارث الكندي، من أشهر القضاة الفقهاء (ت 78ه)، ينظر: ابن سعد **الطبقات الكبرى**، مكتبة الخانجي، ج6، ص131-145

[3]-ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، مطبعة الأصيل حلب، ط1، ج1، 1969 ص 25

[4]-الأصفهاني، **حلية الأولياء وطبقة الأصفياء**، مصدر سابق ص 362

[5]-ينظر الشعراني، **الطبقات الكبرى**، شركة ومطبعة مصطفى الباي الحليبي وأولاده بمصر، ط1، 1954ج1 ص 20-30.

الطقوس التعبّدية الأخرى وانتشرت.

أما القواعد الهامة التي انبنى عليها الزهد في هذا القرن كانت قاعدتها التوكل والرضا [1] وقد مهدت هاتين القاعدين لظهور ما يعرف بالحب الإلهي في القرن الثالث، وقد تحدث عنه جميع الصوفية " لان هذه الحال هي الفيصل بينهم، وبين أهل الشريعة الذين يعبدون الله طمعاً في الثواب وخوفاً من العقاب ولا يستقيم حال المتصوف إلا إذا خلص من دنياه وآخراه فلا يكون له مأرب غير لقاء الحبيب [2] ومن بدايات ما تم في الشعر الصوفي ما كان يسمعه الجنيد من انشاء أبي الحسن السقطي لهذه الأبيات [3].

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق الظهر بالحشى وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

ومن هنا بدأ التصوف في الظهور كمذهب يعرفه أربابه، وخاصة بظهور الطرق الصوفية.

ومهما يكن فإن أهم عامل في نشأة الطرق الصوفية هو العامل الثقافي فقد شهد القرن الثالث تطورا ثقافيا كبيراً، إذ فيه طهرت الترجمة من الثقافات الأخرى كالهندية والفارسية واليونانية بتشجيع من الخليفة المأمون، أما عوامل اختلاف الطرق وتعددها، منها اختلاف مشايخها في فهم القرآن والاختلاف في تنظيم المراسيم التعبدية والتباين في طرق تهذيب النفس [4].

---

[1]-الأصفهاني أبو نعيم، **حلية الأولياء**، مرجع سابق، ج 10، ص 283

[2]-زكي مبارك، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، دار المناهل، بيروت، ص96

[3]-ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ص 127

[4]-مقداد، **فلسفة الحياة الروحية**، دار الشروق، ط1، 1985، ص 94

المطلب الثاني: الفلسفة والتصوف

قد يصعب تحديد تعريفاً جامعاً مانعاً للتصوف كما رأينا – ومثله في ذلك كمثل الفلسفة التي تضاربت الآراء في شأن تعريفها، ولعل ارتباط التصوف بالفلسفة ما يزيد في هذه الصعوبة كقول معروف الكرخي (2000هـ) "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق [1] وهو تعريف يشبه عبارة السكندري في تعريفه للفلسفة أنها: علم الأشياء بحقائقها بحسب طاقة الانسان[2]، ومن هنا يتبين أن ارتباط التصوف بالحقائق وهي أساس في تعريف الفلسفة، كما أن كونه مجموعة من الحالات النفسية عند بعضهم يحول دون تعريف محدد له، ثم إن الصوفية أنفسهم يسمّون هذه الظواهر النفسية بالأحوال ويعبّرون عنها بالتعبير الشديد كقولهم "لو لم تُحل ما سمّيت حالا" وتعني في اصطلاحهم "الغيبة والحضور والصحو والسكر والوجد والفناء والبقاء... وكلها من أحوال القلوب المتحققة بالذكر والتعظيم [3].

كما يعد التصوف في جوهره تجربة خاصة يعاينها المتصوف، وهو ليس فلسفة، إنّ قصدنا بالفلسفة البحث العقلي في طبيعة الوجود للوصول إلى نظرية عامة تخلو من التناقض، كما أن التصوف ليس نتيجة مزاج فلسفي خاص في المسائل الدينية بل هو وليد المجاهدة النفسية التي تتجه فيها الإرادة الإنسانية نحو موضوعها التي تعشقه وتفنى فيه، فتعرفه النفس عن طريق الاتحاد بالذوق، بينما يحاول الفيلسوف إدراك اللامتناهي لا تعرف إلا المتناهي، ويطبق مقولات هذا العالم على عالم ليس من طبيعته الخضوع لها، وهذا فيما أدركه الفيلسوف "كانط" إذ هو السر في فشل فيما بعد الطبيعة وفي ميدان العقل لا يبرحه لتجاوز الصوفي ميدان العقل إلى ميدان الوجدان والإرادة أو ميدان "الحرية المظلة".

أما طبيعة التجربة الصوفية فهي حالة من حالات الوجد الباطن المتحفز للإعلان عن نفسه في كل ضروب النشاط الروحي الذي يشد عن العقل ومقولاته، وإذا كانت الإرادة عند صوفية الإسلام هي جوهر الإلهية وجوهر الإنسانية كذلك فإنه بوسع الصوفي أن يقول خلافا للفيلسوف العقلي

---

[1]-الأصفهاني أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقة الأصفياء**، ج1، ط2، 1967، ص 363

[2]-لويس ماسينيون، **الحلاج حسين بن منصور**، مرجع سابق، ص 64

[3]-المرجع نفسه، ص 66

ديكارت "أنا أفكر إذا أنا موجود [1]،وفي التجربة الصوفية تتحدد الإرادة الأساسية مع العاطفة في الرغبة الملحة التي تدفع بالنفس دفعاً إلى تجاوز عالم الحس والعقل إلى عالم يتصل فيه عن طريق الحب بمحبوبها الأول الذي تدركه بالذوق أو بحاسة كونية متعالية هي الإرادة أو أيه عاطفة من العواطف التي لنا عهد بها، على أن العاطفة تلعب في التجربة الصوفية دورا خطيراً، إذ يرجع إليها مظاهر الشمول والاستغراق والفناء، فالتصوف في ذلك شأن الفن لا وجود له إلا بالعاطفة الجامحة.

والوعي الصوفي يبدأ في الوقت الذي تتجرد فيه النفس عن مألوف عاداتها ويتحول بذلك مركز الاهتمام من الذات إلى موضوع جديد تجتهد النفس في الوصول إليه، وهنا التحول في مجرى الحياة الروحية يطلق عليه اصطلاح "التوبة" وغالبا ما تكون التوبة الصوفية مصحوبة بحالة وجدانية عنيفة تتمثل في ذلك الشوق الملح إلى الله وهي حالة أشبه ما يكون بفيض يأتي من خارج النفس.

المطلب الثالث: الفقه والتصوف

اعتمد علماء الشريعة في مآخذهم على الصوفية وانكارهم لبعض عقائدهم على أقوال أئمتهم مثل ابن العربي والبسطامي وتتلخص في أمرين

1- **التأويل:** هو صرف النص إلى معنى بعيد الاحتمال اعتماداً على الخواطر والوساوس والاحلام وليس في ذلك شيء مضبوط. أما التفسير الذي اعتمد عليه علماء الشريعة لتبيان النصوص، هو توضيح النص بمعنى يحتمله ويقوم على قواعد لغوية وشرعية أما التأويل

ويقول أبو العلا العفيفي "وترجع المقابلة بين الشريعة والحقيقة في أصل نشأتها إلى المقابلة بين ظاهر الشرع وباطنه، ولم يكن المسلمون في أول عهدهم بالإسلام ليقروا هذه التفرقة أو يفكروا فيها، ولكنها بدأت بالشيعة الذين قالوا ان لكل شيء ظاهر وباطن وأن القرآن "ظاهرا وباطنا... وينكشف الباطن للخواص من عباد الله الذين اختصهم بهذا الفضل وكشف لهم عن أسرار القرآن، ولهذا كانت لهم طريقتهم الخاصة في تأويل القرآن وتفسيره..." [2]

[1]-كما أكد ذلك أبو حامد الغزالي في فلسفته في الإرادة، ينظر أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، ج1، ص150

[2]-أبو العلاء عفيفي، **التصوف والثورة الروحية في الاسلام**، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت، ص 63

2- **الكشف**: وهو بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه العارف كأنه رأي العين [1] وقد اعتمد عليه المتصوفة بدلا من الدليل الشرعي الذي اعتمد عليه علماء الشريعة، مما فتح الباب أمام تقبل الصوفية للأحاديث الموضوعة واستشهادهم بها.

ترجع محاولة التوحيد بين الشريعة والطريق في أساسها إلى الصراع التاريخي الذي قام بين الفقهاء والمتصوفة، نتيجة لسوء فهم بين الفريقين، حيث ألصق الفقهاء في أغلبهم تهمة افساد عقيدة المسلمين بالصوفية، وذلك بإدخالهم كثيرا من الأفكار والطقوس المجانية لروح الإسلام أُخذت من ثقافات أخرى وفي مقابل هذا ارتكز الصوفية في دفاعهم عن أنفسهم ومنطلقا تهم على القول بوجود حياة باطنة لم يكن للفقهاء أن يفهمونها.

وقد كان لبعض الصوفية موقفا توفيقيا وضحّوُا من خلاله الغاية المشتركة بين الفقه والتصوف، فالأول يهدف إلى اصلاح القلب عن طريق معرفة الله الصادقة والثاني يتوخى اصلاح العمل عن طريق المعرفة بالأحكام الشرعية؛ والعلمان معا موصلان إلى الله وبينهما تكامل ومن هؤلاء الصوفية أحمد زروق حيث يقول " اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه... إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجه إلى الله... ثم الفقه والأصول شرط فيه والمشروط لا يصح دون شرط، والشرط أن يكون بما يرجاه الحق؛ فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الظاهرة إلا منه ولا فقه بلا تصوف، إذ لا حقيقة إلا بالعمل ولا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بالإيمان إذ لا يصحان دونه، فهو بمنزلة الروح وهما بمنزلة الحسد، لا ظهور له إلا فيهما ولا كمال لهما إلا به وهو مقام الاحسان [2] كما يؤكد أحمد زروق في كتابه أنّ الفقه أعم من التصوف الموضوع لأن التصوف يبحث عن علاقة الفرد بربه، أما الفقه فإنه يتناول صلة المخلوق بالخالق في ميدان العبادات، وعلاقة المخلوق ببني جنسه في المعاملات، ونظرا لاتساع الفقه ومجاله فقد صح للفقيه أن ينكر عن الصوفي سلوكه بينما لا يصح أن ينكر على الفقيه بحكم أن مجاله أخص وميدانه أضيق، وعنده أنّ الفقيه الذي

---

[1]-السراج الطوسي، **اللُمع**، مرجع سابق، ص 277

[2]-أحمد زروق، **قواعد التصوف**، تحقيق محمد زهري النجار، نشر مكتبة كليات الأزهرية، القاهرة، ط3، 1409 هـ/ 1989م) ص 4.

يتحول إلى صوفي خير من الصوفي الذي تعلم الفقه[1]... ولذلك قيل كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها، وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم، لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقا، بخلاف فقيه الصوفية، إنه لمتمكن من عمله وحاله، ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح ولا يصح له أحدهما دون الآخر، كالطب الذي لا يكفي علم عن التجربة [(2)] فالمعرفة الصوفية لا توهب بل تطلب ولا بد لسالكها أن يجتهد في تحصيلها وذلك بالعمل بما يعلم الانسان، وباللجوء إلى الله طالبا الفتح منه وفي هذا يقول الجنيد: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال، وانما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال وقال أبو سليمان الداراني: إذا اعتقدت النفوس ترك الآثام حالت في الملكوت، ورجعت إلى صاحبها بطرائق الحكمة من غير أن يؤدي إليها علما [(3)]، فالمعرفة الصوفية تشبه إلى حد كبير المعرفة الفلسفية التي لا تعتمد على المحفوظات بقدر ما تعتمد على إحالة الفكر في الظواهر المراد دراستها

المطلب الرابع: المقامات والأحوال وآثارها على السلوك

يتصور المتصوفة على اختلافهم طريقا إلى السلوك يبدأ بمجاهدة النفس[4] أخلاقيا ويندرج السالك له غبر مراحل متعددة تسمى عندهم بالمقامات والأحوال، وينتهي من مقاماته وأحواله إلى المعرفة بالله، وهي نهاية الطريق.

فالمقام هو الإقامة، كالمدخل ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إيّاه لذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة[5] في اصطلاح أهل السلوك "هي مجموعة من الخصال السلوكية تحمل من قامت به على التزام العبودية في أعلى صورها ولكل منها علم وحال وفعل "[(6)] ويتضح من التعريف أن الوصول إلى درجة العبودية الخالصة يجعلا صاحبه متوازن الشخصية

---

[1]-أحمد زروق، **قواعد التصوف**، مرجع سابق، ص6

[2]-المرجع نفسه، ص 15-16

[3]-مرجع سابق، ص 14

[4]-المجاهدة هي حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال والسالك هو الذي سار على المقامات بحال لا يعلمه ، زكي مبارك، **التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق**، المرجع السابق، ص 55

[5]-أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، **مدخل إلى التصوف الاسلامي**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1979، ص 38

[6]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، المرجع اليابق، ج4، ص 3

والسلوك، فيكون بذلك ربانيا في عقيدته وأخلاقه ومعاملاته وأما مصطلحات العلم والحال والفعل الواردة في التعريف فتمثل:

- العلم: يمثله إدراك خطورة المعاصي التي اقترفها
- الحال: يمثله الندم والتألم
- الفعل: يتمثل في الإقلاع الفوري عن المعصية

ومقام التوبة مثلا مقام سلوكي له هذه المراتب الثلاث، وثمرة التحلي بسلوك بمقام التوبة هي حصول الفعل والحال والاقبال على الطاعة.

أما الحال فهو معنى يرد على القلب من غير تعمّد واجتلاب ولا اكتساب ومن طرب أو حزن، أو بسط أو فيض، أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج [1].

وقد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك فتراءى للبعض الشيء حالا وللبعض الآخر مقاما، وكلا الرؤيتين صحيحة لوجود التداخل بينهما، إلا أن الصوفية فرقوا بين المقام والحال تفرقة دقيقة، فالمقام عندهم يتصف بالثبوت أما الحال فهو زائل، والمقام يحصل للسالك بكسبه وإرادته، وبالجهد وصاحب المقام ممكن في مقامه، أما الحال وارد عليه دون تعمّد منه، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب؛ والأحوال تأتي من غير جهد وصاحب الحال مترف عن حاله[2]، كما قد يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاماً. ومن أمثلة المقامات عند الصوفية: التوبة، الزهد، الورع، الفقر والصبر والرضا والتوكل وما إلى ذلك. ومن أمثلة الأحوال عند المتصوفة القرب، المحبة، الخوف، الرجاء والشوق وغيرها.

ولعل درس المقامات والأحوال عند الصوفية يصور لنا فهمهم للحياة الخلقية وهم يرون الانسان بين حالتين: الأول المجاهدة والثاني الفيض، فالشخصية الخلقية لا تنفك تجاهد الأهواء والشهوات توجه القلب إلى النغمات الروحية، وبالتالي يظهر أثر التصوف في هذه الناحية عظيماً جداً

[1]-القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص 57

[2]-أبو الوفاء التفاتزاني، المرجع السابق، ص 39

في الأخلاق حيث يحاسب الصوفي نفسه في كل لحظة؛ الأمر الذي يزكي نفسه متلمساً الفيض أيضاً في كل لحظة، وهذان الأمران يصرفان النفس عن التوجه لما يجد في علم المحسوسات والمعقولات لكن عند الاعتدال فيهما يبعث في المرء قوة خلقية تدفعه إلى صالح الأعمال. أما التفريط فيها يؤدي بالصوفي إلى الوسواس، غير أن عقل العصر الحاضر لا يفهم هذه الوسوسة الروحية، لأنه اندفع في التيارات الواقعية، فلم يعد يدرك ما في الوسوسة من صدق واجلال وأغرب الظن أن القلق في عالم العيش هو الذي ضيق الخناق على المعاني الروحية، إلا أن التصوف لا ينمو إلا في البيئات التي خفت أثقالها في عالم العيش، واستطاعت أن تغمض العيون ولو لحظات لتدرك ما يجري في دنيا الوجدان.

أ-المقامات

اعتنى العلماء منذ القديم ببيان أهم المبادئ التي تقوم عليها التربية الروحية، وشرحوا معاني الخصال السلوكية التي يجب على الانسان التحلي بها حتى يصل إلى تحقيق العبادة الخالصة لله، ومن هذه الخصال ما يعرف عند الصوفية بمقامات اليقين التي من أهمها الصبر، التوكل، التوبة، حيث إذا تحققت هذه الفضائل ارتقى إلى درجة الربانية ونال ﷻ المطلق وتحققت له سعادة الدارين وكان ابتداء هذا البناء بالعقيدة التي تكسب الانسان حسن التصور تجاه الوجود ورب الوجود، وجاء الفقه ليبين للإنسان كيف يعبد الله ثم جاء علم السلوك أو التصوف الذي يوصل إلى ثمرة العلمين (باب الإحسان) ذلك أن المعارف النظرية لا تؤتي أكلها إلا إذا أثمرت سلوكا يرتقي بالإنسان في مدارج الحياة الروحية ليصل به إلى درجة الربانية وبذلك تتحقق العبودية الخالصة لله.

ولقد اهتم علماء التصوف بتأصيل مادته ومباحثه وبيان مصطلحاته منذ القديم، كما بينوا آثار مختلف المقامات السلوكية في تزكية النفس الواردة في قوله **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [1].

وهي :

-**التوبة:** التوبة أصل كل مقام وقوامه، ومفتاح كل حال فهي عند الصوفية بمثابة الأرض

[1]-سورة الشمس، الآية 7

للنساء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام [1] وجاء قوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [2] **وقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [3] فقد سئل الجنيد بن محمد عن التوبة قال: هي نسيان ذنبك وسئل سهل عن التوبة فقال: هو أن لا تنسى ذنبك.

والتوبة عند الصوفية تتعلق بعشر خصال هي: (ان لا يعصي الله. ان لا يصر إذا ابتلي بمعصية. التوبة إلى الله تعالى. الندم على ما فرط منه. عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت. خوف العقوبة. رجاء المغفرة. الاعتراف بالذنب. اعتقاد أن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل منه.المتابعة بالعمل الصالح تقدم من السيئات) [4]

وقد علق زكي مبارك على هذه الخصال بقوله: "هذه الخصال تشهد بأن الصوفية يرون أن المرء مجرد من الحول والقوة فهو يذنب بقدر ويتوب بقدر، ومن واجبه أن يؤمن بأنّ الله كتب عليه الذنب، وأنّ ذلك من الله عدل ومن واجبه أن يخاف العقوبة ويرجو المغفرة، وأن ينوي الاستقامة على الطاعة إلى الموت [5] والتوبة عند الصوفية لا تقف عند التوبة من الذنب فهذه خاصة بالعوام، أما هم فيدعون إلى التوبة من الغفلة. إلا أن التوبة في حقيقتها ثلاثة عناصر هي:

العنصر المعرفي (العلم) العنصر الوجداني (الندم) العنصر العملي (الإقلاع عن الذنب)، ومن خصائص النبوة التوبة النصوح والصادقة التي يبدل الله بها السيئات حسنات، مصداقا لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [6]

---

[1]-الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ص 118

[2]-سورة النور، الآية 31

[3]-سورة البقرة، الآية 222

[4]-زكي مبارك، **التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق**، مرجع سابق، ص 374

[5]-المرجع نفسه، ص 375

[6]-سورة الفرقان، الآية 70.

الورع: يعد الورع من المقامات الشريفة، فمن الصوفية من يتورع عن الشبهات ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويُحاكِ في صدره وهذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب، وهناك ورع العارفين والواجدين وهم الذين يرون أنّ كل ما يشغلك عن الله فهو مشئوم عليك [1] وسئل الشبلي عن الورع فقال: الورع أن تتورع وأن لا يتشبث قلبك عن الله طرفة عين، وسئل الخواص عن الورع فقال: "أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضي وأن يكون اهتمامه بما يرضي الله"، ولعل أحسن ما قيل في الورع قول أبي سعيد الخراز: "الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق ومن مثاقيل الذر حتى لا يكون لأحدهم في قلبه مظلمة ولا دعوى ولا طلبة، وهذا رأي سديد فنحن في الأغلب ننسى حقوق الناس وهي كثيرة جداً، ليصل بعضها بالسلوك، بعضها بالمعاش ولا يستطيع تحقيق الورع على هذا الوجه إلا الأقلون [2]

الزهد:

في الاصطلاح الزهد هو بغض الدنيا والاعراض عنها وهو ترك محبوب إلى ما هو أحب منه [3] وقد رغّب القرآن في الدنيا لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ قُلۡ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ﴾ [4]، وقوله ﷺ: " وازهد في الدنيا يحبك الله " [5] وفي فضل الزهد قوله **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ ﴾ [6]

ويعد الزهد من أهم المقامات في التصوف، وهو أساس الأحوال الرضية، والمراتب السنّية وهو أول قدم القاصدين إلى الله عزّ وجّل والمتوكلين عليه... فحب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في

---

[1]-أبو سراج الطوسي، **اللُّمع**، مرجع سابق، ص 42

[2]-زكي مبارك، المرجع نفسه، ص 383

[3]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق، ص 217

[4]-سورة آل عمران، الآية 185

[5]-رواه ابن ماجه في السنن. 225/5، رقم الحديث: 4102. والطبراني في المعجم الكبير، 193/6، رقم الحديث: 5972. سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

[6]-سورة طه، الآية 131

الدنيا رأس كل خير وطاعة [1] وقد سئل الجنيد عن الزهد قال:" الزهد خلو الأبدي من الأملاك والقلوب من التتبع " [2] وسئل الشبلي عن الزهد فقال: لا زهد في الحقيقة، لأنه إمّا أن يزهد فيما ليس له، فليس ذلك يزهد، أو يزهد فيما هو له، فكيف يزهد فيه وهو معه عنده إلا طلق النفس... وقال بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم. أما الغزالي فرأيه في الزهد بقوله: " وعندي أن الزهد في الزهد غير هذا، وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد لأن الزاهد اختار الزهد وأراده وإرادته تستند إلى علمه، وعلم قاصر، فإذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده..." [3]

فالزهاد عند الصوفية على ثلاثة طبقات فمنهم المبتدئون الذين خلت أيديهم من أملاك وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم ومنهم المحققون في الزهد وهم الذين تركوا حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، وإنما كان هذا الزهد للمتحققين لأنّ الزهد في الدنيا حظ للنفس، هو الثناء والمحمدة، واتخاذ الجاه عند الناس، فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده، أما الفرقة الثالثة فهي التي تزهد في الزهد[4] ومثلها قول الشبلي: " الزهد غفلة لأنّ الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة.

–**الصبر**: هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوة، وقد وصف الله الصابرين في أكثر من سبعين موضعا في القرآن، مضافا إليهم أكبر درجات الخيرات والجزاء، منه قوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ﴾ [5] وقوله قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [6] وقوله قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [7] وقال الرسول ﷺ:" الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله

---

[1]-ينظر الطوسي، **اللُّمع**، المرجع السابق، ص 46

[2]-أبو محمد الكلابادي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، مرجع سابق، ص 65

[3]-أبا حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق، ص 233-234

[4]-الطوسي، اللُّمع، مرجع سابق، ص 47

[5]-سورة السجدة، الآية 24

[6]-سورة النحل، الآية 96

[7]-سورة الزمر، الآية 10

والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك" [1] وبذلك كان الصبر سببا لحصول درجات الكمال، لذلك مدح الله أنبيائه فقال عن نبيّه أيُّوب عليه السلام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [2]، وقال تعالى لخاتم الأنبياء والرسل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [3]. فالصبر أشق على النفس، وأمر على الطبع ويصعب فيه الألم والكظم عند الذل والضيم، واحتمال الأذى من الخلق، وهذه من عزائم الأمور التي يضيق منها أكثر الصدور [4].

وعناية الصوفية بالصبر عنصر تمثل جانباً هاماً من تصورهم لكرائم الحلال، فالصبر في جوهره من عناصر الشجاعة في مقاومة الشدائد، والشدائد قد تكون حسية عقلية، والصبر عنصر أصيل في الحياة الخلقية يظهر فضله في كل باب من أبواب العيش، فيكون في العادات، في طلب العلم، في الطاعات في معاملة الناس...، ورياضة النفس على الصبر هي ذاتها مصادر العافية في عالم الأخلاق [5]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ [6] أما أقوال الصوفية في الصبر قال: سهل: الصبر انتظار الفرج من الله تعالى وهو أفضل الخدمة وأعلاها، وقال الطوسي عن الصبر قال: وسألت ابن سالم بالنصرة عن الصبر فقال على ثلاثة أوجه متصبر صابر وصبّار فالمتصبر من صبر في الله تعالى، فمرة يصبر على المكاره، ومرة يعجز، والصابر من يصبر في الله ولا يعجز وأما الصبّار فذلك الذي صبره في الله ولله وبالله فهذا والوقع عليه جميع البلايا ولا يعجز ولا يتغير من جهة الوجود والحق ولا من جهة الرسم والخليقة [7]

---

[1]-رواه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، 203/1 ، رقم الحديث: [223]
وأحمد في المسند: 536/37

[2]-سورة ص، الآية 44

[3]-سورة الأحقاف، الآية 35

[4]-زكي مبارك، **التصوف الاسلامي**، مرجع سابق، ص 376

[5]- المرجع نفسه، ص 377

[6]-سورة البقرة، الآية 45

[7]-الطوسي، **اللُّمع**، مرجع سابق، ص 50

-التوكل: قال الرازي: "التوكل اظهار العجز والاعتماد على غيرك وقال أبو حامد الغزالي: "يقال وكّل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه [1] وهو أيضا " عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده " وبهذا يتبين أن التوكل كسائر المقامات يشتمل على جوانب ثلاث: الجانب الادراكي والجانب الوجداني (الحال)، والجانب الإرادي (العمل) إلا أن التوكل على الله لا ينافي اتخاذ الأسباب قال القشيري "واعلم أنّ التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تُتنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أنّ التقدير من قبل الله تعالى، فإن تعسّر فبتقديره وإن اتفق فبتسييره " [2] واستدل لهذا بحديث أنس بن مالك قال: " جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله أدعها وتوكل أو أرسلها وأتوكل ؟ فقال رسول الله ﷺ: اعقلها وتوكل " [3].

بعض الصوفية أثروا تأثيراً قوياً في التاريخ الاسلامي عن طريق فهمهم وقولهم بالتوكل حتى طبعوه بطابع الاستسلام، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [4]

ومن أقوال الصوفية في التوكل قول الجنيد: حقيقة التوكل أن يكون الله تعالى كما لم يكن، فيكون الله كما لم يزل [5] وقال سهل بن عبد الله: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عزّ وجّل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير، كما يرى القشيري أنّ التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوّكل بالقلب، بعدما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله، وأن تعسّر شيء فبتقديره وان اتفق شيء فبتسييره [6] أما الغزالي فيقع له التوكل على قدر العلم بالتوكل.

---

[1]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج4، ص 259

[2]-القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ج1، ص 368

[3]-رواه الترمذي في السنن، قال عمرو بن علي: قال يحيى: «وهذا عندي حديث منكر»: «وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه» وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري، عن النبي ﷺ نحو هذا ". 35 - أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ. 668/4 ، رقم الحديث: 2517. ت: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل 510/2، رقم الحديث: 731.

[4]-سورة الطلاق، الآية 3

[5]-الكلابادي، **تعرف لمذهب أهل التصوف**، مرجع سابق، ص 71

[6]-القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص 162

-الرضا: الرضا عن الله خصلة تتحقق باجتماع مجموعة من الخصال فهو ثمرة للتوكل والمحبة معاً، وحاصله عدم اعتراض الانسان على حكم الله وقضائه وذهب الغزالي إلا أنّ حقيقة غامضة على كثير من الناس حيث قال: " اعلم أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين " [1] وقد مدح الله المتصفين حيث **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ﴿٨﴾﴾ [2] ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [3]. كما عرف الجنيد الرضا على أنه ترك الاختيار، وقال الحارث المحاسبي: "الرضا يكون القلب تحت جريان الحكم "وقد فسر أبو حامد الغزالي كيفية حدوث الرضا فقال: يحصل لانشراح القلب وانفتاحه، وانشراح القلب من نور اليقين [4] **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [5]

فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر، وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والضجر لأنّ اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب الرضا عن المحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره فيفنى في لذة اختيار المحبوب عن اختيار نفسه كما قيل وكل ما يفعل المحبوب محبوب [6] وأهل الرضا عند الصوفية على ثلاثة أحوال: منهم من يعمل في اسقاط الجزع بحيث يستوي عنده ما يجري عليه في حكم الله، من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء، ومنهم من يذهب عن رؤية رضائه عن الله برؤية رضا الله عنه فلا يثبت لنفسه قدم في الرضا، وإذا استوى عند الشدة والرخاء والمنع والعطاء، ومنهم من يتجاوز هذا ويذهب عن رؤية رضى الله ورضاه عن الله كما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا.

-الفقر: الفقراء عند الصوفية ثلاث طبقات:

- منهم من لا يملك شيئا ولا يطلبه بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً، ولا ينتظر من أحد شيئاً،

---

[1]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج4، ص 343

[2]-سورة البيّنة، الآية 8

[3]-سورة الرحمن، الآية 60

[4]-القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص 163-164

[5]-سورة الزمر، الآية 32

[6]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، المرجع السابق، ص 293

وإذا أعطى شيئاً لم يأخذ وهذا مقام المقربين، ومنهم من لا يملك شيئا ولا يسأل أحدا ولا يطلب ولا يعرض وإن أعطى شيئاً من غير مسألة أخذ، ومنهم من لا يملك شيئاً، وإذا احتاج ابسط إلى بعض اخوانه ممن يعلم أنّه يفرح بانبساطه إليه [1].

- قال أبو محمد الجريري عن الفقر: "الفقر أن تطلب المعدوم حتى لا تفقد الموجود، بمعنى ألا تطلب الأرزاق إلاّ عند خوف العجز عن القيام بالفرض [2]، وقد وُصف الفقر أيضاً: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين وجلباب الصالحين، وتاج المتقين وزين المؤمنين غيمة العارفين ومنية المريدين... [3]

الأحوال:

–القرب: سئل سري السقطي عن القرب فقال: هو الطاعة، وقال بعض الصوفية القرب أن يتدلل عليه ويتذلل له لقوله تعالى **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [4]. **وقوله أيضا** ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [5]. كما سئل غيره عن القرب فقال: هو أن تشاهد أفعاله به معناه أن ترى صنائعه ومكنه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك [6]، وكان الصوفية يستشهدون عادة في قولهم بقرب الله من العالم **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [7] **وقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [8] وأول رتبة في القرب هي القرب من طاعته، والالتزام في جميع الأوقات بعبادته.

–المحبة: قال الجنيد المحبة ميل القلوب معناه أن يميل قلبه إلى الله ومن غير تكلف والاقتراب من

---

[1]-ينظر: زكي مبارك، **التصوف الاسلامي**، مرجع سابق، ص 38

[2]-ينظر: المرجع نفسه، ص 60-67

[3]-الطوسي، **اللُّمع**، مرجع سابق، ص 48

[4]-سورة العلق، الآية 19

[5]-سورة ق، الآية 16

[6]-زكي مبارك، **تعرف لمذهب أهل التصوف**، المرجع السابق، ص 76

[7]-سورة الحديد، الآية 4

[8]-سورة البقرة، الآية 115

الله يتم عبر الحب المتبادل، الذي يذهب الصوفية إلى أنه المتصوف في قوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [1]

والمحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك حبه فيه حقيقة فإنّ الحب حبّان: حب عام وحب خاص، فالحب العام بامتثال الأمر وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء، وهذا مخرجه من الصفات، وقد ذكر جمع من الصوفية الحب في المقامات، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل، وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالقة الروح، وهو الحب الذي فيه سكرات، فهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه إياه وهذا الحب يكون من الأحوال، لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل [2].

والمحبون عند الصوفية على ثلاثة أحوال: فالحال الأول محبة العامة ويتولد ذلك من احسان الله تعالى إليهم وشرط الحال هنا صفاء الود مع دوام الذكر، ومراقفة القلوب لله وبذل المجهود والحال الثاني يتولد في نظر القلب إلى جلال الله وعظمته وعلمه وقدرته وهو حب الصادقين وشرطه هتك الأستار وكشف الأسرار ومحو الارادات، وأما الحال الثالث فهو محبة الصديقين والعارفين وهي تتولد من نظرهم ومعرفتهم لقديم حب الله تعالى بلا علّة فيحبونه كذلك بلا علّة [3].

كما يذهب الصوفية إلى أنّ المحبة الخالصة لله هي نفسها العشق الالهي ووصفوا حالة العاشق ومرتبته بقولهم: " إنّ الجوهر الالهي في الإنسان، إذا صفا من كثرة المادة اشتاق الى شبهه، ورأي بعين عقله الخير الأول المحض الأول فأسرع إليه، وحينئذ يفيض إليه نور ذلك الخير فيتحد به ويشعر بلذة لا تشابهها لذة، فهذه المرتبة هي أعلى مراتب الوصول، ولا تقبل الزيادة أو النقصان، فيها يذكر العارف معروفة والعاشق معشوقة، بل عشق واحد مطلق هو الذات الحق... [4] وتعتبر رابعة العدوية هي رائدة العشق الالهي عند الصوفية المسلمين حيث تقول:

---

[1]-سورة المائدة، الآية 54

[2]-القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص 257-258

[3]-سميح عاطف الزين، **الصوفية في نظر الاسلام**، دراسة وتحليل، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص 211

[4]-المرجع نفسه، ص 255-258

أحبك حبين، حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلني بذكرك عمن سواك

فعندما تطور الحب في قلب رابعة العدوية بات عشقا لذات الله وقد أخبرت عن نفسها أنها ترى الله وأنها تجتمع بالحضرة الالهية... أي ذلك الحب هو الذي يجعل الحجب تنكشف لها وعندما يستوي بنظرها المغيب مع الحاضر والمجهول مع المعلوم، والخالق مع المخلوق فتحصل الرؤية ويحدث الجمع [1] ويعد الشوق من المحبة كالزهد من التوبة، إذا استقرت التوبة ظهر الزهد، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق.

-الخوف: وهو فزع القلب من مكروه يناله أو محبوب يفوته، قال أبو حامد الغزالي: هو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال والمقصود هنا خوف الله لقوله **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [2] وقوله قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3] ويقول ابن القيم الجوزية عن الخوف: " وهذا إنّما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله، وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ويضعف بهما" [4].

وقال أبو حامد الغزالي: "وكل ما دلّ على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف لأنّ الخوف ثمرة العلم". [5]

كما يوصي الصوفية بالخوف ويرون أنّ المحب لا يسقى كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف في قلبه وكل مؤمن بالله تعالى يخافه ولكن خوفه على قدر قربه منه، أما الخوف عند العلماء خلاف ما يعدونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للواهين، وليس من حقيقة العلم في شيء، إنما الخوف اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة، فإن

---

[1]-زكي مبارك، **التصوف الاسلامي**، مرجع سابق، ص 380

[2]-سورة البقرة، الآية 40

[3]-سورة فاطر، الآية 28

[4]-ابن القيم الجوزية، **طريق الهجرتين**، مرجع سابق، ص 287

[5]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج4، ص 160

أعطي عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سُمّي خائفاً، ولذلك كان النبي ﷺ من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم وأشدهم حباً لله لأنه قريباً منه وفي الخوف طائفتين: طائفة تخاف العذاب يظهر عليها الجزع والهلع، وطائفة يكمن خوفها في حقيقة العلم وصدق اليقين فلا تخاف ولا تجزع [1]، ويرى بعض الصوفية أن الخوف نوعان: خوف العموم وهو أن يحفظ بطنه وما وعاه القلب والفرج والبدن والرجل، فأما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع مالا يأكل ولا يبني مالا يسكن، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل وهذا هو الزهد[2] وأحسن ما قيل في الخوف قول النبي ﷺ " رأس الحكمة مخافة الله "، قال بعضهم ليس الخائف من يخاف ويسمح، لكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه [3] إلا أن تخويف المرء من ربّه له حدود، ولا ينبغي أن يصل الخوف إلى اليأس، فإن التربية التي تقوم على الخوف المطلق تربية فاسدة لأنها تطمس أصول النور في القلب وتمنع عناصر الخير من النهوض، ففي كل إنسان عواطف كافية تنتظر لحظات التيقظ والانتباه، والرياضة الصحيحة هي التي تعني بإيقاظ ما غفا من عواطف الخير والرشاد [4].

–**الرجاء:** هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، كما يصحب الرجاء الحقيقي حسن الظن بالله ولذلك جاء في حديث جابر رضي الله عنه (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله) [5].

ويعد الخوف والرجاء للإيمان كالجناحين، فلا يكون المؤمن خائفاً إلا وهو راج، ولا راجياً إلا وهو خائفاً، لأن موجب الخوف الايمان، وبالإيمان رجاء وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف، ولهذا المعنى روى عن لقمان أنّه قال لابنه " خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره، وارجه أشد من خوفك قال: فكيف أستطيع ذلك إنما لي قلب واحد، أما علمت أنّ المؤمن ذو قلبين يخاف بأحدهما

---

[1]-زكي مبارك، **التصوف الاسلامي**، مرجع سابق، ص 381

[2]-المرجع نفسه، ص 381

[3]-الكلابادي، **التعرف لمذهب الصوفية**، مرجع سابق، ص68

[4]-زكي مبارك، **التصوف الإسلامي**، المرجع السابق، ص 379

[5]-رواه مسلم في صحيحه عن: جابر، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت 2205/4، رقم الحديث: [2877].

–مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت وأحمد في المسند: 28/22، رقم الحديث: 14125.

ويرجو بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان [1].

ومن أقوال الصوفية في الرجاء أنه اسم لقوة الطمع في الشيء بمنزلة الخوف، اسم لقوة الحذر من الشيء ولذلك أقام الله الطمع مقام الرجاء في التسمية، وأقام الحذر مقام الخوف [2] **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [3] ومن علامة صحة الرجاء في العبد أن يكون الخوف باطن رجاءه، لأن من تحقق برجاء شيء خاف قوته لعظم المرجو في قلبه وشدة اغتباطه به فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فوت الرجاء، والرجاء ترويحات الخائفين، ولذلك سمّت العرب الرجاء خوفاً، لأنهما وصفات لا ينفك أحدهما عن الآخر، ومن مذهبهم إذا كان الشيء لازما لشيء أو وصفان له أو سبباً منه أن يعبروا عنه به، فقالوا: مالك لا ترجوا كذا وهم يريدون مالك لا تخاف [4] وقيل الرجاء رؤية الحلال بعين الجمال.

أثر المقامات في السلوك الفردي والجماعي:

إذا تحلى الفرد بمقامات اليقين تأهل لاستحقاق وصف الربانية وبذلك تتحقق له الفضائل الآتية:

1-على مستوى السلوك الفردي

أ-الوصول إلى السعادة الحقيقية: وهي سكينة النفس وطمأنينها وحصول راحة البال لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [5] فالإنسان المطمئن لا يعرف الضنك والهم وضيق الصدر لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم

---

[1]-زكي مبارك، **التصوف الإسلامي**، مرجع سابق، ص 379

[2]-أبو حامد الغزالي، **احياء علوم الدين**، مرجع سابق ص 237

[3]-سورة السجدة، الآية 16

[4]-الطوسي، **اللُّمع**، مرجع سابق، ص 64

[5]-سورة النمل آية 97

مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [1]

ب-الدخول في معية الله والظفر بحبه:

فقد تكفل الله عزّ وجّل لكل من انتسب إليه وصار من أوليائه بحمايته وكفايته ونصرته **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [2] وقال **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [3].

ج-تحقيق العبودية الاختيارية:

هي حالة موجبة لتخلص العبد من دواعي أهوائه حتى يكون عبداً لله اختيارا كما هو عبد له اضطراراً ولذلك شرف الله عبادا بإضافتهم إليه كقوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [4]

4-استحقاقات التمكن:

قد وعد الله عباده بالنصر والتمكين إذا أحسنوا صلتهم به عن طريق ما تحقق وما تقدم من خصال لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴿٥٥﴾ ﴾ [5] وبالتالي كل ما ذكر من الفضائل السلوكية المعبرة عن مقامات اليقين عند الصوفية هي مظاهر روحية

---

[1]-سورة طه آية 123

[2]-سورة الزمر آية 36

[3]-سورة يونس آية 62

[4]-سورة الفرقان 63

[5]-سورة النور، الآية 55

متعددة تجتمع في خاصة الربانية التي يصل بها الانسان إلى درجة الاحسان التي عبّر عنها النبي ﷺ بقوله: " الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه " [1] ذلك أنّ هذه المقامات خصال سلوكية كفيلة بتزكية الانسان وترقيته إلى درجة الربانية وتحقيق سعادته الدنيوية والاخروية، كما يحقق العبودية الخالصة للفرد والمجتمع مما يجعل ضرورة تعميم مبادئ التربية الروحية وذلك بتفعيل الدراسات فيها بشكل يسهم في إعادة التوازن الفكري والسلوكي للمجتمع وترقيته تربويا وسلوكيا فإذا تجلى الأفراد والمجتمعات بهذه الفضائل تحققت السعادة للأمة، وإذا وقع التقصير فيها يحتل توازن الأمة ويضطرب حالها.

د-الاتصاف بالأخلاق الحسنة: من صدق وأمانة وايثار وحلم وبذلك يستحق أن يكتب مع المسارعين في الخيرات الذين قال الله فيهم **قَالَ تَعَالَى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [2]. أما أثرها على السلوك الجماعي فيتلخص في :

-تجسيد معاني الأخوة بين جميع أفراد المجتمع فعن طريق تحقق الربانية في سلوك الأفراد تتجسد معاني الأخوة في علاقاتهم والتي تقرها الآية الكريمة **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [3]

-تجسيد قيم التضامن والقانون لقوله **قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [4]

-الجد في العمل وترك التواكل والكسل: وذلك بإدراك المعنى الإيجابي للتوكل والتحلي بروح الإخلاص والتفاني.

---

[1]-روى البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة 19/1، رقم الحديث: 50.الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ،الطبعة: الأولى، 1422هـ.

[2]-سورة المؤمنون آية 61

[3]-سورة الحجرات، الآية 10

[4]-سورة المائدة، الآية 2

المبحث الثالث: التصوف عند محمد الغزالي بين الذوق والنقد

يمثل التصوف في نظر كثير من الباحثين صفحة رائعة تتجلى فيها روحانية الإسلام وتفسيره العميق للدين بما يشبع العاطفة ويُغذي الوجدان في مقابل التفسير العقلي الجاف الذي وضعه بعض المتكلمين والفلاسفة، والتفسير الصوري الذي وضعه بعض الفقهاء وليس كلّه، فكان التصوف بذلك تغييراً في المحور والأساس يتجاوز المظهر إلى المخبر ملتمساً حقيقة الإسلام الجوهرية، أبا حامد الغزالي مثلا فقيه فيلسوف متصوف خلعت صوفيته على الفقه والعبادات روحاً كبيرة ومن هنا قيل عنه خطأ أنّه "باع الفقه بالتصوف" كما أنه في فلسفته الاستواء بين الظاهر والباطن "يؤكد أنّه لا انقسام بين الشريعة والحقيقة، بل كان الفصل في البحث فقط في علوم الشريعة والحقيقة"[1] وبالتالي لا يصح لباحث في دين من الأديان أن يقول الكلمة الفاصلة فيه معتمدا على أصوله ونصوصه الأولى وحدها مغفلا التفسيرات والتأويلات التي وضعها كبار العلماء والمفكرين الذين أسهموا في تفسيره وتجديده ومن الموضوعية، وأيضا عند الحديث عن جهود الباحثين الإسلاميين من متكلمين وفقهاء وفلاسفة ومتصوفة أن يحكم عليهم بالكفر والزندقة أو الابتداع، وقد لا يصلح أن نسّمي هذا كاذباً وآخر صادقاً مادام قائماً على الكتاب والسنة، ولم يخرج المتأول بالنفي عن المعاني التي جرى العرف بها في اللسان العربي، فالمسألة في حقيقتها هي مسألة عمق أو ضحالة في درجة الروحانية التي تظهر في فهم الإسلام وتعاليمه، وليست القضية هنا قضية منطق بقدر ما هي قضية الانسان في كل أبعاده.

المطلب الأول: نزعته الصوفية:

يذكر الغزالي في كتاباته وحواراته أنّه لا ينتمي إلى فرقة متصوفة، إلا أنّه يُدرك منها أنّه متصوف القلب والروح، حيث من يطالع كتابه "فن الذكر والدعاء" يجد الوله الذي وصل إليه الغزالي وهو يتحدث عن الله وعن الرسول ﷺ حتى أنّه يعيش بعض مراحل التهذيب الصوفية في حبّه للعزلة حيث يذكر أنّه "أحيانا أنفر من وظيفتي الإدارية وأتمنى العزلة وأحسد من لديهم قدرة تكفيهم مؤنة الاختلاط بالخلق، فالمرء تمر به فترات يحتاج فيها إلى أن يخلو بنفسه وينأى عن الناس بجانبه ويراجع في صمت العزلة ما له وما عليه، ما أحسن وما أساء ما يفعل وما يترك، إنّ ضجيج

[1]-عفيفي أبو العلا، **التصوف الثورة الروحية في الاسلام**، مرجع سابق، 1965 س9 ع 97 ص 90-95

المجتمعات أحيانا يفقد الانسان وعيه أو يكاد" [1] كما يرى الغزالي أنّ المسلم محتاج إلى مراجعة ذكر الله تعالى تجديدا أو توكيداً مدركاً أن الذكر قد يكون جهاز الصيانة يُصلح ما تعطل ويجدد ما بلى حتى لا تتعطل الوظيفة الأصلية ويفقد ما لدينا قيمته [2]، وكلام الغزالي عن الذكر يشبه كلام أصحاب المقامات عندما يقول: "الذكر الحقيقي ليس شقشقة لسان وليس عمل الفم وهو يمضغ الكلام إنّما الذكر الحقيقي في نظره : قلب ينبض بمشاعر الرغبة والرهبة ويمشي على الأرض وهو يرنو إلى السماء يخشى ربّه ويرجو منه الوقار وينتظر عنده الخير ويأمل في الدار الآخرة يوم اللقاء"[3] وبالتالي فإنّ الذكر عنده درجات وأحوال، عندما تكون لكلماته التي يُرددها لسانه صدى عميقاً لتأثر بالغ وقلب مشرق ونفس أصفى، ومن الناس من يكون كلمات ذكره دون ذلك، وبالتالي النفس الإنسانية تختلف من حال إلى حال.

المطلب الثاني: مفهوم التصوف عند الغزالي

كان التصوف من المحاور الفكرية الكبرى في المشروع الفكري للغزالي، منطلقاً في ذلك من معرفته للقرآن الذي اعتنى بالروح وتهذيب الوجدان ومراحل التربية السلوكية، فالإسلام يتطلع إلى صفاء النفس ونقاء الروح التي ترقى إلى فضاء الله الواسع وملكه الذي لا يتناهى وخلقه العجيب ووصفه البديع وكونه الساحر؛ لأن في ذلك كلّه زيادة ايمان به وخوف منه واستجابة لأوامره وهذا أقصى ما تتطلع إليه نفس خاشعة وروح صادقة وقلب أواب [4].

ويرى الغزالي أن هذا الجانب من الثقافة الإسلامية جدير بالعناية والاهتمام لأن جوانب أخرى منها استطالت على حساب غيرها "فبعض شعب الإيمان لقيت من الدراسة الحصينة ما جعلها قريبة المأخذ يسيرة العرض بل لقد حسبت الإسلام كله لطول ما توافر العلماء على خدمتها وذلك كفقه العبادات وما تضمن من طهارة وصلاة وزكاة..."[5] في حين أنّ التصوف لم يلق مثل هذه العناية

---

[1]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين القلب والعقل**، ص 167

[2]-المصدر نفسه، ص 167-168

[3]-ينظر محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين** ص 105

[4]-رمضان حميس الغريب، **محاور المشروع الفكري لدى الشيخ محمد الغزالي**، دار الحرم للتراث، ط1 2002-1423ه ص 63

[5]-محمد الغزالي، الجانب العاطفي، دار الدعوة ط1 (1414ه-1990م) ص 9

لدى جمهور العلماء، ورغم شطحات الصوفية وغلطاتهم فهم الذين أفاضوا الحديث عن جوانب النفس الإنسانية والرقي بها في مدارج الكمال حيث يقول الغزالي: "فالتصوف إذن علم احتضن كثيراً من العواطف الإسلامية الشريفة ونمت في مباحثه فنون شتّ للتربية والأخلاق ونجح رجاله في الانفراد بقيادة العامة كما استطاع فريق منهم أن ينشر الإسلام في الأقطار النائية وإذا كان قد تطرق إليه فساد كبير ونشأت عنه مناكر وهزائم شنعاء فإن غيره من علوم الدّين واللغة لم يسلم من هذا الفساد ولا نجت الأمة من الشرور الذي اعترته [1]؛ فقد يكون ما حدث من انفصال بين روحانية الصوفية وعلم الفقهاء هو الذي جعل المتصوفة يجنحون أحيانا إلى الجنون وجعل الفقهاء أحيانا يمثلون القانون العاتي الأصم [2] وظلّ الانفصام يزداد شيئاً فشيئاً حتى ظهر فقه لا روح فيه وفقهاء لهم سمت الدين وليس لهم قلبه الحاني الطيب، وتصوف لا دراية له ومتصوفون تحفل سيرتهم بالخرافات والبدع [3]، فالغزالي بهذا قد أنصف المتصوفة، وهو يرى أنّ في التصوف ما هو مقبول وما هو مرفوض، وأنّه عند تأمّله للتراث الصوفي وجد أنّه يشبه منجماً مليئاً بنفائس كثيرة وبتراب كثير، وأنّ الذي يدخل هذا المنجم قد يكون ساذجاً لا يخرج إلا (بقفف) من التراث وقد يكون ذكياً فيستطيع أن يستخرج النفائس وينتفع بها [4] وبالتالي هناك جانب خصب من جوانب تراثنا الثقافي وزاوية مضيئة من زواياه وهو التصوف الذي قال عنه ابن خلدون: "ونشرت به الإسلام جنوبي آسيا وشرقها وغربي افريقيا ووسطها " أي أن جماهير الأمة سارت ومشت تحت راية تصوف السلوك والأخلاق والآداب والشمائل والذكر والعبادة.

والغزالي يصف هذا النوع من التصوف بأنّه نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان وتغذى بالعلم والعمل، واستطاع أن يكون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله والحس الدقيق بوجوده وشهوده وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة وإن كانت افعالهم تكره فيما يرى الناس [5] فهذا التصوف بناء مثمر لنهضة الأمة وربطها بالله يحوّل المعرفة

---

[1]-محمد الغزالي، **الاسلام والطاقات المعطلة**، ص 28

[2]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين القلب والعقل**، ص105

[3]-محمد الغزالي، **خطب الشيخ الغزالي**، ج2، ص 139

[4]-ينظر: محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص 106-107

[5]-محمد الغزالي، **مائة سؤال**، ص24 .

المجردة إلى عاطفة قلبية صادقة، تؤدي فيها التكاليف برضا وتترك المعاصي باستغناء واستعلاء [1] وفي نظره أن التصوف بإمكانه أن يحقق مبتغاه إذا عمل على أمور ثلاث هي:

1- دراسة البواعث النفسية وفرض رقابة صارمة على بواعث العمل حتى تصفو النية وتخلص لله تعالى.

2- التمرس بمقام الاحسان وطول البقاء في إطار "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ولا يتم ذلك بتألق ذهني في خلوة بعيدة وإنما يتم مع تغلب في البلاد والتعرض للشدة والرخاء والصحة والمرض والنصر والهزيمة ونحو ذلك.

3- تتبع آيات الله في الأنفس والآفاق ومدارسة الحاضر والماضي ومحاولة الارتقاء إلى مستوى القرآن والسنة [2].

كما يشير الغزالي إلى أن التصوف وإن كانت له هذه المكانة العالية في عطاءه وخصوبته، إلا أنّ له حدوداً وضوابط يقف عندها فمثلاً أنّ المؤمن يرى بنور الله، وكثيراً ما تصدق فيها فراسة المؤمن لكن هل تصل هذه الفراسة إلى مجالس القضاء وتثبت بها قضايا ويدان بها خصوم؛ كلا إنّها حجة قاصرة لا بل هي حديث نفس نخطئ ونصيب ومهما بلغت قوتها فلن تعدو ورع صاحبها [3] لذلك لا ينبغي لها أن تستدعي ضوابطها حتى لا تكون حرقاً لنواميس الكون واستهانة بقوانين الحياة.

كما يذكر الغزالي أنّه استفاد استفادة عظيمة من ابن عطاء السكندري، حيث شرح جملة من حكمه في كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام" وينوه بها في مواطن كثيرة كقوله "إذا كان سعد زغلول قد وصف أدب "الرافعي" بأنّه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم فإنّي مع إبحاري للرافعي وأدبه أرى أنّ كلمة سعد أصدق ما تكون في حكم ابن عطاء السكندري[4]..." فالمهم عند الغزالي أن تتوقد روحانية الانسان من خلال كيانه المادي وتشرئب عواطفه إلى السماء بدل أن يخلد إلى الأرض.

---

[1]-ينظر: محمد الغزالي، **مائة سؤال عن الاسلام**، ص27 .

[2]-المصدر نفسه، ص27

[3]-المصدر نفسه، ص 23

[4]-المصدر نفسه، ص24

ويذكر محمد الغزالي أنّه من سوء حظ الثقافة الإسلامية وجود فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ومتصوفون بعيدون عن الشريعة وضوابطها، إلا أن هناك بعض العلماء قد سلموا من هذه الآفات –حسب نظره–حيث يقول: ومن يقرأ لابن تيمية وابن القيم والغزالي وابن الجوزي والرازي وغيرهم يرى رجالا على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبصار العقلي [1] وأبا حامد الغزالي الذي أشرف على تفكير أرسطو وأفلاطون واستبان عثراته، وكشف ما اعوج منه، ومع هذا الاستعلاء العقلي فهو يتحدث عن استدامته لذكر الله، حتى إذا سكت لسانه ظل الفؤاد على حالته يلهج ويردد ولا ينقطع له صدى، كما يعود سبب تفاوت هؤلاء الاعلام في آرائهم إلى اختلاف العلل التي عالجوها، وتشخيص الأسباب التي أدت إلى ذلك، إضافة إلى اختلاف طابع البشر في الأذواق والآفاق.

المطلب الثالث: نقد الغزالي لبعض قضايا التصوف

يرى محمد الغزالي أنّ الموروث الصوفي يحتاج إلى أن نخرج منها كنوزا للناس تنفعهم، ويُزال عنه مالا ينفع، وهو يريد بذلك ترشيد هذا الجانب الخطير والمهم من تراث الأمة، فتجده ينتقد رؤية المتصوفة للدنيا ويرى أنّه لو كانت الدنيا في يد المسلم فإنّه بإمكانه أن يسخّرها لدينه، وفي هذا يقول " إذا أقبل الفقر مرحبا بشعار الصالحين وإذا أقبل الغني فقل ذنب عجلت عقوبته ويرى أنّه بهذا التفكير المقلوب انطلق المحزبون في أرجاء العالم الإسلامي يعطلون كل همة ويدمرون كل نشطاء ويسوقون بين أيديهم مئات الأحاديث النبوية تحتفي بالفقر وتذم الغنى والأغنياء وهم لا يدرون لهذه الأحاديث معنى صحيحاً بل هم لا ينقلونها على أساس صحيح [2]، وبهذا الفهم الخاطئ خرجت الدنيا من أيدي المسلمين وأصبحوا ذيلاً في الأمم بعد أن كانوا في المقدمة، وأقبل العامة بقيادة المتصوفين على الطقوس والأوراد تاركين الدنيا وما فيها لغيرهم، وفي نظر الغزالي أن هذا الخلط الصوفي يعتبر أول صدع أصاب كيان الأمة الإسلامية، وهذه الأفكار حملت الجماهير أوزار الاستعمار الداخلي ووطدت المظالم، وخذلت النّاس عن محاربة الفقر وقتلت في دمائهم الشعور بأنّ

[1]-محمد الغزالي، **مائة سؤال عن الاسلام**، ص22

[2]-محمد الغزالي، **تأملات في الدين والحياة**، دار الهناء ، ص41

الفقر كارثة يجب أن تقضي عن المجتمع ولو بدق العنق وأن يستميتوا في رفع بلائها بأي ثمن [1] وبالتالي فإن الحق لابد له من سياج يحميه من الدنيا وامكاناتها وإلاّ فما يغني الحق الأعزل أمام الباطل المسلح بعطاءات الدنيا ؟ ولعل أبرز مآخذ الغزالي على التصوف في قضاياه تتمحور حول:

1-موقف الصوفية من قانون السببية وسنن الكون.

2-موقفهم من الدنيا

3-كثرة المبتدعات مع حماس العاطفة

4-الفصل بين الحقيقة والشريعة [2]

كما رفض الغزالي اعتناء بعض المتصوفة بخوارق العادات، وابتعادهم عن سنن الكون وقوانينه التي قامت عليها الحياة والأحياء، منبّها أن الصوفية ليسوا وحدهم الذين عملوا على توهين قانون السببية، بل اشترك فيه علماء من كل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية، إلاّ أنّ بعض الصوفية أكثر طحنا لقانون السببية، أدّى إلى انهيار الثقافة الإسلامية وهنا يشير (فإن كل رجل طبيب فيهم جعلوا خوارق العادات تحشو حياته فهو يفتح بغير مفتاح ويطير بلا جناح)، أما ما وقع من خوارق للأنبياء تقبلوها بالقبول والتصديق قد تكون منسجمة مع الكون ونواميسه على جهة لا يعلم قوانينها إلا الله بقدرته وعلمه. ويضيف الغزالي قائلا: "أما بعيداً عن جّو النبوات فالأمر أخذ ورد، وإنكار وإثبات ومع التسليم بوقوع هذه الخوارق فهي لن تشهد لأصحابها بخير، لأن نهج الخير له دليل فذ هو الايمان الحق والكرامة والتقوى وليست وقوع الأعاجيب ثم إننا مكلفين في هذا الميدان بتصديق أو تكذيب" [3] ففي نظر الغزالي أن تصديق هذه الأفعال أو تكذيبها ليس مأمورً به المسلم ومن الخطأ الفاحش أن يقول لك أحد الناس آمن بما وقع لفلان، وإلا فأنت منهم في دينك ذلك أننا نؤمن بها حدث من رب العزة ويصدق ما صح عن رسوله إن صّح الدليل على نسبته، أما ما يتناوله الناس بينهم من قصص

[1]-محمد الغزالي، **الاسلام المفتري عليه بين الشيوعيين والرأسماليين**، ص50-55

[2]-محمد الغزالي، **خطب الشيخ الغزالي**، ص142-144

[3]-المرجع نفسه، ص144.

وقعت أم لم تقع فلا علاقة لدينا رأي فيها ومزاعم الدهماء تلك القضايا لا وزن لها [1] ويذكر الغزالي أن سلف الأمة كانوا بمنأى عن هذه السقطات التي جعلت سنن الله بعيدة عنهم.

فلم يدّعي أحدٌ منهم الطلسمة فسعدت بهم الدنيا ورشدت بهم الحياة وبلغّوا أمانات الله بصدق وغرسوها في الأرض، فكانت الحضارة الإسلامية بركة على الإنسانية كلها أنّهم غرقهم هذه الأوهام عن الكون والكائنات ما فتحوا مصرا ولا هدوا قطرا ولا أعقبوا أثرا [2] ولكن الله حماهم من هذه الهنات فأنابوا في جنبات الأرض انسياب الماء العذب الذي يحمل الخير للكون وللكائنات [3]، كما أنّ الغزالي يؤاخذ على بعض المتصوفة الذين ذهلوا عن الوجود المادي، ويرى أن الانجذاب عندهم حالة مرضية لا أمارة صحة قائلا: "فإذا انضم إلى هذا الذهول ما يقال عن فناء النفس في الله وما يضيفه الخيال المعتل في مثل هذه الحالات من صور وحلول أو اتحاد، كل ذلك لا يمكن وصفه إلا بأنّه اختلال في القوى المعنوية أو ضرب من الخيال، على أنّ الرسول ﷺ أعطى الصورة الفاصلة والمثل الأعلى للإسلام في شخصه، فقد عاش حياته صورة صادقة لأمر الله ونهيه حيث أن المثال العملي الأكمل للمعرفة التامة، والاقبال العظيم على الله يؤخذ من سيرته ﷺ فأن انتباهه المشدود إلى الله تبارك وتعالى ما أوهى حسّه ولا علاقة بالخلائق" [4].

إضافة إلى أنّ الغزالي يرفض التصوف الفلسفي لأنّه في نظره تراث هندي أو يوناني مليء بالوثنية والحلول، كما يخطّئ ابن العربي في قبول هذا النوع من التصوف. حيث يرى أن التصوف الفلسفي لون من الغزو الثقافي قُصد به انشغال الأمة عن عقائدها ومناهجها وأهدافها، وأن أعداء الأمة –حسب نظره–يقصدون من اشاعته جعل أمة لا انتماء ولا وجهة لها، وهذا النوع الفلسفي من التصوف هو الذي حاربه العلماء لأنّه بعيد عن المنطق الديني وعن الضوابط الفقهية التي لابد منها لإدراك الحقائق، كما أنّ بعض المتصوفين شرعوا به ما لم يأذن الله "ووصفوه للأمم على أنّه العلاج

[1]-ينظر، محمد الغزالي، **خطب الشيخ الغزالي**، ص ، 144

[2]-محمد الغزالي، **ركائز الايمان بين القلب والعقل**، ص88

[3]-المصدر نفسه، ص 134

[4]-المصدر نفسه، ص 105

الناجح فكان السم النافع إذْ دخل به على صميم الدين فساد كبيراً" [1]. وهو يدرك تماماً الآفات التي أصابته من الفكر الدخيل وفي هذا القول موضحاً: " وقد قرأت مع غيري ونحن طلاباً، كتاب العقائد النفسية في علم التوحيد، وقرأت مع غيري كتاب ابن عجيبة الذي شرح حكم ابن عطاء الله في التصوف، وقرأت في المجالين كتابا شتى، وشعرت في آخر المطاف بأن هناك نفائس مبعثرة وسط قامات كثيرة، فقلت: حبذا لو ميزنا الخبيث من الطيب في هذا الخلط الكثيف... إننا بحاجة إلى علم تدرس فيه طرق تحويل الحقائق الدينية النظرية إلى خلق لازم، وعمل دائم، وأسلوب في الحياة معروف الهدف، مشوق الخطوات [2].

فالتصوف في نظر الغزالي بدأ بممارسة سليمة للأخلاق القرآنية، ثم، اعترته ظروف شتى، من مفاهيم غريبة دخيلة، ونظريات تسربت من خرافات الهنود والنصارى، وفي هذا يقول: " وبعد أن طال عليه الأمد، اختلط بأحوال كثيرة، وتسللت إليه الأفكار ذاتها التي تسللت إلى النصرانية ومن الوثنية الهندية، حتى أن بعضهم آثر الإعراض عن هذا التراث كله... لكثرة ما طفح في كتب القوم من دخيل وأباطيل " [3]، لكن الغزالي أراد تنقية التصوف من الممارسات والفهوم الخاطئة التي تسللت إليه، ولا يقصد من وراء ذلك إلا العودة به إلى جوهر التعاليم الأخلاقية السامية التي دعا إليها الرسول ﷺ وطبقها، فغرسها في الجيل الأول.

فلقد صُبغ التصوف برسوم العبادات التي ليست من الإسلام، بعد دخول النصارى والمجوس والبوذيين للإسلام، فانحرف بذلك عن المسار الصحيح وهنا يقول: " إن تسرب البدع والأفكار الأجنبية في الزهد جاء مع دخول الجماهير الهائلة من النصارى والمجوس والبوذيين وغير هؤلاء وأولئك في الإسلام، واستصحابهم بعض المواريث والعادات التي قلما يتخلص أصحابها منها إلا بعد أمد يطول أو يقصر" [4]

كما استحدثت الصوفية نتاجا لها، الاعتقاد بالأولياء فرجموا هذه الأمة ودينها.

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **ركائز الايمان بين القلب والعقل**، ص 105.

[2]-محمد الغزالي، **ركائز الايمان بين القلب والعقل**، ص112

[3]-المصدر نفسه، ص 138

[4]-محمد الغزالي، **ليس من الاسلام**، ص100

لذا نجد الغزالي يحرص على تبيان الخرافات في التصوف وآثارها على أحوال الأمة، لأنها أكثر التصاقا بواقع عامة الناس. فتغليب جانب العاطفة على العقل أدى إلى الممارسة الخرافية والتي يغديها التصوف الشارد عن الضوابط الشرعية، إذ أن صدق العاطفة ليس عذراً للخلط العلمي ولا للقول في دين الله بالهوى والرأي، فإن للإسلام ينابيع معروفة تؤخذ أحكامه منها وحدها، ولا يؤذن لبشر بالتزيد عليها أو الانتقاص منها " [1].

فالاعتقاد في الخرافات –التي ليس للعقل دور فيها–أدى إلى الممارسة الخاطئة للتصوف التي انتشرت بين الصوفية خاصة والناس عامة، وكأن الإسلام يقوم على الخرافات، بيد أنه دين عقل وحق وصواب وفي هذا يقول الغزالي عنه: " هو مد خيمة الغيبيات لتشمل مساحة واسعة من عالم الشهادة، حتى كأن الدين حارس طبيعي لطلسمات والخرافات أو كأنه خصم لدور المنطق العلمي اللدود " [2].

ولعل من أخطر اختلالات التصوف، والتي سعى الغزالي لتصحيحها، وعلاجها، تلك المعاني التي نقلها الصوفية، وقد قبلت في غير الله ليعبروا بها عن وجدانياتهم كاستعمال مثلا أبيات شعرية في الغزل وفي وصف الأشياء المادية، وفي هذا فتح لأبواب التجسيد والتشبيه وحلول وإساءة الأدب مع الله الحق تعالى وغيرها: وكذلك ترويج الصوفية لعقيدة الجبر...، ونبذهم الدنيا، والترويج لثقافة الفقر وغيرها.

لذا نجد الغزالي ينتقد هذا النوع من التصوف بشدة لأنه يراه عاملا فعالا في تعطيل الإرادة البشرية، وجعل الانسان مشدودا بخيوط إلهية–كما يعتقد الصوفية–تجره إلى مصير مجهول، بعلومهم المعروفة بعلوم القلوب، ورجالها تائهون وسط أفكار وفلسفات سقيمة، أما الأتباع فالتصوف عندهم رقص تهتز به الأبدان وتموت فيه العقول والأفئدة[3]

فالفصل بين العقل والقلب في التعامل مع أحكام الإسلام، خلل منهجي في التعامل مع مصادر

[1]-ينظر: محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص20

[2]-محمد الغزالي: **ركائز الايمان بين القلب والعقل**، ص87

[3]-ينظر، المصدر نفسه، ص145

التلقي، إلى أن أصبح خللا تربويا له آثاره السيئة والمدمرة لفاعلية الإسلام، وقدرتها على صناعة الأشخاص والتاريخ والحضارات وبناء الانسان وهنا يشير الغزالي إلى خطر هذا الفصل قائلا: " إن الانفصال كان طبيعيا بين العلم والحكم، لأن أغلب الحكام قذفت بهم الوراثة، ولو كانوا من غير مؤهلات، و لم يقل أحد إن الله جعل العبقرية في ذرية معينة، ومع أن هذا الانفصال مصيبة فادحة، إلا أن المصيبة الأفدح كانت في الانفصال بين الفقه والتربية، أو بين علوم الشريعة والتصوف...، إن الانسان الكامل يقوم بقلبه وعقله جميعا، فالذكاء مع خبث الطوية شر، وسلامة الصدر مع الجهالة والغفلة شر ".

كما أشار الغزالي في كثير من المواطن إلى أن بيئة التصوف لما حرمت من الفقه، امتلأت بالأوهام والترهات وأفسدت الأمة، وبيئة الفقه-بدورها-لما حرمت صدق العلاقة بالله وقوة الثقة فيه، غلبت عليها الصنعة وطلب الدنيا.

ومن بين مآخذ الغزالي مفهوم الحقيقة والشريعة:

لغة [1]: الشريعة من شرع المترل، صار على طريق ناقد، وشرع الشيء: رفعة جدا وأعلاه وأظهره، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ [2]، أي شوارع ظاهرة على الماء كثيرة، وقال الليث: حيتان شرع، رافعة رؤوسها وهذا يعني أنّها تكون شرعاً أي سهلة المنال والاصطياد، وشرّع الذّين سنّة وبينه وشرع الطريقة، مهدّه ومدّه **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [3]

فقد مهد الله لهذا الدين كونه امتداداً لما جاء به الانبياء السابقون حتى يكون أسهل قبولا على

[1]-الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ط (1403-1983) ص55.

[2]-سورة الأعراف، الآية 163

[3]-سورة الشورى، الآية 13

النفوس قَالَ تَعَالَىٰ:﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [1]

وتفيد الشريعة اصطلاحا معنى الصراط المستقيم، وهي جملة الاستعدادات التي أودعها الله في عباده ثم ببيان الدلالة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [2]، كما اصطلح على الشريعة بالملّة لأنها طريق ينصهر فيه كل الخلق رغم اختلاف طباعهم وعاداتهم ليتوحد مسارهم ويرتقي بهم نحو درجات الكمال.

يعد مفهوم الحقيقة والشريعة في الممارسة الصوفية تمييزا بين الخاصة أصحاب الحقيقة والعامة أصحاب الشريعة، وقد كان هذا المفهوم سببا كافيا لفتح باب الخرافات، ومن المفيد أن نذكر هنا رأي الغزالي في هذه القضية حيث يقول: " إن الحقيقة... أن يتطابق الفؤاد مع اللسان عند ذكر الله وأن تتعانق الروح مع الجسد عند الانقياد لأمره، فالحقيقة هي أن يلتزم المسلم بشريعة مبنى ومعنى، وأن ينفعل بتعاملها لبا وقلبا وجسدا، وأن يرقى إلى مستواها فكرا وعاطفة سلوكا... وهذه هي الحقيقة التي تحدث عنها علماء التصوف ورجال التربية " [3].

فليست الحقيقة كما يعرفها ابن عجيبة في شرح عطاء الله الإسكندري حيث يقول: " الأعمال عند أهل الفن يعني فن التصوف على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة أو تقول: عمل الإسلام، وعمل الإيمان، وعمل الإحسان، أو تقول أهل البداية، وأهل الوسط وعمل أهل النهاية، والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده، أو نقول: "الشريعة لإصلاح الغائر والحقيقة لإصلاح السرائر"[4].

وهذا كلام مضطرب مدخول، في تصور محمد الغزالي يقوم على التلاعب بالألفاظ والعبث بالمفاهيم، فإن الشريعة إصلاح للظاهر والباطن معاً، وهي عبادة دينية وإحسان، فلا يغنيك أحد هذه العناصر عن الآخر، فليس في دين الله أهل شريعة، وأهل حقيقة وإلا انقسم الوحي الإلهي إلى فريق

---

[1]-سورة الحج، الآية 78

[2]-سورة التوبة، الآية 115

[3]-محمد الغزالي: **ركائز الايمان بين العقل والقلب**، ص121

[4]-المصدر نفسه، ص122-123

لهؤلاء وفريق لأولئك [1] والحقيقة أنّ هذه التعريفات لم تعد على المسلمين بالخير، بل جعلتهم يحبون حياة المسطور الذي لا يدرك الصورة كاملة صحيحة للأشياء، فكأنّ انفصاماً في شبكيته منعه من صدق الرؤية وتمام المعرفة، وتركت الحياة لأعدائهم يركضون فيها ركض الوحوش في البرّية، يترقبون خيرها ويثيرون حرثها وينتجون زرعها، والمسلمون قابعون تحت مظلة التفريق بين الشريعة والحقيقة.

لقد انبرى الامام الغزالي بنقد الصوفية أنفسهم لا سيما الذين أنكروا الشريعة وقاموا بإدخال عناصر فلسفية في التصوف، كما قسم أبو حامد الغزالي علوم التصوف إلى قسمين: علم المعاملة وهو ما وصفه في الأحياء وعلم المكاشفة الذي قال عنه: " وهذا لا رخصة في إيداعه الكتب، كما يرى أنه علم خفي، لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، ولذلك فإن أصحابه يستخدمون رموزا خاصة حيث يقول: وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشرك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم يكتشف له، ويتضح من ذلك أن منهج الغزالي في التصوف منفرد كما سبقه من مناهج شابه ما شابهه الزيغ والشطح، بل منهجه عودة بالتصوف الإسلامي الذي هو الاحسان كما جاء في حديث النبي أن تعبد الله كأنك تراه.

ويمكن أن نستخلص من مفهوم الحقيقة والشريعة عند المتصوف، فضلا طاهرا بين الإنسان وشريعته، بين باطنه وظاهره فلا نجد في هذا المفهوم صلة بين ما أمر الله الاعتقاد به، وبين ما أمر بتطبيقه، والواقع أن القرآن الكريم ينقل الإيمان من ميدان التصورات إلى ميدان الشعور الحي المأنوس بالواقع.

ولذا يرى الغزالي الحاجة الملحة في إصلاح مناهج التزكية على ضوء ما عرفته الممارسة الصحيحة في سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام وتنشئة أجيال لا يفصلون بين الإيمان والخلق، ولا بين العبادة والعمل.

التجديد والتأصيل عند محمد الغزالي

وانطلاقا مما تقدم يعتبر التجديد في الفكر الصوفي من مشمولات التجديد الديني، سيما وأن التصوف ليس نحلة يرتضيها العارف على سبيل المخالفة، بقدر ما هو من صميم الدين، ويشهد على

[1]-محمد الغزالي: **ركائز الايمان بين العقل والقلب**، ص121

ذلك القول الإمام مالك (179ه-795م) (من تصوف و لم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه و لم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق)[1]، وعلق أحمد زروق على هذا الأمر بقوله "تزندق الأول لأنه قال بالجبر الموجب لينفي الحكمة والأحكام، وتفسق الثاني لخلو عمله من التوجه عن معصية الله، ومن الإخلاص المشترك في العمل، وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق"[2]، ومن ثمة كان سلوك المتصوفة مشروطا بالتفقه في الدين، إذ لا تصوف إلا بالفقه الذي تعرف به أحكام الظاهر، ولا فقه إلا بالتصوف الذي به يتحقق صدق العمل والتوجه لله، في هذا المقتضى بات تجديد التصوف مشروطا بتصحيح اختلالات شابت التجربة الصوفية فكرا وممارسة مما كما سبق ذكره فصل الشريعة عن الحقيقة، الغلو والمغالاة في الدين، التكاسل والبطالة بدعوى الزهد، الإعراض عن طلب العلم والنهوض به، الإستغراق في الجانب الوجداني والتعصب الطائفي.

وبناءا على ذلك كان التجديد والتأصيل من مظاهر نقد محمد الغزالي للتصوف، فكما ذكر أن التصوف قد بدأ بممارسة سليمة للأخلاق القرآنية ، مؤمنا بأنّ له دوره في التربية والترقية الروحية الذي عجز عن أدائها علماء العقيدة والفقه بعد أن تحوّل علم العقيدة إلى جدل عظيم خالٍ من الأبعاد الروحية، وتحّول الفقه إلى الخوض في مسائل دون إدراك لروحها كما يقول: "بيد أنّ الانصاف يدفعني إلى القول أنّ هذا الجانب المهّم من الثقافة الإسلامية لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمسلمين، وأنّ المتصوفة برغم شطحاتهم وغلطاتهم هم الذين أخلصوا في هذا الحديث، إنّ فقهاءنا كتبوا المجلدات في غسل الأطراف، ما كان يعيبهم أن يحببوا الناس أن يتناولوا هذا الجانب، وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية، وإنّ المسلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلهية المغيبة، ما كان يعيبهم أن يحببوا الناس في الله ويرفعوهم إلى حضرته بأسلوب علمي محكم. لقد كان ذلك- والله أجلى على الإسلام من بحوثهم العميقة في الذات والصفات [3]، ولذلك لو استقرأنا تاريخ التصوف في الإسلام، فإننا نقر أنّ نشأته لا ترد فقط إلى ظاهرة الفساد الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية، وإنّما تعود –بشكل جليّ- إلى ظاهرة العقلنة المسرفة التي تجلت في علم الكلام

[1]-أحمد زروق، **قواعد التصوف**، مرجع السابق، ص15

[2]-المرجع نفسه، ص16

[3]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص94

والفلسفة على حد سواء، وفي هذا يقول الغزالي: "لقد فزع العامة إلى علوم التصوف يستكملون منها ما عزّ عليهم إدراكه في علم الكلام [1] فكان بذلك التصوف هو الملجأ الذي لجأ إليه المسلمون لاستعمال ما فقدوه في جفاف علم الكلام، الذي أرضى عقول البعض وأفقر عاطفتهم تجاه خالقهم، إلا أن قرارهم كما ذكر الغزالي –كان أشبه بالذي استجار من الرمضاء بالنار ذلك أن التصوف ميدان كثير المزالق وشطحات السائرين فيه أكثر من سدادهم، ولكن مما لا شك فيه أن هذا العلم قد انعش عاطفة الحب الإلهي، وربط قلوب الناس ربط رقيقاً ببديع السموات والأرض [2] والواقع أن علم الكلام الذي خاض معارك مجيدة في وجه خصوم الإسلام، وحفظه للعقيدة الإسلامية تماسكها وصرامتها وأصولها، قد عجز على أن يقوم بدور حيوي وفعّال في الحياة الروحية والاجتماعية للإنسان المسلم.

ولأن التصوف في نظر الغزالي هو علم يبعث الإيمان في الحياة ويزكي النفس ويعطي المعنى الأصح للوجود الإنساني، فإنه سعا إلى التجديد فيه معبرا عنه بألفاظ جاءت في كتبه مثل ـــ" **التصوف الصحيح**" وأحياناً بـــ"**التصوف الذي نريده**" معبّراً عنه بقوله "ما كان فيه (التصوف) الايمان شعوراً نفسياً وعقلاً واعياً وقلباً يتحرك، ونظراً متعمقاً إلى الوجود الصغير، ونفساً زكية، مستجمعه للفضائل وفي ذلك يرى الغزالي أن التصوف الحق الملتزم بالكتاب والسنة يمكن أن يقترب بصاحبه من مرتبة الإحسان هي مرحلة البناء الروحي الراقي للمرتبة التي سمى بها التصوف (علم الإحسان)، كما يطلق عليه (علم القلوب)، أو الجانب العاطفي وهو يقتدي بذلك في إطلاق هذه التسميات بابن تيمية، في كتابه "الفتوى الكبرى" وابن القيم في كتابه "مدارج السالكين شرح منازل السائرين" [3].ويخلص الغزالي إلى مفهوم للتصوف على أنه نزعة إنسانية عامة تلتقي فيها الطبيعة النفسية لبعض الناس مع طبيعة الايمان العميق بأي دين" [4]، فعلم التصوف يدرس أساس الحب في

---

[1]-محمد الغزالي، **عقيدة المسلم**، ص8

[2]-المصدر نفسه، ص8

[3]-عبد الحليم عويس: **الشيخ محمد الغزالي، تاريخ وجهوده**، وآرائه، المرجع السابق، ص57-58

[4]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص138

الله، وعاطفة "**الاحسان**" أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك" [1] إلاّ أنّ مستوى الاحسان الذي هو لب التصوف وهو قمة الخلق لم يأخذ حقّه من الدراسة الاهتمام عند كثير من الصوفية، وأنّ التصوف الحّق –حسب نظره- الملتزم بالكتاب والسنة، يمكن أن يرقى بصاحبه إلى مرتبة الإحسان، وهي مرتبة البناء الروحي والتي سمى بها التصوف بـــ **(علم الإحسان)** [2] وعليه فإذا أردنا إحياء وتجديد التصوف فليس بالطريقة التي هو عليها الآن –كما يرى الغزالي- بل يكون عن طريق أناس يحبون التصوف ويقدمونه عن الكلام الموجود في بعض الكتب الآن، والإسلام بريء منها، بل يجب أن تغربل في ضوء الكتاب والسنة، ذلك أن البدع والشوائب التي اعترت التصوف تسببت للمسلمين في كوارث في تاريخهم بتشويههم صورة الإسلام، وصرفهم إلى الالحاد والانحراف المادي، وبناءً على ذلك فإنّه يدعو إلى التشبع بالزاد الروحي والوجداني الموجود في تراثنا الثقافي وهو محدد تحديداً حسناً في كتاب ابن تيمية وابن القيم وأبي حامد الغزالي: "ففي التصوف زهور كثيرة يمكن أن تجمع وتفيد في علوم التربية والنفس والأخلاق فرفض التصوف كله مرفوض كما أنّ قبوله بما يحتشد به من أعشاب ضارة وأشواك دامية مرفوض أيضاً" [3] كما يقول في موطن آخر أنّ التصوف سواء كان الكلمة عربية أو مترجمة، يعني حقائق أخرى جديرة بالدرس والتمحيص، والتراث الصوفي يتضمّن أحياناً قضايا في ذروة الشرف والسناء، كما يتضمن أحيانا أخرى شطحات لا وزن لها بل ينبغي طرحها والنأي عنها [4].

اعتبر محمد الغزالي التصوف منجماً مليئاً بالأتربة، وهو بحاجة إلى خبير محترم يدخل فيه ليخرج بالنفائس منه، كما يرى أنّ الأمة الإسلامية لم تحسن الانتفاع من كنوز التصوف التي بين يديها، ونذكر على سبيل المثال رأي الغزالي في "حكم ابن عطاء الله السكندري" التي طالما استعادها في كتابات كثيرة له سواء ركائز الايمان بين العقل والقلب"، أو الجانب العاطفي في الإسلام أو "جدد حياتك" أو غيرها، إذ اعتبر الغزالي أن حكم ابن عطاء الله هي أولى المؤلفات بكلمة سعد زغلول:

---

[1]-**سبق تخريجه**، ص85.

[2]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص139

[3]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص12

[4]-محمد الغزالي، **مائة سؤال عن الإسلام** ، ص20

"كأنها تنزيل من التنزيل أو قبة من نور الذكر الحكيم" [1] لأنه وجد في ابن عطاء الله رجلا خبيراً بالله خبيراً بالطريق إليه وخبيراً بالنفس البشرية وعللها، راغباً في أن يربطك بربّك "اجتهادك فيما لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك" هذه فكر نظرات رجل عميق الفكرة، فاهم للإسلام {أليس الله كافٍ عبده} أيمكن أن يمضي قرار دون أن يعلمه الله ؟ مستحيل، فهو يريد طمأنة الناس حتى يمشوا في طريق طلب الرزق برفق غير مسعورين ولكنّه في الوقت نفسه، يصوغ هذا صياغة أدبية رائعة، وعارف بطبيعة البشر" [2] ورغم نقد الغزالي التصوف في عصره لم نسمع عن نظرية الإسلام على أيدي المتصوفة في مصر وغيرها من الأمصار التي وصلت إلى ما يمكن أن نطلق عليه "فوبيا التصوف" أو غير ذلك من التي نقرأها اليوم فيما نطالعه من مقالات وكتابات، وذلك باعتمادهم على أفعال بعض المنتسبين إلى التصوف سلوكاً أو معرفة، ومن الطبيعي أن يرى المخاصم للتصوف في مثل هذا السلوك فرصة مناسبة لتنزيل ما يحلو له من أوصاف على التصوف والسالكين والمهتمين بالمعرفة الصوفية، فضلا عن تسطيع المعارف وسوء التناول بهذا الشكل.

المطلب الرابع: صلة التزكية بالتصوف عند محمد الغزالي

يفضل الغزالي مصطلح التزكية بديلا للتصوف الذي يرى أنه: "نزعة إنسانية عامة تلتقي فيها الطبيعة النفسية لبعض الناس مع طبيعة الإيمان العميق بأي دين "حيث يقول: "عندما انسلخ التصوف عن الفقه، ظهر فقهاء قلوبهم في منتهى القصوى كأنهم جماد، بينما ظهر متصوفة ذوو قلوب رفيعة ولا عقل لهم، لكننا نريد العقل والقلب معا" [3]، وأنظر إلى سيدنا موسى عندما قال له ربه: لماذا جئت مسرعا وتركت قومك، رغم أني قلت لك أن تأتي معا... فلماذا جئت بمفردك؟ فيقول له **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿*وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾ [4] فيقول سيدنا موسى: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [5] فهنا عاطفة تعبر عن القرب إلى الله وعن

---

[1]-محمد عمارة، **الشيخ محمد الغزالي موقع الفكري والمعارك الفكرية**، ص25/24

[2]-المصدر نفسه، ص 25

[3]-المصدر نفسه ص 138

[4]-سورة طه آية 83

[5]-سورة طه آية 84

مفهوم التصرف. كما يرى محمد الغزالي أن عاطفة رسول الله ﷺ ممتدة، فكان ذا عاطفة جياشة لأنه ذاق حلاوة الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا، حيث حول الإيمان من حقيقة منطقية عقلية إلى شيء جميل ولين وعظيم فتحقق الكمال في التقاء العقل بالوجدان.

وهنا تبرز أهمية قلب المسلم فيما ذكره القرآن الكريم **قَالَ تَعَالَى:** ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [1]، ما تبرز أهمية العقل السليم فيما قاله أهل جهنم في قوله **قَالَ تَعَالَى:**﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [2]. ومن هنا يبدو ضروريا تميز المنهج الإسلامي بالجمع الوثيق بين العقل والقلب [3]، وفق ضوابط شرعية تحقق التكامل. وفي هذا الصدد يقول محمد الغزالي "فنحن في حاجة إلى حب الله-بيقين-لكن هذا (الحب) يجب أن تحكمه الضوابط العبادية، والشرعية ولا يكون مجرد عاطفة هائجة بعيدة عن الشريعة التي حددها الله طريقا لحبه ورضاه ورحمته [4]. ففي نظره أن علم التصوف يدرس أساس الحب في الله وعاطفة الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، إلا أن مستوى الإحسان الذي هو لب التصوف وهو قمة الخلق الحسن، لم يأخذ حقه من الدراسة والاهتمام عند كثير من الصوفية، كما يوضح حقيقة التصوف إذ يقول: "ما كان عليه نصوف فلسفي، ومن أمثاله محي الدين بن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض والحلاج"، وتصوف أخلاقي أو عبادي مثل الشاذلية، والقادرية، وهؤلاء أناس طيبون، ولكنهم ليسوا على مستوى تصوفهم وربما لا يلتزم كثير منهم بحدود الكتاب والسنة، أما التصوف الفلسفي ففيه أكاذيب [5] وقد يؤخذ من كلامه ويرد.

محمد الغزالي والنزعة النقدية:

يذكر محمد الغزالي أن الإسلام يتشعب إلى شعبتين إحداها تمس القلب تنشئ فيه مشاعر الرغبة والرهبة والصبر والشكر والتوكل والحب إلى آخر ما أفاض المتصوفة في شرحه وامتلأت كتبهم به،

---

[1]-سورة الشعراء، آية 88-89.

[2]-سورة الملك، آية 10.

[3]-سيأتي الحديث في الفصل الثالث، مبحث منهج محمد الغزالي في التزكية

[4]-عبد الحليم عويس: **الشيخ محمد الغزالي تاريخ، وجهوده، وآرائه**، دمشق، دار القلم، ص56.

[5]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص12.

والشعبة الأخرى تتصل بالفعل لنغرس فيه عقائد وأحكاماً، وقد غصت كتب الفقهاء والمتكلمين بهذا النوع من المعارف المهمة وما تغني شعبة عن أخرى" [1].

وبالتالي فالتقرير العقلي -في نظره-لا يحرك المشاعر ولا يفعل دور الأحكام في النفس البشرية إنما تحرّكها الروح، ذلك أن أبعاد مقاصد الشريعة لا توقف عند حدود عقلية بل تجاوزها إلى طور الروح، وعند ما اقتصر فهم الدين على الجانب العقلي نتج عنه قضايا عقلية جدلية بعيدة عن مقاصد الدين، لذا كان إحياء علم التصوف ضرورة لتفعيل البعد الروحي في الانسان كما أنّ فك الارتباط بين القيم الروحية والأحكام العملية على الصعيد النظري أفضى إلى الفصل بين السلوك والاعتقاد في الواقع.

كما أنّ تأسيس العقل المسلم على الثقافة الفقهية أهمل البعد الأخلاقي الذي يمثل جوهر الفكرة المقاصدية التي يجب أن تؤول إليها أحكام الشريعة.كما يعتقد الغزالي بأن التصوف امتزج بكثير من الخرافات مثلما امتزجت السنّة، وهو لا يرفض التصوف جملة بل ابتغى غربلته وتنقيته من الشوائب التي علقت به وأساس مشكلة فهم نتائج التصوف وتحديد معقولية قضاياه أو عدمها يكمن في اختلاف المنهج، فالمنهج البرهاني الذي يعتمده المتكلمون مثلا يختلف عن المنهج العرفاني المعتمد عند المتصوفة، والنظر بعين البرهان إلى إشارات التصوف يصنفها في اللامعقول، ولو نظر إليها بعين العرفان أي انطلاقا من النظام المعرفي الذي ولدت فيه لكان الحكم عليها أقرب إلى العدل والمصداقية والصواب، واللامعقول في تراثنا الفكري يمثل مصدرا هاما من مصادر الخرافات عندما وقع خلط كبير من الذين تناولوا موضوع علم التصوف فأقحموا في مجال اللامعقول قضايا ذات مصداقية عقلية معتبرة. بيد أنّ البحث الروحي يحتاج إلى مجاهدات نفسية ترقى بالمتصوف إلى مقام العرفان الذي يفهم ويتذوق به إشارات القوم.

أما البحث في علوم الشريعة تتطلب صنعة التصوف تحقق صنعة المنطق، لتهيئة أدوات المعرفة: العقل والقلب، وحتى لا يحدث انحراف في الفكر والسلوك، فإذا كان علم الأصول مثلا هو محاولة عقلية لربط عالم الأفكار بأصل الوحي، فإن علم التصوف محاولة وجدانية لربط عالم القلوب بأصل

[1]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، ص84

الوحي وبالتالي فقد نتج عن محاربة التصوف واعتباره بدعة جفاف حاد في المشاعر وفساد في الذوق وقوة في السلوك أدى إلى خراب الانسان والعمران. وبدل أن يهتم علماء الدين بإصلاح الضمائر ومتابعة مدى إلزام المجتمعات والأفراد بالفهم والتوجيه الروحي وقيادة النفوس إلى الله اهتموا بالقوامة على العقول وأهملوا الجوهر الذي يمثله التصوف، وكانت تداعيات ذلك أن تمسّك العامة بطقوس شكلية من العبادات المفرغة من روحها الفاعلة، حيث كثيرا ما أكد محمد الغزالي في محاضراته ومقالاته أن صلاحية الدين لكل زمان ومكان تتجلى أكثر في قدرته المطلقة على تغيير النفوس والمجتمعات وتزويدها بالطاقة الروحية الضرورية لبناء الحضارات وهذا من وظيفة علم التصوف.

فالتدين الفردي في نظره هو انقاد للنفس دون مجتمع، وهو بهذا قد عمل على ارجاع التصوف إلى بعده الاجتماعي وذلك أن التدين الحقيقي لا يتجلى إلا في هذا البعد، قائلا: "أني خرجت بالتصوف من حجره أو من صومعته ليكون طاقة محركة" [1] ولعل هذا المعنى هو ما قصده محمد إقبال بالوعي النبوي الفعال على عكس بعض الوعي الصوفي حيث يقول: "صعد محمد النبي العربي إلى السماوات العُلى ثم رجع إلى الأرض، قسما بربي لو أتى بلغت هذا المقام لما عدت أبدا" فالصوفي لا يريد العودة إلى مقام الشهود" أما النبي فإن رجعته لغاية عظيمة، إذ يعود ليكمل طريقه في موكب حياة الناس وتوجيهه إلى الصلاح والعمران فعالم الشهود عند الصوفي عناية لذاتها لكنّه عند النبي فهي يقظة وقوة قدّر لها أن تغير نظام العالم الإنساني بفعاليتها تغييرا تاماً، ولعل رغبة النبي في أن يرى قوته الدينية تحولت إلى قوى عالمية حية كانت مبتغى دعوته، ولهذا كان من بين ما حكم به على قيمة دعوة النبي ورسالته البحث في نوع الرجولة التي ابتدعها والفحص عن العالم الثقافي الذي انبعث عن روح دعوته [2].

وفي هذا الصدد فإن الغزالي أراد أن ينقل العقل من الوعي الصوفي الفردي الذي لا يتجاوز به مرتبة النشوة الآنية التي تجعله يرقص وجداً مثلاً إلى الوعي النبوي الرامي في بعده الاجتماعي والإنساني الفاعل في التاريخ وفي العمران مؤكدا على أن التصوف في حقيقته طاقة روحية يبلغ بها

---

[1]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص5

[2]-محمد اقبال، **تجديد الفكر الديني**، ترجمة عباس محمود، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 (1421ه-2000م) ص147-148

الصوفي مقام الشهود فيؤثر بحاله وسلوكه في مجتمعه. ذلك إن الوعي الحضاري يسري في المجتمعات بقوة الصمت كما يسري تسري في الأبدان المريضة فتدب فيها الحياة حيث أن فاعلية الأفكار مرهونة بصدق ارتباطها بالوحي الإلهي، فالولاية كما يرى الغزالي ليست تديناً فردياً بعيد عن الواجبات الاجتماعية، وليست دروشة مقتصرة على كثرة العبادات والطاعات بل تكمن في كل من اتقن وأحسن عملا أو مهنة أو تخصصاً أنتج حضارة كان وليا لله وأقرب إليه، فقد يكون الكيميائي في مخبره أقرب إلى الله من العابد في محرابه.

ومع أن علم المقاصد في نظر الغزالي هو المؤهل لقيادة الفكر الإسلامي نحو غايته الكبرى، وكفيل بإحياء العقل وتطهيره والارتقاء به، إلا أنّ هذا العلم لم ينل موقعه المناسب من مرجعية العقل المسلم وتعطل دوره في نوجيه الفكر الإسلامي، فانحصرت بذلك وظيفته في تصحيح نتائج الاجتهاد مع جهود الشاطبي ومن قبله الجويني والعز بن عبد السلام باستثناء أبي حامد الغزالي الذي حاول الخروج به عن نطاقه الضيق، كما أن لمدرسة التصوف خط السبق في تفعيل دوره في علوم الشريعة حيث كانت ارهاصات ميلاد الوعي المقاصدي بداية من الصوفية في اهتمامهم بالمعاني والأسرار والارشادات واللطائف واكتملت معالمه بمساهمات الامام الشاطبي الذي كان ثمرة النزعة الصوفية ممتزجة بنتاج العملية الفقهية المالكية التي توسعت في اعتبار المصالح [1].

ومن خلال ما سبق فإن الغزالي يدعو إلى التشبع بالزاد الروحي والوجداني الموجود في تراثنا الثقافي، وهو محدد تحديداً حسناً في كتاب ابن تيمية وابن القيم وهما رجلان من أعمدة العلم السلفي، كما يرى أن سبب فشل بعض الدعاة إلى الله في دعوتهم، هو اهتمامهم بالقضايا الثانوية نتيجة لهذا الفراغ القلبي حيث يقول الغزالي: "ففي التصوف زهور كثيرة يمكن أن تجمع وتفيد في علوم التربية والنفس والأخلاق، فرفض التصوف كله مرفوض، كما أن قبوله بما يحتشد به من أعشاب ضارة وأشواك دامية مرفوض أيضاً"[2] وهو بذلك يتأسف لظهور صنفين من المسلمين على طرفي نقيض، والإسلام يأبى مسلكهما: صنف نلمس في قلبه عاطفة حارة ورغبة في الله وحباً لرسوله إلا أنه ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة، يعلم منها القليل، وصنف نلمس في عقله ذكاء، وفي علمه

[1]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 10

[2]-خليل عبد السلام، **محمد الغزالي، أبعاد المشروع الفكري**، دار النعمان، ص 198

سعته، وفي قوله بلاغة، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية مؤديا للعبادات ولكنه غليظ القلب بادئ الجفوة، مستعليا بما أوتي من إدراك للعقل، وهنا يضيف الغزالي مبيناً في وضوح قائلا: " إلا أن المسلم الكامل رجل نير الذهن والقلب حاد البصر والبصيرة معاً، تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله، ومعاملته للناس، فلا تدري أيها أسبق، صدق أدبه أم حسن معرفته ولا تدري أيها أروع؟ خصوبة نفسه الجياشة أم فطانة عقله اللماح [1].

بعد القرن الثاني للهجرة اعترى التصوف انحرافات واختلالات، فقد شابت التجربة الصوفية فكرا وممارسة، جعلته يعدل عن مساره الصحيح، المستمد من القرآن والسنة، ولعلّ أخطر الإساءات التي تعرض لها الفكر الصوفي، هي تلك التي صدرت عن أتباعه والمنتسبين إليه والمحسوبين على التصوف، فجاءت محاولات لتجديد الفكر الصوفي وتصحيح مفاهيمه وتعديل ما طرأ عليه من اعوجاج، وكان محمد الغزالي من الذين سعوا إلى إصلاحه وإعادته إلى ما كان عليه من صلاح ، ساعيا بذلك تقديم بديلا له وهي التزكية الأخلاقية، وهذا ما سنتناوله في الفصل الثالث.

[1]-ينظر محمد اقبال، **تجديد الفكر الديني**، ترجمة عباس محمود، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 (1421ه-2000م) ص147-148

الفصل الثالث:

التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي – الرؤية والمنهج-

المبحث الأول: التزكية الأخلاقية/تحريرات مفاهيمية

المطلب الأول: مفهوم التزكية الأخلاقية

المطلب الثاني: منهج التزكية الأخلاقية عند أهل السنة والجماعة

المطلب الثالث: التزكية في مدارس الزهد والتصوف

المطلب الرابع: منهج التزكية عند الصوفية

المطلب الخامس: الرؤية الصوفية للجمال

المبحث الثاني: رؤية الغزالي للتزكية الأخلاقية

المطلب الأول: مفهوم التزكية عند محمد الغزالي

المطلب الثاني: علاقة الإيمان بالخلق وأثرها على البناء الروحي

المطلب الثالث: علاقة العبادات بالأخلاق

المطلب الرابع: تصنيف الأخلاق عند محمد الغزالي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: منهج محمد الغزالي في التزكية الأخلاقية:

المطلب الأول: القرآن الكريم

المطلب الثاني: العقل

المطلب الثالث: الوجدان

المطلب الرابع: العلم

المطلب الخامس: الواقعية

المطلب السادس التاريخ

المطلب السابع الوسطية والاعتدال

المبحث الرابع: قيم وأبعاد التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي:

المطلب الأول قيم التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي

المطلب الثاني أبعاد التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي

المبحث الأول: مفهوم التزكية الأخلاقية/ تحديدات مفاهيمه

المطلب الأول: مفهوم التزكية الأخلاقية

يقصد بالتزكية تنمية القلوب وإصلاحها وتطهيرها، يقال زكا الزرع: إذا نما وصلح وبلغ كماله، وسميت صدقة المال الواجبة زكاة، لأن المال يطهر بها وينمو، فهي طهارة للمال وطهارة للمزكي[1]، وطهارة للمجتمع، وعكس التزكية التدنس، وهي التصغير والتحقير حتى تصير النفس حقيرة دنيئة لا تكاد ترى من حقارتها ودناءتها[2] ومنه قوله **تَعَالَىٰ**: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [3] أي يخفيه في التراب، وقد أقسم الله في كتابه الكريم أحد عشر قسماً متوالية على أن صلاح العبد منوط بتزكية نفسه، وخيبته منوطة بتدنسه لقوله **تَعَالَىٰ**:﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [4].

فقد اختلف في موضع الضمير (زكّاها ودسّاها)، وهو يرجع إلى اختلافهم في قوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) يعود على الله أم يعود على العبد واستدل فريق القول الأول بقوله **تَعَالَىٰ**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [5] وقوله **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن

---

[1]-ينظر: ابن منظور محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ص 142-358

[2]-فريد أحمد، **التزكية بين أهل السنة والصوفية**، مرجع سابق، ص 96

[3]-سورة النمل، الآية 59

[4]-سورة الشمس، الآية 1-15

[5]-سورة النساء، الآية 49

يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [1] وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يقول عن هذه الآية "اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها وأنت مولاها" [2]

ومما استدل به القول الثاني قوله تعالى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [3] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [4] فالله يتفضّل على الانسان بالهدى والتوفيق للإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي بل جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [5] الجمع بين الأمرين، فالله يزكي من يشاء بفضله ولا تظلمون فتيلا بعدله وصلاح العبد وفوزه ونجاته في تعهد نفسه بالإصلاح وتطهير باطنه وظاهره من الشرك بالله، والصفات المذمومة، حيث أنّ القلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها ولا تصل إلى مولاها حتى تكون سليمة زكية بقوله تعالى:﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾ [6]

كما جاء في الحديث: "إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيّباً"[7] فكلما طابت النفس وزكت فقربت من الله فتسعد بقربه وتأنس بمعيته وتستغني به تعالى، وفي هذا يقول الزهري: "من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، والشرع كلّه تزكية لنفوس العباد حتى تصلح، والتوحيد تزكية"[8] لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ

---

[1]-سورة النور، الآية 21

[2]-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يُعمل، ج4، ص2088، رقم الحديث: 2722.

[3]-سورة الأعلى، الآية 14-15

[4]-سورة فاطر، الآية 18

[5]-سورة النساء، الآية 49

[6]-سورة الشعراء، الآية 89

[7]-رواه مسلم في صحيحه والترمذي في السنن، 703/2 [1015]، الترمذي في السنن، أبواب تفسير الفرآن، ومن سورة البقرة 220/5 [2989]

[8]-ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، ج4، ص92.

وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾ [1]

قال ابن كثير: قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: "يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله..."[2]، والصلاة تزكية لقوله **تَعَالَىٰ**:﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[3]، وقال النبي ﷺ: "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات ما تقولون ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئا قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا" [4]. والصدقة تزكية بقوله**تَعَالَىٰ**:﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [5]، والحج تزكية لقوله **تَعَالَىٰ**:﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [6] وبالتالي فإنّ الله قد شرع الشرائع لتزكية نفوسنا، والانتفاع بطاعاتنا، وفي قصص القرآن الكريم ما يؤكد هذه الحقيقة ولعل مثالنا موقف ابراهيم عليه السلام في دعوته فلم ينحصر اهتمامه على ما عاصرهم، بل كان مهموما بالأجيال القادمة والتي يراها من وراء حجب الغيب، حيث دعا الله بأن يهيئ لها من يدعوها ويعلمها ويربيها **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [7] فالتزكية في هذه الآيات هي التربية التي تتمثل بمرحلتيها التحلية والتخلية وهي بمعنى التطهير والزيادة، وبالتالي فإن التزكية مصطلح ومفهوم

---

[1]-سورة فصلت، الآية 6-7

[2]-ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، ص 94

[3]-سورة العنكبوت، الآية 45

[4]-رواه البخاري في صحيحه: كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، 112/1، رقم الحديث: 528.
ومسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل الصلوات الخمس، 462/1، 667.

[5]-سورة التوبة، الآية 103

[6]-سورة البقرة، الآية 197

[7]-سورة البقرة، الآية 38

قرآني ضمن منظومة القيم وموضوعها هو الانسان الذي هو موضوع الاصلاح في الواقع الانساني، أو هي هدف العمران ووسيلته، فهي ليست مسألة مشاعر أو خواطر نفسية تقتصر على الاصلاح الفردي بل تدخل في حجم البناء الاجتماعي والعمران البشري والرقي الحضاري كما يعرّفها ابن تيمية فيقول : "التزكية هي تربية القلب وتنميته بالكمال والصلاح ذلك بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وتزكية النفس بالصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير"[1]

1-آفاق التزكية في المصطلح القرآني:

وردت ألفاظ زكو وهو الأصل الثلاثي من لفظ التزكية 39 مرة منها زكى، ويزكي، وأزكي، زكيا، زكاة... ورد 32 مرة منها بلفظ الزكاة أي زكاة المال و4 مرات بمعنى المدح والثناء وأربع مرات يوصف التزكية واحداً من مقاصد الوحي الأربعة، وبقية الآيات تتحدث عن مجالات مختلفة من التزكية بمعاني التطهير والترقية والتسمية والزيادة في الحسن والنفع.

وقد ورد لفظ التزكية بمعنى التطهير والترقية للمشاعر النفسية وللعلاقات الاجتماعية ومثال ذلك في الطلاق، فإن النفوس تكون مهيئة للبغضاء و الشحناء والقطع أوامر الحب والمودة، مما قد يدفع أهل الزوجة منعها من العودة إلى زوجها، فيخبرهم الله أن في هذه العودة خير لهم جميعاً وأطهر لهم لدوام الود، لقوله تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾[2]

فالمسألة هنا مشاعر وخواطر نفسية تزكّي القلوب وتحدد العلاقات والأنظمة القائمة في المجتمع وتعالج القضايا الاجتماعية "فأزكى لكم" بمعنى أقرب للخير وتدل على النماء والوفر وذلك أنهم كانوا يعضلوهن، وحفاظا على المروءة من لحاق ما فيه شائبة، فأعلمهم الله أن عدم العظل أوفر للغرض، لأن فيه سعيا إلى استبقاء الود بين العلاقات التي تعرف بالصهر والنسب، فإذا كان العضل

[1]-ابن تيمية أحمد، **مجموع الفتاوي**، مرجع سابق، ج10، ص 69

[2]-سورة البقرة، الآية 232

إيابة للضيم، فالإذن لهّن بالمراجعة حلم وعفو ووفاء للحال[1] "وألفاظ أزكى لكم وأزكى لهم" تتكرر في سياق ما قد يحاك في النفس نتيجة بعض الممارسات، فالاعتذار عن استقبال الضيوف في المترل احتراما للخصوصيات صيانة للأعراض يرافقه تطهير الضمير والشعور وتطهير العمل والسلوك وتطهير لحياة الفرد وسريرته وواقعه لقوله تعالى:﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[2] أما لفظ الزكاة فهي الفريضة في أركان الدين، فإن الطاهر بن عاشور يقول لا أحسب استعمال الزكاة (زكاة المال) بمعنى المال المبذول لوجه الله ورد فيها المعنى إلا في مصطلحات القرآن الكريم و لم يكن لهذا المعنى قبل نزول القرآن وهي تعني تطهير النفوس مع الشرح والاستعلاء على فتنة المال وصلة الأخوة في الله من رزق الله، والقيام بحق الجماعة وأعضائها [3] كما أنّها ركن النظام الاقتصادي، وهي وسيلة مضمونة للبركة والزيادة فكما أنّها طاعة لله فهي إقامة لأساس الحياة الاقتصادية على منهج يكفل عدم الكساد وعدم الترف.

ويخلص الطاهر بن عاشور إلى تعريف التزكية فيقول: "وإنّما رضا الله تعالى بفعل الناس للخير الذي أمرهم به" [4] ويحدد في مفهوم التزكية مفهوم الخلق [5]:

وفي الاصطلاح: هو قوة راسخة في الإرادة نترع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح إن كان الخلق حمداً، أو اختيار ما هو شر وجور إذا كان الخُلق ذميماً [6].

وهنا نلمس وجود نقاط ثلاث بين التعريفيين (اللغوي والاصطلاحي) فالخلق يحمل صفة

---

[1]-ابن عاشور محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس ط ج2، ص 428

[2]-سورة النور، الآية 28

[3]-المصدر نفسه، ج18، ص 12

[4]-المصدر نفسه،ج2، ص 272

[5]-في اللغة يعرف الخلق بأنّه السجّية والطبع والمروءة والدين والخلق ويطلق عن طبيعة النفس في ظاهرها، الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، مصدر سابق، ص 1133

[6]-محمد عبد الله دراز: **دراسات اسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية**، دار العلم، الكويت ط 1400 هـ- 1960م، ص88

الرسوخ وهو الطبع في اللغة، ويشمل على صفته الخيرية وهي في اللغة المروءة والدين ويطلق على الخلق أنه طبيعة النفس وأوصافها ومعانيها في باطنها، كما يطلق على طبيعة النفس وظهرها [1]

ويعرّف أبو حامد الغزالي الخلق: " الخلق بفتح الخاء... الخلق بضم الخاء عبارتان مستعملتان معاً يقال: فلان حسن الخَلق والخُلق: أي حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخَلق بفتح الخاء –الصورة الظاهرة ويراد بالخُلق بضم الخاء-الصورة الباطنة، ذلك أنّ الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر والروح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكل منهما هيئة وصورة؛ إما قبيحة وإما جميلة، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر، فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورؤية [2]، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا.

كما يعرّف ابن مسكويه الأخلاق فيقول: الخلق بضم الخاء: حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء كالغضب، ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يسير عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا [3]. وبالتالي فإنّ الخلق في اصطلاح أهل التزكية لا يخرج عن المعنى اللغوي إلا أنّه يطلق غالبا على الخُلق الحسن.

وقد عرّفه ابن القيم: " الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد في الدين [4]" فالطريق لتربية الخلق هو أن تتخلق أو تتأدب أي تحمل نفسك على الأعمال التي يطلبها منك الخلق الحسن، عليك بتصوير نفسك على أفعال الجود. والمقياس الذي يحدد الخير والشر هو الدار الآخرة [5].

---

[1]- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج10، ص 86

[2]- الجرجاني علي بن محمد، **التعريفات**، دار الكتب، بيروت، ط1403ه-1983م، ص160

[3]-ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف**، مطبعة دار المعارف، بيروت 1327 هـ، ص 33

[4]- ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق محمد المعتصم البغدادي، ط7 (1423هـ-2003م) ج2 ص307.

[5]-المصدر نفسه، ص161

أمّا في قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [1] قال الطبري وقد نقل عن ابن عباس في هذه الآية، قال الماوردي: أي أنك على طبع كريم [2].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الآية ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴿٤﴾﴾ تتحدث عن دين عظيم وهو الإسلام، وقيل لعله أدب عظيم، وقيل: خلق رسول الله ﷺ وهو القرآن [3].

وجاءت السنة النبوية لتؤكد أن الخلق هو الدين وهو كمال الإيمان لقول النبيّ ﷺ: "أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله" [4]، كما جاء لفظ الخلق في حديث وصف الرسول ﷺ من ذلك قول عائشة: "كان خلقه القرآن" [5] أي متمسكاً بالقرآن وآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف.

كما شمل الخلق كل المعاني العقدية والتعبدية والعملية للبر والخير في قوله تَعَالَىٰ:﴿* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [6] وأكد هذا المعنى نبيه الكريم عندما سئل سئل عن البر بقوله: "البر حسن الخلق والاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس" [7].

2-ألفاظ التزكية والسلوك:

ما عرف من ألفاظ في باب التزكية والسلوك، لفظ التصوف فقد جعلها الصوفية في بيان حالهم

---

[1]-سورة البقرة، الآية 2

[2]-ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار الأندلس، بيروت ج4، ص 80

[3]-ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف**، مرجع سابق، ص 33

[4]-أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، زيادته ونقصانه، ج2، ص616 وقال الترمذي: حديث حسن.

[5]-أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء البر والرحم، ج2، ص 568

[6]-سورة البقرة، الآية 177

[7]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، مصدر سابق، ص 12

وزهدهم وطلبهم للآخرة، وهؤلاء صوفية هم الزهاد والعباد، لهذا فإنّ كلمة التصوف لفظ قد يخرج منه ما هو موافق للكتاب والسنة بحسبه، وقد يخرج منه ما هو مخالفة بدعية بحسبه، وبالتالي يكون النظر إلى الحال والعمل لا إلى اللفظ المجرد.

وكان من المتصوفة الأوائل نوع تسنن بالكتاب والسنة، إلا أن من جاء بعدهم غلب عليهم البدع والطرق، فصار التصوف لدى بعضهم لا يطلب ولا يمدح وفي هذا يقول ابن تيمية: "لفظ الفقر، فقد أدخل في التصوف أمور يحبها الله ورسوله، فتلك يؤمر بها، وان سميت فقرا أو تصوفا، لأن الكتاب والسنة إذا دل على استحبابها لم يخرج ذلك بأن تسمى باسم آخر، كما يدخل في ذلك أعمال القلوب، كالتوبة والصبر... وقد أدخل فيها أمور يكرمها الله ورسوله، كما يدخل فيها بعضهم نوعاً من الحلول والاتحاد، وآخرون نوعا من الرهبانية المبتدعة في الإسلام، وآخرون نوعاً من المخالفة للشريعة، إلى أمور ابتدعوها إلى أشياء أخرى، فهذه الأمور ينهى عنها بأي اسم سميت[1].

كما أنّ لفظ السيّر، أو السائر إلى الله، أو الزاهد والعابد: بمعنى التزكية الشرعية، وقد يكون المعنى منه بعض التصوف البدعي، ولهذا من الغلط رد الألفاظ دون النظر إلى مدلولاتها الحقيقية ولذا قال ابن تيمية "الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه مثل لفظ الايمان والتقوى والإحسان والتوكل والحب لله فالسائرون إلى الله والدار الآخرة على بصيرة وهداية، وهم المتقون المؤمنون الصالحون، الذين علموا حقيقة الكون والوجود وحكمة الخلق والايجاد، فعبدوا الله حق العبادة، واتبعوا نور الأنبياء والرسل، فاستقاموا في سيرهم إلى الله علما وعملا، ولم يخرقوا أو يشركوا أو يخالطوا البدع والأهواء. ولم ينشغلوا بالدنيا وملذاتها بل زهدوا فيها وجعلوا أيامهم لذكر الله، وبذل الجهد والإحسان إلى الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2].

3-وسائل التزكية:

جاء في القرآن الكريم أن التزكية فضل من الله ورحمته لمن طلب فضله وتجنّب خُطوات الشيطان لقوله **تعالى**:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ

[1]-ابن تيمية، **الفتاوي الكبرى**، دار الكتب العلمية، ط1، 1987-1408، ج14، ص 28

[2]-ابن تيمية، المصدر نفسه، ج11، 25

فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [1].

قد سبق الحديث عل أنّ علماء التزكية والتصوف قد استخدموا مصطلحات خاصة للتعبير عن وسائل التزكية، منها التخلي والتحلي، والتزكية تعني التطهير والتنقية [2] أي التخلي عن جميع الصفات القبيحة التي نهى الله عليها، والتخلية تعني اعداد الانسان ليمتلي بجميل الصفات وحسنها، أهمها القيام بالفرائض والنوافل وتدبر القرآن والتفكر، والتحلي بالتقوى وذكر الله، وذكر الموت أي حضوره سبحانه في قلب الانسان ومن الوسائل التي جمعت هذه المعاني:

أ-القرآن الكريم: كل تزكية تبدأ بالقرآن وينتهي به فالقرآن هو الذي يهدي للتي هي أقوم لقوله **تَعَالَى**:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ ﴾ [3]، وهدى وحق وموعظة للناس لقوله **قَالَ تَعَالَى**:﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ ﴾[4] فتزكية النفس في ذكر القرآن الكريم هي الجامعة لكل أنواع التزكية، وللنفس في المصطلح القرآني ذكر وافر لطبيعتها جسما وعقلا وروحا، وخلقا، وحالاتها المطمئنة واللوامة، الأمارة بالسوء، وأسرارها وغير ذلك، ويكفي برهانا أن في تلاوة القرآن وتدبره أساسا لكل أنواع التزكية، ففيه من تزكية اللغة المتمثلة في تقويم ألفاظ اللسان، وترقية أساليب البيان، وفيه من تزكية القلب، ما تطمئن به القلوب، تزكية المال وتطهير النفس من الشح والبخل وتحقيق البركة في المال، وفيه تزكية في الخلق... "فالإنسان هو هذا الكائن بعينه بنظرته وميوله واستعداداته يأخذ المنهج الإلهي بيده ليرتفع به إلى أقصى درجات الكمال المقدر له بحسب تكوينه ووظيفته، ويحترم ذاته وفطرته ومقوماته وهو يقوده

---

[1]-سورة النور، الآية 21

[2]-المصطلح لأبي حامد الغزالي، هو التزكية والتحلية، والتزكية عنده هي ما يسميه غيره بالتخلية حين يتحدث عن أخلاق مذمومة تجب التزكية فيها، وأخلاق ممدوحة تجب التحلية بها، ينظر الغزالي احياء علوم الدين ص 13

[3]-سورة الإسراء، الآية 9

[4]-سورة هود، الآية 120

في طريق الكمال الصاعد إلى الله... والحق في منهج الله أصل في بناء هذا الوجود، ليس فلتة عابرة، ولا مصادفة غير مقصودة... إنّ الله هو الحق، ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده... والخير والصلاح والإحسان أصيلة كالحق باقية بقاء الأرض [1]

ب-الذكر والفكر: هو ذكر الله سبحانه في أسمائه وصفاته والتفكر والتدبر في آياته المسطور والمنظور منها، على أنّ الأساس في ذكر الله هو حضور الله سبحانه في قلب المؤمن في خاطرة تمر بالقلب والفكر، وفي كل عمل تقوم به الجوارح، وقد ارتبط الذكر بالتزكية في قوله **تَعَالَىٰ**:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ ﴾ [2] وبهذا الذكر يرتقي المؤمن في مراتب التزكية حتى يصل إلى مرتبة الاحسان " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " [3] قال النووي في شرح هذا الحديث " لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربّه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع، والخشوع، وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه شيء من النقائص، احتراما لهم واستحياء منهم فكيف لمن لا يزال الله مطلعا عليه في سره وعلانيته[4]

وفي كثير من آيات القرآن وقع طلب الذكر مع الاكثار منه لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١ ﴾ [5]، وقوله﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ

---

[1]-ينظر سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق القاهرة، ط7، ج1، ص 111

[2]- سورة الأعلى، الآية 14-15

[3]- سبق تخريجه. ص85.

[4]-النووي أبو زكرياء يحي بن شرف، **شرح النووي على مسلم**، دمشق، دار الخير 1996، ج1، ص 132

[5]-سورة آل عمران، الآية 41

كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [1] وقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾ [2] ولا يعني الاكثار في الذكر هو التسبيح والتحميد والتهليل في أوقات محددة، وإنما يقصد به الحضور الدائم في العقل والقلب.

وإذا كان علم الله تعالى قد أحاط بكل شيء في قوله **تعالى**:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [3] وأن الله مع الانسان حيثما كان لقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [4]، وأنّ أعمال الانسان تسجل **قال تعالى**:﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [5] فمن الطبيعي أن يتحرى الانسان التقوى في كل حالاته حياءً من الله، شكرا على نعماته وأفضاله، طاعة لأمره، حذرا من معصيته، وحبّاً له وطلبا لحبّه ومغفرته وهذا هو الاحسان[6]... حينئذ يستحق المؤمن محبّة الله لقوله **تعالى**:﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [7]

---

[1]-سورة الأحزاب، الآية 35

[2]- سورة الأحزاب، الآية 41

[3]-سورة الطلاق، الآية 12

[4]- سورة الحديد، الآية 4

[5]- سورة الجاثية، الآية 29

[6]- ينظر سيد قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج6، ص115

[7]- سورة آل عمران، الآية 147

المطلب الثاني: منهج التزكية عند أهل السنة والجماعة

تتحقق التزكية بأمور كثيرة من أهمها ما يأتي

1-التوحيد:

وقد سماه الله تعالى زكاة في قوله ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [1] قال: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذلك قول موسى لفرعون قَالَ ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [2] أي تطهيره من هذا الشرك للتوحيد، فأصل التزكية التوحيد؛ واهتم النبي ﷺ بهذا الأصل عندما أرسل معاذاً إلى الحسن قال: " فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أنّ لا إله إلا الله وأنّي رسول الله فإن هم أطاعوك بذلك فأجرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة [3] وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [4] ويقصد بالتوحيد الذي تزكو به النفوس التوحيد الذي علمنا إيّاه رسول الله ﷺ في قوله: " الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره [5]، والايمان بالله هو ركن التوحيد الأعظم الذي يشمل ربوبية الله وأسمائه وصفاته وافراده بالعبادة تصديقا وقد ذكر ابن القيم أن أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم أنّ التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب فإنّه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارته واثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء... إلى أن قال: "فأصل ما نزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد"[6] وقد دلت الآيات السابقة الذكر أن الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله عزّ وجّل.

---

[1]-سورة فصلت، الآية 7

[2]-سورة النازعات، الآية 18

[3]-رواه البخاري (261/3) الزكاة ومسلم (196، 1/197) الايمان وأبو داوود (1579) الزكاة والترمذي (1/187، 3/164)

[4]-سورة النساء، الآية 48

[5]-رواه البخاري (1/114) الايمان

[6]-ينظر، ابن تيمية، **الفتاوى الكبرى**، مرجع سابق، ج10، ص633

2-التزكية بالطاعات وترك المحرمات:

أول ما يتقرب به العبد إلى ربه بعد توحيده لله أداء الفرائض واجتناب المحرمات ودليل ذلك حديث النبيّ ﷺ: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء، أحب إليّ مما افترضته عليه" [1].

قال الشوكاني رحمه الله: "واعلم أن من أعظم فرائض الله ترك معاصيه التي هي حدوده، التي من تعداها كان عليه من العقوبة ما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، ولا خلاف أن الله افترض على العباد ترك كل معصية كائنة ما كانت، فكان ترك المعاصي من هذه الحيثية ضمن عموم قوله: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء، أحب إليّ مما افترضته عليه بل دخول فرائض الترك للمعاصي أولى من دخول فرائض الطاعات وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، الورع كما حرم الله، وحسن النية فيما عند الله عزّ وجّل" [2]، وهو المقصود أن أهل السنة يزكون أنفسهم بعد التوحيد بتكميل الفرائض من فعل الواجبات وترك المحرمات، فلا يفتحون على أنفسهم أبواب النوافل وهم مقصرون في أداء الفرائض فهم يزكون أنفسهم بالمشروع.

3-التزكية بالنوافل والدعاء:

النوافل هي كل ما ندب الله سبحانه ورغب فيه من غير حتم وافتراض وتختلف باختلاف ثوابها، لقول الرسول: "ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه"[3]، قال الفاكهاني معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرها أفضى به ذلك إلى محبة الله[4].

أما الدعاء هو العبادة قال الرسول ﷺ ثم تلا هذه الآية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[5]

---

[1]-رواه البخاري (4/234)

[2]-محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، **ولاية الله والطريق إليها**، دار الكتب الحديثة، القاهرة ص 37

[3]-رواه البخاري، رقم 6137

[4]-الشوكاني، المرجع السابق، ص 38

[5]-سورة غافر، الآية 60

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2]

ويقول أنس عن سلمان الفارسي أنّ النبيّ قال: "إنّ ربكم حي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خاليتين" [3] فهذه طرق ومناهج التزكية كانت عند السلف من أهل السنة، فقد جعلها الله متنوعة لاختلاف استعدادات العباد ومع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها ومع هذا الاختلاف فكله طريق واحد[4] لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[5]

المطلب الثالث: التزكية في مدارس الزهد والتصوف:

جاءت كثير من مصطلحات التصوف في ثلاثيات تتمايز عناصر كل ثلاثة بدلالات خاصة وإن كانت تتكامل فيما بينها ويؤدي كل منها إلى ما بعده، أو ينبثق منها عن السابق، منها: ثلاثية التخلي والتحلّي والتجلّي، وثلاثية الشريعة والطريقة والحقيقة، مع أن بعض مسالك التصوف شدّت في فهمها أو سلوكها عن مبدأ التكامل بين عناصر الثلاثية، فجعلت من التجلي في الثلاثية الأولى، أو الحقيقة في الثلاثية الثانية، الأصل الذي يقوم بذاته، فإذا تحقق لم يكن لما قبله من قيمة؛ فإنّ التحقيق العلمي لدى أكثر علماء التزكية والتصوف هو أن هذه المستويات متكاملة وللتحقق بصورة تصاعدية متراتبة.

وما يميّز ممارسات التزكية تفضيل ثواب الدار الآخرة على متاع الحياة الدنيا، والتقرب إلى الله سبحانه بالنوافل من العبادات زيادة على الفرائض، ابتغاء وجه الله في كل شأن وطمعا فيما عند الله

---

[1]-سورة النمل، الآية 62

[2]-سورة البقرة، الآية 186

[3]-أخرجه أحمد (23715)، وأبو داوود (1488)، الترمذي (3556)، وابن ماجه (3865)، وابن حبان (876)

[4]-ينظر: ابراهيم سلامة، **خلق ودين، دراسات اجتماعية أخلاقية دينية**، ط1 (1373-1954) شركة ومطبعة الباي، الحبلي وأولاده، مصر، ص16.

[5]-سورة الأنعام، الآية 153

من أجر في الآخرة، فلا مجال للمقارنة بين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة إلى بمقدار ما تكون الدنيا وسيلة إلى الآخرة لقوله تعالى:﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [1] ومقابل هذا فإنّ للإنسان نصيب في الدنيا والاستمتاع بها لقوله تعالى:﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [2]

والزهد في الدنيا ليس هروبا من حمل الأمانة وعجز عن القيام بمسؤولياته في ابتغاء فضل الله من الكسب الحلال والاسهام في الإنتاج والعمران، وتلبية متطلبات الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، كما أنّه ليس رهبانية تحرم على المؤمن ما أحلّ له، بل الرهبانية ابتداع الناس من عند أنفسهم حتى لو أرادوا بها خيراً لقوله تعالى:﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [3].

فإذا كانت الحاجة إلى صورة عملية للتزكية المعتدلة والتي تضع الأمور في نصابها، فإن الرسول ﷺ أسوة لنا في ذلك، وهو أحق أن يُتبع في خشيته لله وتقواه، ومع ذلك فقد رفض ما قاله رهط قالوا عبادة رسول الله[4]؛ ظنّا منهم أنّ عليهم الاتيان من العبادات أكثر من النبيّ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

إلا أن الأمر أخذ بعد ذلك صورا من التجمّع في فئات يقوم أفرادها بالالتزام تعليمات قيادة

---

[1]-سورة الضحى، الآية 4

[2]-سورة القصص، الآية 77

[3]-سورة الحديد، الآية 27

[4]-في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب: الترغيب في النكاح، حديث رقم: 5063، ص615.

محددة، وأنماط من السلوك المحدد في مجالات العبادة والذكر[1]، وفي مجال العلاقات بين أفراد الجماعة وانتهى الأمر إلى استخدام مفردات ومصطلحات خاصة قد يكون لها في الظاهر العام دلالات معينة، ولكن لها دلالات أخرى في الباطن الخاص بالجماعة أو بشيخ الجماعة ومثال ذلك ما عرف في بعض نظم التصوف بالمنظومة الثلاثية (التخلي، التحّلي، التجّلي)، فإذا كان التخلي يعني الإقلاع عن الآثام وكان التحلي ضرورة الأخذ بالصفات الفاضلة، فإنّه بمستوى معين من ممارسته التخّلي والتحلي يدخل فيه المريد السالك حالة من الثقافة الروحية والرفعة الوجدانية تسمّى التجّلي حيث سيستشعر فيها السالك تجلي الحضرة الإلهية، لكن بعض ممارسات التصوف شهدت ألوانا من السلوك البدعي والألفاظ البدعية وبقيت بعض ممارساته فمن دائرة المألوف من الزهد والترقي في مراتب التزكية.

المطلب الرابع: منهج التزكية عند الصوفية:

عرف على بعض الصوفية أنهم كانوا يطلبون زكاة أنفسهم بالإنشاد والمكاء والتصدية، وتكلف ما لم شرعه الله عز وجل ولا رسوله من العبادات، ومن هذه الوسائل:

1-المكاء والتصدية والغناء والتصفيق:

ويتواجدون عند ذلك؛ حيث ذكر ابن تيمية أن الرسول ﷺ لم يشرع لأمته لصالحها وعبادها وزهادها أن يجتمعوا على استماع الأبيات المحبة مع ضرب بالكف أو بالقضيب أو بالدف، كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته، واتباع ما جاء به القرآن والحكمة، لا في باطن الأمر ولا في ظاهره. وبالجملة فمسألة السماع تحدث كثير من المتأخرين في السماع هل هو محظور أو مكروه أو مباح، وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج، بل مقصودهم أن يتخذ طريقا إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب والتخويف من المرهوب والحزن على قوات المطلوب فتستنزل به الرحمة وتستجلب به النعمة وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، تستجلى به مشاهد العرفان حتى يقول بعضهم أنّه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه حتى يجعلونه قوتاً للقلوب، وغذاء للأرواح وهديا للنفوس يحدوها إلى السير إلى الله، ويحثها على الإقبال عليه، ولهذا يوجد من اعتاده واغتنى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في

[1]-أحمد فريد، **التزكية بين أهل الصوفية**، دار ابن تيمية، ص30-31

سماعهم الروحي بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية وألسن لاغية[1]. وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحركات وأصغت القلوب، وتعاطي المطلوب؛ ويستنكر ابن تيمية هذا قائلاً: من كانت له خبرة حقائق الدين وأحوال القلوب ومعارفها وأذواقها ومواجيدها عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم فهو للروح كالخمر للجسد، يفعل في النفوس فعل حميا الكؤوس [2].

وقال ابن الجوزي ما ملخصه [3] أن هذه الطائفة إذا سمعت الغناء تواجدت وصفقت وصاحت ومزّقت الثياب وقد لبس عليهم ابليس في ذلك واحتجوا بما روي عن سلمان كذبا لما نزلت الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [4] صاح سلمان الفارسي صحته، ووقع على رأسه ثم خرج هاربا، ما ذُكر عن سلمان كذب وليس له اسناد لأنّ الآية نزلت في مكة، وسلمان أسلم في المدينة وقال واعلم وفقك الله أن قلوب الصحابة كانت أصفى وما كانوا يزيدون عند الوجد على البكاء والخشوع، قال وذكر حديث العرياض بن سارية: "وعظنا رسول الله موعظة ذرفت بها العيون ووجلت منها القلوب"[5] قال أبو بكر الآجري، و لم تعل صرختا ولا ضربنا صدورنا كما يفعل كثير من الصوفية وقال: والتصفيق منكر يطرب ويخرج عن حد الاعتدال ويتتره عن مثله العقلاء ويشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت من التصدية، وهي التي ذمهم الله عزّ وجّل بها في قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[6] فالمكاء الصفير والتصدية التصفيق [7].

---

[1]-ابن تيمية، **الفتاوى الكبرى**، مرجع سابق، ص631

[2]-أحمد فريد، **التزكية بين أهل السنة والصوفية**، مرجع سابق، ص 32

[3]-مرجع نفسه، ص 34

[4]-سورة الحجر، الآية 43

[5]-رواه أبو داوود (12-360)

[6]_سورة الأنفال، الآية 35

[7]-أحمد فريد، **بين أهل السنة والصوفية**، مرجع سابق، ص 35

كما يدعي الصوفية تزكية أنفسهم بالاسم المفرد مظهرا أو مضمرا، قال ابن تيمية: الشرع لا يستحب من الذكر إلا ما كان كلاماً تاماً مفيداً مثال: " لا إله إلا الله " "سبحان الله" " لا حول ولا قوة إلا بالله " ويقصد بالاسم المقرر "الله" "الله" أو مضمرا "هو" "هو" فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة ولا هو مأثورا أيضا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدي بهم،؛إلا أنّه في ظن الصوفية أن الاسم المقرر للخاصة وذكر الكلمة التامة للعامة "الله للعارفين، ولا إله إلا الله للمؤمنين، ولعل تبريرهم في ذلك قوله تَعَالَىٰ:﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [1] ويتوهمون أن المراد هو قول هذا الاسم لفظا وافيا، ولو تدبروا لوجدوا أنّه تبين لمراد الآية قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [2]، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء أي قل هو الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى فهذا كلام تام وجملة اسمية مركبة من مبدأ وخبر [3] أما بالأدلة العقلية والذوقية فإنّ الاسم وحده لا يعطي ايمانا ولا كفرا ولا هدًى ولا ضلالة ولا علما ولا جهلا، ولو كرر الانسان اسم "الله" ألف مرة لم يصبح بذلك مؤمنا ولا يستحق ثواب الله وجنته، فإن قيل: فالذاكر والسامع للاسم المقرر قد يحصل له وجد محبة وتعظيم الله ونحو ذلك، وقد يثاب على ذلك الوجد والحال الانساني، لأنّ الاسم مستحب، وإذا سمع ذلك حرك ساكن القلب، وقد يتحرك الساكن بسماع ذكر محرم أو مكروه.

وكذلك الصوفية يدعون التزكية لأنفسهم بتحريم ما أحل الله لهم من الطعام والمشارب ولبسوا الصوف وتكلفوا ما لم يشرعه الله لهم من عبادات، وفي هذا قال ابن القيم الجوزي "وقد بالغ ابليس

---

[1]-سورة الأنعام، الآية 91

[2]-سورة الزمر، الآية 67

[3]-أحمد فريد، **التزكية بين أهل السنة والصوفية**، مرجع سابق، ص 86

في تلبيسه على قدماء الصوفية، فأمرهم بتقليل المطعم وخشونته، ومنعهم شرب الماء البارد حتى كان في القوم من يبقى لأيام لا يأكل إلى أن تضعف قوته، ومنهم من يتناول الشيء اليسير الذي لا يقيم البدن. وقد لبسوا الصوف تقربا إلى الله، ويحتجون في ذلك أن الرسول ﷺ لبس الصوف، إلا أنّه لبس الكتان والقطن ولم يروا عنه أنّه تعمّد لبس الصوف [1].

المطلب الخامس: الرؤية الصوفية للجمال:

قد يتعذر الوقوف على ماهية الجمال[2] وتسييجها تسييجا منطقيا محكما، بحيث يصبح تعريفا متداولا وقائما في الزمان والمكان، ويبقى الجمال نسبيا يختلف إدراكه باختلاف الشعور واختلاف المدارك، واختلاف زوايا الرؤية إليه.

وفي القرآن وردت لفظنا (الجمال) و(جميل) في ثمانية مواضع منها قوله تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [3] وهي تشير إمّا إلى صفات الجلال والعظمة، أو إلى الأنوار والألفاظ، والرحمة والبشارة والتجلي الكمالي[4]

1- الجمال في الاصطلاح الصوفي:

تتشكل معاني الجمال عند الصوفي من المعاني القرآنية، ثم تتشاكل وتتوالد ونزدهر وفق الحالات التي يمر بها الصوفي والمقامات التي يحل بها، ورؤيته للجمال عميقة فهي صفات الجلال إذا نُسبت إلى البصيرة المدركة لها، ويسمّى المتصف بها جميلا وهو تجلي القلوب بالأنوار والسرور والألطاف والكلام اللذيذ، والحديث الأنيس...فيه ملاحة الحق المشهودة في هياكل كل عالم التفاصيل؛ ذلك أن حقيقته هي ظهور ظاهر الحسن من الأسماء والصفات في الدنيا لأهله، وإذا كان الجمال نعتا للرحمة والرقة

---

[1]-أحمد فريد، **التزكية بين أهل السنة والصوفية**، مرجع سابق، ص 37

[2]-الجمال هو صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث السرور في النفس، وإحساسا بالانتظام والتناغم، كما أنّه أحد المفاهيم الثلاثة التي تنسب إليها أحكام القيم: الخير الحق والجمال

[3]-سورة الحجر، الآية 85

[4]-الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، المطبعة الخيرية مصر، ط 1306 ص 230

والرأفة والمحبة فلأنّه هو أول التجليات الإلهية الثلاثة: الجمال والجلال والكمال، فيه يرى الصوفي بعين قلبه أن كل ما في الوجود هو تبديات للجمال الإلهي ويشهد في كل المظاهر أثر جمال الله تعالى ونستخلص من هذا كله أنّ الجمال يرجع إلى وصفين: العلم واللطف وأنّ الجلال إلى العظمة والاقتدار، وأن الجمال الظاهر للخلق هو جمال الجلال؛ فلا معيار للجمال إلا معيار الكمال الذي لا تشوبه شائبة نقصان وعليه فالجمال بهذا الاعتبار هو كمال الانسجام والتناغم والتوافق والتناسب في بنية الكائن الظاهرة والباطنة[1]. والوعي بالوجود هو قمة الوعي بالموجود، ولذلك ينظر الصوفية إلى الجمال من حيث هو أساس الكون والكينونة، ولهذا نراهم يزدادون تلذُذاً " فجمالية هذا الكون كما أوغلوا في إدراك الملائم والمنسجم في المرئيات والمسموعات"، وبالتالي فإن الرؤى الصوفية إلى الجمالية هي رؤية نابعة من علاقة قوامها الحب ومعانقة الجمال المطلق حتى وسعت هذه الرؤى مفهوم الجمال، فالمحبة هي المنبع الذي يصدر عنه نزوع الانسان لمعانقة الجمال في مختلف تجلياته، ومن هنا صارت الأنثى في الفكر الصوفي رمزاً للنفس الإنسانية المتطلعة إلى التعرف على الله [2].

2-التفكر في النفس والآفاق:

كما أن طريق الوعي بالجمال عند الصوفية هو التفكر والادراك والابداع. وتمام جمال الأحياء في كيفية خلقها وتكوينها في انسجام أشكالها وألوانها وحركاتها وطريقة عيشها، وتمام جمال السماء في عمارتها الكونية من غير عمد مرئية تربطها قوانين دقيقة في التجاذب والكتلة والسرعة، وتمام جمال الأشياء كلها في كيفية إيجادها، وبكشف هذا الايجاد يدرك الانسان مهمة هذا الخلق.

والتفكّر في الجمال يحقق لذة جمالية لدى المتفكر، كما يُحقق له حرية أوسع، اذ عن طريقه يستوعب الجمالات الكونية مرتبطة بوظائفها، فتثير في نفسه حركة عقلية ووجدانية تقضي به إلى اليقين، ذلك أن جمالات الكون هي واقعية شاملة، تزوده لا محالة برؤية كونية أو هي ذات قيمة عليا تحمل إشارات معرفية ينكشف الغطاء عن دلالاتها السيميولوجية مع تقدم العلوم والمعارف الإنسانية، كما أنّ الرؤية الصوفية كحركة ترى الجمال بعدا معرفيا يرقى بالإنسان إلى الكشف عن أسرار

[1]-ينظر عبد الفتاح رواس، **مدخل إلى علم الجمال الإسلامي**، دار قتيبة للنشر والتوزيع، بيروت، 1991م، ص37

[2]-عبد المجيد الصغير، **قيمة الجمال في تداولها الاسلامي**، مجلة "عوارف" العدد 1، ط2007، ص 81

الحلف [1] فعندما يدرك الانسان وجود الخالق إدراكا صحيحاً، يؤمن به ايمانا جميلا يليق بالله تعالى، يكون قد جمع بين سعادتي الجمال والايمان حيث تتحقق لديه سعادته باكتشاف أسرار جمال الكون وتزداد هذه المسألة بحكم الصلة بين الانسان والأشياء كروحين تتبادلان التواب والرحمة، وتجتمعان على التسبيح، فالكل له طبيعة روحية خاصة به لقوله **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[2] وبالتالي فإن الوعي بجمال النفس وجمال العالم يزداد بازدياد فاعلية الارتداد الإيماني، وتنعكس تجلياته في جوانب من النفس والعبادة وقد ذكر القرآن الكريم نماذج منها كقوله **تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [3] وقوله ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [4] وقوله **تَعَالَىٰ:** ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا ٥﴾[5]، وهذه كلها أفعال جميلة أنتجها الإيمان، وبالتالي فإن الإيمان وحده من يحافظ على استمرار العلاقات الإنسانية والاجتماعية لأنها من موضوعات الجمال ومظاهره، ذلك أن الإيمان يجعل من الانسان قيمة جمالية عليا في الكون، وهو كائن مرتبط بقيمتين جماليتين تجمعان النفس والحياة معاً وهما: الإيمان والعقل الاجتماعي، فالإيمان وما ينجم عنه من منظومات أخلاقية نبيلة وعلاقات حياتية وقضية جمالية، كما أنّ قيم الجمال تشبه وتختلف باختلاف ما يؤمن به الأفراد والجماعات، فالشرف والعفة والنزاهة مثلا في مجتمع يؤمن بالقيم الروحية هي أفعال جميلة؛ ولكنها في مجتمع لا يؤمن إلا بالقيم المادية تعتبر أفعالا متخلفة قبيحة والدفاع عن الوطن، والمطالبة بالحرية هما فعلان جميلان في ظل مجتمع يعاني القهر والاحتلال والظلم، غير أنهما فعلان قبيحان من وجهة نظر المحتل والمستعمر، وعليه

---

[1]-ينظر عبد الفتاح روّاس قلعه جي، **مدخل إلى علم الجمال الاسلامي**، مرجع سابق، ص 38-39

[2]-سورة الإسراء، الآية 44

[3]-سورة الحجر، الآية 85

[4]-سورة المزمل، الآية 11

[5]-سورة المعارج، الآية 5

فإنّ الإيمان وحده هو الوحدة القياسية المشتركة التي تكاد تكون نفسها في جميع الديانات [1].

فالجمال عند الصوفية يتأسس على الوحدة والعشق والانسجام، فكل الحقائق في نظرها سماوية – أرضية فما يظهر لنا أرضيا هو في باطنه سماوي، وما يظهر لنا سماويا هو في باطنه أرضي، ذلك أن العلاقة بين السماء والأرض هي علاقة محبة ووحدة، فالمعرفة هي هداية الله للإنسان[2] لقوله تعالى:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [3]، وبها تأهل ليكون خليفة الله في الأرض، وصانع الجمال فيها، وبالتالي فالعلاقة هي معرفة ارتقائية جمالية بينه وبين خالقه، ولا وجود فيها لثنائية الصراع أو فكرة المقدس، فالحياة لها سمة الديناميكية، وهذه الديناميكية تقتضي الحركة وتوليد الطاقة لاستمرار الحركة، وهذا لا يتم إلا بالاحتكاك والمقابلة وهذان لا يمثلان صراعا وتضاداً وإنّما هما مجاهدة، والمجاهدة أمر داخلي يقوم في النفس بين نوازع الحق والسمو، وبين نوازع الضلال والهبوط، كما أنّها كذلك أمر خارجي يقوم في المجتمعات بين الناس لمواجهة الانحرافات، وفي إطار الثنائيات الشكل والمضمون، الله والانسان السماء والأرض، ولكن في إطار رؤية صوفية للجمال، لا وجود لمثل هذه الثنائيات في الشكل والمضمون، والنفس والجسد والمادة والروح واللفظ والمعنى – لأنّها التمام المطلق عندهم، فالأُحادية الصمدية روح جمالية تولد المتعدد، ومن المتعدد تنبثق الابداعات والحريات، وبالتالي أداة الصوفي الوحيدة هي الرؤية المواجهة المسلكة لموقف جمالي، ولا تصح إلا شهود بصائري عالِ، لأن صحتها متوقفة على مدى استيعابها فيوضات مطلق الجمال حيث رؤية الصوفية للجمال قهر للضرورة في الكون، وتمزيق للحجب للوصول إلى الحرية التي هي فهم لقوانين الحكمة التي يسير عليها الكون[4].

وبالتالي يعد الجمال إحساسا إنسانيا متجذراً في جوانب الإنسان ولأجل صفة إنسانية كانت له ضوابط عامة ترقى به عن حضيض الإحساس الحيواني الساذج القائم على محض الشهوة والإشباع

---

[1]- ينظر: عبد الفتاح روّاس: **مدخل إلى علم الجمال الاسلامي**، مرجع سابق ص 42-47

[2]-سورة المزمل، الآية 11

[3]-سورة البقرة، الآية 31

[4]-ينظر: أحمد بلحاج أية وارهام، **الرؤية الصوفية للجمال**، مرجع سابق، ص (39-41)

الغريزي، ولا يمكن للجمال أن تكون له هذه القيمة إلاّ في ضوء رؤية ترفعه إلى مستوى القيم الإنسانية الثابتة والمطلقة.

فالصوفي حين يتأمل الجمالية في الكون، وضمنها جمالية الطبيعة والأنثى، إنّما يتأملها من خلال دلالتها الوجودية المباشرة أي من خلال ظهورها المشخّص عبر كائنات الطبيعة، أو عبر مفردات الكون كله، غير أنّ هذه الجمالية الخاصة بالشكل الوجودي تظهر له مجرد امتداد لجمالية أوسع هي بذاتها جمالية الذات الإلهية المتجلية عبر كل شيء، وحينئذ يكشف المعنى الباطن للجمال، غير أن هذه الفقرة من الدلالة الوجودية المحدودة إلى الدلالة الرمزية المكشوفة إلى اكتشاف دلالات أخرى أعمق وأبعد، فرمزية الجمال الإلهي ما هي إلاّ معبّر لرمزية الجلال الإلهي ومظاهره، وهذه جسر العبور الأقصى وفق جدلية الظاهر والباطن [1].

أما عن حب الجمال طبيعة في الإنسان، يُعد وصفة إلهية عالية، يقول النبي ﷺ: "إنّ الله جميل يحب الجمال" [2] وفي حب الجمال قسمان: قسم نظر إلى جمال الكمال؛ وهو جمال الحكمة، فأحبّه في كل شيء محكم وهي صفة الحكيم وهؤلاء هم الصوفية، وقسم آخر لم يبلغ هذه المرتبة، وليس عنده علم بالجمال إلا هذا الجمال المقيد الموقوف على الغرض وهم عامة الناس [3] وهذا الجمال الإلهي له معاني وصور فالمعاني هي الأسماء والصفات والأوصاف الإلهية والصور هي تجليات تلك المعاني فيما يقع عليه من المحسوس أو المعقول، والجمال من حيث هو هبه إلهية ولا يتجسد في الظاهر فقط، بل يمتد إلى الباطن ليكون صورة قصوى للجمال وإلى السماع فيصير إلى ما تتطهر به القلوب وتهيء لولوج باب الشهود والجمال الباطن عند الصوفية هو الصورة القصوى للجمال، فهو علم بالنفس، يعرف الإنسان به نفسه وربّه والمخلوقات المعرفة التي تجعله يتصور رسوم معاني الجمال والجلال والكمال الرباني، بقدر قابليته لاقتباس تلك الأنوار القدسية، واستجلاء تلك الأسرار في السر

---

[1] -عبد القادر الكيلاني، **فتوح الغيب**، دار احياء التراث العربي، مطبعة منير بغداد، 1984، ص 17

[2] -سبق تخريجه.

[3] -عبد الكريم الجيلي، **شرح الأسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأسرار**، مطبعة الشيماء، دمشق (1920، ص 173)

حتى تكون معانيها مشهودة شهادة يقين [1] ويكون جماله الباطن جمالا جلاليا، ظاهرهُ جمال وباطنه كالشهوات مما يؤهله للسماع من الحق ومن الخلق سماع جمال منزّه عن كل غرض سوى استكناه معنى الربوبية[2].

-**السماع الصوفي**: هو نوع من الجمال تطهر به القلوب من جنابات الغفلة وتصقل به النفوس من شوائب الحظوظ والتهافت والتكالب على ما لا يُغني عن علاّم الغيوب وتهيّأ لدخول حضرة الشهود [3] إذ بحصول هاته الطّهارة يتحقق الصوفي بحقيقة العبودية، ويستكنه ذوق معنى الربوبية، فتبدو عليه أمارات الطرب، وعلامات الفرح لا فرحاً بنفسه وتقواها [4]، بل زهواً بمولاه الذي ارتضاه عبداً كما عبّر عن ذلك القاضي عياض:

وممـــــا زادني فخـــــرا وتيهـــــا وكـــدت بأخمصـــي أطـــأ الثريـــا

دخولي تحـــت قولـــك يـــا عبـــادي وأّن صـــيرت أحمـــد لي نبيـــا[5]

فعن هذا الزهو تصدر موسيقى الصوفية تعبيراتها الجمالية الباطنية التي تسمى في الكون، وتبرز التجارب الروحية للقوم ومقاماتهم وأحوالهم وأذواقهم وأوقاتهم، وتنبئ عن طرق وجدهم وتجليات مكاشفتهم، وعن طرائقهم في التربية والتأهيل، فبالسماع تصبو الروح إلى معنى الجمال والكمال المطلق، وهذا النسغ الروحاني هو ما يبلّل تلاحين القوم بالبهاء حيث يصير للإنصات الدّهش عبر الرقص الصوفي الملتهب في الحروف والكلمات، والمترقرق على الحناجر والأصوات أو في الأوتار المشبعة بسّر الوتر واللاهبة بذكر الحق، وبذلك يتحقق المراد الذي قال عنه أبو مدين العون [6]

لا تحســـب الـــزمن الحـــرام مرادنـــا مزمارنا التـــســـبيح والأذكـــار

---

[1]-ينظر أحمد بالحاج آية وارهام، **الرؤية الصوفية للجمال**، مرجع سابق (ص 143-144)

[2]-المرجع نفسه، ص 144

[3]- المرجع نفسه، ص 143-144

[4]- المرجع نفسه، ص146

[5]- المرجع نفسه، ص 144

[6]- المرجع نفسه، ص147 .

إن السماع الصوفي غيبي ينبجس من اصطدام الأجساد وسط حلق الذكر، وحلقات الذكر هي فراديس الأرواح التي تعبق فيها المحبة الشاملة لله ولمخلوقاته كلما انهمر ماء السماع، إذ به تحّن الروح لأصلها في عالم اللطافة والأزل، ولقد سئل الجنيد عن حالة الاضطراب التي تعتري المرء أثناء السماع مع أنّه يكون هادئاً قبلها، فقال إنّ الله تعالى لما خاطب الذّر في الميثاق الأول بقوله تَعَالَىٰ:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [1] استفرغت عذوبة سماع الكلام والأرواح، فلما سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك [2]، وهذا التحريك له آثار بالغة في نفسية المتلقي تختلف باختلاف قابليته واستعداده.

وبالتالي فإنّ آثار الجمال تتباين على النفس المدركة إلى الحد الذي تصبح فيه هذه النفس غائبة عن ذاتها، فانية في الجميل الذي استولى عليها، ولعل أبرز مثال لهذا الموقف النسوة اللائي قطعن أيديهن لّما نظرن إلى جمال يوسف، فالجمال حين يطالع عين الروح بالأسرار والبهاءات والكمالات والمحاسن يكون أقطع في تقطيع القلوب عن الأجساد، حتى تصير سائحة فيه [3]، وبذلك من استولى عليه الجمال انقلبت أحواله عطشا في عطش، مهما كان نوع الجمال الذي قهره[4].

---

[1]-سورة الأعراف، آية 172

[2]-الشيخ محمد الكسنزاني، **موسوعة الكسنزاني فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان**، دار آية، بيروت، 1426-2005، مج 4، ص 269

[3]-ابن العربي، **نصوص الحكم**، تحقيق أبو العلاء عفيفي، طح، دار الكتاب العربي، بيروت 1980، ص2، 49

[4]-أحمد بالحاج آية ورهام، **الرؤية الصوفية للجمال**، مرجع سابق، ص145.

المبحث الثاني: رؤية الغزالي للتزكية الأخلاقية

المطلب الأول: مفهوم التزكية عند محمد الغزالي

يرى محمد الغزالي أنّ عملية التزكية هي عمل يقوم به الفرد من أجل نفسه ليصلحها؛ وهو عمل مرهق جاء يكسر الرغبة الجامعة وهو بذلك يخضع لوصايا الرحمن لقوله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ ﴾ [1]، فإذا لم يكن الدّين كبحاً للهوى وامتلاك للطبع فلا خير فيه ولا جدوى منه[2]؛ حيث يشير محمد الغزالي أنّ القرآن الكريم قد أكّد على أنّ تزكية النفس والسمو بالجانب التربوي هو الغاية من شتى التكاليف، والتزكية المنشودة هي التربية الصحيحة وهي تصفية المعدن الإنساني، وجعل الغرائز كلّها تحت رقابة العقل فلا تطغى ولا تجمع [3]، لعل رؤية الغزالي للتزكية عميق، إذ في نظره هي الوسيلة لتحلية الفرد من شوائب الطين وآثار الأفكار الدخيلة على فطرة الإنسان المسلم وثقافته الأصلية، لذلك نجده يدعو إلى تفعيل التزكية في فكرة لأنّها تستطيع اجتناب الزوائد الموجودة في تكوين الفرد والناتجة عن طبائع الفجور.

ومنه فإنّ فقدان التربية السليمة والتدين الحق يجعلان الدنيا جحيما والعلاقات البشرية في الحضيض، حيث أن التدين الحق هو أن تكون العلاقات البشرية محكومة بمعالم القوى وخشية الله والتأهب للقائه وفي هذا الصدد يقول محمد الغزالي "أني لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق" كما أنّه في نظره أن التربية عمل يستغرق العمر كله، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل، ومن الخطأ التصور بأنّها بناء يتطلب بعضه لشهور أو يضع شيء ليعقبه انسجام واسترخاء، فالمؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظاً طول الطريق وإلا فقد يهلك في ساعة اغفاء [4]، والتربية الصحيحة هي التي تستبقي من الشهوات القدر الذي تقوم به الحياة، وتراقب بحذر ما فوق ذلك وفي تراثنا الديني معالم مشرقة لهذا المنهاج الذي ينشئ النفوس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وبدوره يذكر محمد

---

[1]-سورة النازعات، الآية 37-38

[2]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل**، ص 7-8

[3]-المصدر نفسه، ص 67-68 ، وينظر: خلق المسلم ص 28-29

[4]-المصدر نفسه، ص94

الغزالي أنّه في تأمّله للتراث الإنساني الخصب الجامع بين الدين والفلسفة والأدب، لم يجد أعتى وأدق ولا أرقى من الثروة التربوية التي تركها محمد عليه الصلاة والسلام [1]، ولعل الروح القرآنية ونورها هي ما جعلت محمد الغزالي يعطي في منهجه الأسبقية للتربية الروحية والتزكية؛ حيث يدعو إلى تربية شاملة وعميقة، قلبية ونفسية، ربانية قبل كل شيء، وفكرية عقلية وعملية، وهذا ما يبرر في مفهوم الاحسان القرآني الذي جاء ذكره في قوله تعالى:﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [2] كما أنّ قول النبيّ ﷺ: "أن تعبد الله كأنك تراه" فالإحسان هو سماع، وقبول، وتربية وتمثل، وتزكية ومما زاد في تركيز محمد الغزالي على قضية التزكية الأخلاقية ما لمسه من الخطط المدروسة من المستشرقين الموجهة في الأساس لحرب المسلمين في أخلاقهم وفي عاداتهم وتقاليدهم الحسنة، وقد أفلحوا في تفكيك منظومة الأخلاق، وتحقيق الغاية من ذلك، من خلال ما وضعوه في مقررات التعليم وبرامج الاعلام، وتمكن الغزو الفكري والاحتلال الثقافي أن ينجح فيما فشل فيه الغزو العسكري.

كما يعد الخلق في نظر الغزالي القاعدة من السلوك، يلتزمها الانسان الذي يعيش في جماعة، وهذا مفهوم علماء الاجتماع الذين يرون أنّ الجماعة نفسها هي التي وضعت قواعد سلوك خاص تسير عليه، وتضمن لنفسها البقاء متى حرصت على السير وفق هذه القواعد؛ وبالتالي فالجماعة عندهم هي كل شيء، وأنّ الفرد ليس شيء في هذه الناحية السلوكية في الأقل، والانسان الذي يعيش وحده في جبل كما يتصوره الفرديون ليس له خلق –على حد تصورهم- فلا يسمى سلوكه خلق، لأن الخلق التزام شخص وآخر، أو هو عقد والتزام بين شخص وآخرين؛ أما السلوك الفردي بمعناه المطلق فغير موجود، ومن ثمّ لا يتصف صاحبه بالخلق، ذلك أن الانسان عند الاجتماعيين منذ وُجد في جماعة، وعرفها وسلك مع أفرادها سبلا للحفاظ عليها.

في حين يخالف علماء النفس تعريف الاجتماعيين، حيث يرون أن الانسان أصل تدور عليه الإنسانية، وأنّه فرد يتكرر حتى يكوّن الجماعة، فإذا أهمل هذا الأصل ابتداءً اهملت الجماعة التي يخشى

---

[1]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل**، ص95

[2]-سورة النحل، الآية 90

على مركباتها وأجزائها، وإذا فسدت هذه الأجزاء فسد الكل، وقد سئل "انشتاين ألبيرت" [1] عن علاقة الدين بالأخلاق وعلاقة الأخلاق بالعلم فأجاب: إنّ احساسنا الجمالي وأحكامنا الأخلاقية وفطرتنا الدينية، الدين، الجمال والأخلاق كلّها مسائل عير علمية، والعلم قاصر بازائها عاجزا تماماً. هذه الثلاث تعتبر وسائل مساعدة تبلغنا أبعد الغايات وتعيننا على انجاز أعظم المنجزات ثم يضيف انشتاين محاورا: صحيح أنّ هناك جانبا أخلاقيا في العمل العلمي، صدق العلم ونزاهته؛ أشياء مثل هذه ولكنّك لا يمكن أن تعكس المسألة لنقول انّ هناك أسسا علمية للمسألة الأخلاقية، وكل محاولة لاختزال الأخلاق في صيغ علمية حتما ستفشل" وبعض المفكرين يقولون أنّ هناك ملحدا حسن ممن يدّعون التدين؛ وهذا أمر طبيعي جداً! ممكن ملحد وهو خلوق كما نجد متدين وهو غير خلوق، أما مسألة أنّه يمكن تأسيس الأخلاق على الالحاد فهذا ضرب مستحيل، يعني هناك ملحدون أخلاقيون لكن ليس هناك إلحاد أخلاقي، وهذه أكبر المعضلات أمام الملاحدة أن يؤسسوا الأخلاق على الإلحاد ولذلك نجدهم لا يصرخون ولا يتردد بعضهم في أن يقول: أن زنا المحارم عادي إذا وقع بالتراضي، وكذا العلاقة الجنسية مع الحيوانات، منهم الفيزيائي الأمريكي "فيكتور" ستينجر" صاحب كاتب "الاله الفرضية الفاشلة" عندما سئل عن هذه العلاقات أجاب أنه أمر عادي إذا كان يحدث امتاعا، ومنه ندرك فلسفة الالحاد في تحقير الانسان فهو مجرد شيء في الكون أو حشرة فيه كما يقول "هوكنج": انتهى العهد الذي ترى فيه نفسك أنك سيد في الكون أمام هذه المفاهيم والفلسفات الالحادية".

المطلب الثاني: علاقة الايمان بالخلق وأثرها على البناء الروحي

تتميز فطرة الإنسان بازدواجية؛ فطرة طيبة تدعو إلى الخير وهي الغالبة، ونزعات طائشة تأمره وتزين له ما هو سيء، ومن رحمة الله بالإنسان أنّه لم يدعه لفطرته واستعدادها أن بعث رسالات، يبلغها الأنبياء والتي تضع له الموازين الثابتة وتكشف له عن موجبات الايمان ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، فيتضح له الطريق. ومن هنا كان الايمان بالله تعالى ضروريا لاهتداء الانسان، ذلك أنّه قوة دافعة لمكارم الأخلاق، ورادعة لمساوئها.

[1]-موقع فضاءات فلسفية، **الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة**.
http://www.ssrcaw.org/ar/art/show.art.asp?aid=317991

ومن ثمّ اعتنى القرآن الكريم عناية خاصة بعلاقة الايمان بتزكية الخلق، حيث توجد في القرآن 1504 آية تصل الخلق بالإيمان، وكذلك الأمر في السنة النبوية الصحيحة كثير منها ما تبيّن هذه العلاقة، وفي هذا أكدّ محمد الغزالي وهو يتمعّن آيات القرآن أن الله عندما يدعو عباده إلى الخير أو ينفرهم من شر يجعل ذلك بمقتضى الايمان المستقر بقلوبهم، وكثيرة هي الآيات التي جاء فيها قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم يذكر الله بعدها ما يكلفهم به كقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ [1] فقد اعتمد القرآن الكريم في أسلوبه لتمكين المؤمنين من الاستجابة لأوامر الله؛ بأن ربط كل تعليم من تعاليمه بالتزكية الأخلاقية التي تعد أساسه ومثال ذلك عندما يدعونا إلى قبول الصلح يؤيد دعوته تلك بالحكمة العظيمة قوله تعالى:﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ ﴾ [2] أمّا عندما يأمرنا سبحانه وتعالى بإيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم فيقول تعالى:﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ ﴾ [3]

وتقريرا أيضا لهذه المبادئ الواضحة في صلة الايمان بالخلق حرص محمد الغزالي على تأكيدها والتأسيس لها، مستشهدا في ذلك بقول النبي ﷺ: فيما روى عن أنس "إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل، وأنّه لضعيف العبادة، وإنّه ليبلغ سوء خلقه أسفل درجة في جهنّم" [4].

---

[1]-سورة الحجرات، الآية 11

[2]-سورة النساء، الآية 128

[3]-سورة الإسراء، الآية 35

[4]-أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، 7542، ج1، ص260 مكتبة العلوم والحكم ص (1983-1404) ت، أحمد بن عبد المجيد السلفي.

كما يشير محمد الغزالي إلى أن الطبع الفظ والقلب القاسّي والتبلّد أمام آلام البشر من أسباب الهزائم الكبيرة التي لحقت في هذا العصر، إذ أنّه يأسف كثيرا لحال المسلمين الذين لم يجمعوا من عناصر التربية والأخلاق التي من شأنها أن تنبت الأمة في مغارسها وتحدي على رسالتها، في وقت تعربد فيه شياطين الانس والجن، ويكادُ الهوى لينفرد بزمام العالم [1].

المطلب الثالث: علاقة العبادات بالأخلاق:

تبين من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن أركان الإسلام ومبادئ الأخلاق، أنّ التوجيهات الأخلاقية فيها تتظافر مع غايات العبادات ومقاصدها لإصلاحها، مع ضبط وتوجيه سلوك الانسان بما يتفق وأهداف الايمان بالله، لذلك يرى محمد الغزالي أنّ الأخلاق في العقيدة الإسلامية تسبق الأخلاق حيث يقول: "كان المتصور أن تسبق العبادة الأخلاق على أساس أنّ الأولى هي حق الله والثانية هي حق الناس، ولكن تبيّن لي أنّ الأخلاق تسبق العبادة ويكون ترتيبها على النحو التالي: الايمان فالأخلاق فالعبادة" [2] وهو بهذا المفهوم يوضح مهمّة العبادات في الإسلام بعد ترتيبها حيث يقول: فهي ليست طقوسا مبهمة من النوع الذي يربط الانسان بالغيوب المجهولة ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها، كلا !كلا ! فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه من تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف [3].

وفي نظره أنّه رغم تباين العبادات في جوهرها ومظهرها إلا أنّها تلتقي عند الغاية التي بعث الرسول من أجلها وهي مدارج الكمال المنشودة [4]، وروافده التي تصون الحياة وتعلي من شأنها.

ويستند محمد الغزالي في ترتيبه للأخلاق قبل العبادة إلى السنة النبوية الصحيحة، كالحديث الذي يشير أنّه إذا توافرت ثلاث خصال في الفرد فإنّه منافق وإن صلى وصام وهي الكذب وخيانة

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص 73

[2]-محمد يوسف، **تجديد الفكر الاسلامي على مشارف قرن جديد**، قراءة في تجربة الشيخ محمد الغزالي، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط 1419-1999، ص 84

[3]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص7

[4]-المصدر نفسه، ص9

الأمانة وخلف الوعد أو كما جاء في قول النبيّ "أربع من كنّ فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر"[1].

ففي الصلاة مثلا يقول محمد الغزالي: "فالابتعاد عن الرذائل والتطهير من كل سوء القول والعمل هو حقيقة الصلاة" [2]، ذلك أن إقامة الصلاة في جوهرها هي تزكية للنفس والخلق بعد أدائها، وهي الثمرة المرجوة منها وفرق بين أداء الصلاة وإقامتها، فأداؤها في المسجد أما اقامتها في النفس والخلق لقوله ﷺ: "ما لم تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له" [3]،حتى أن للغزالي فلسفته في الصلاة على النبيّ محمد حيث يقول: "إن الصلاة والسلام على النبيّ ﷺ توكيد منهج وتحّمل عبء، ومشاركة قلبية وفكرية لإنسان حرر الايمان من الخرافة، ونقى الحق من الشوائب، وربط الفطرة السليمة بالوحي، وصالح بين العقل والدين، وجعل الدنيا مهاداً صالحا للأخرى [4] وفي علاقة الخلق بالعبادات عندما رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت توجّه إلى الله بدعائه قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [5] يعني أن الصلاة ترفع القواعد من الانسان؛ فهي أسمى الوظائف الإنسانية لأنّها تبني الانسان وهو العنصر الجوهري في بناء الحضارة، حيث أن جميع الحضارات الإنسانية شيّدت في ظلّ سقف المعابد كما ذكر مالك بن نبي، التي كانت مأوى إلى تهذيب النفس وتزكيته، خلاف المسلمين، وبدوره يدعو محمد الغزالي إلى أن لا تكون هذه الصلوات مناجاة لله فحسب، بل هي مناجاة لرب يطلب من عباده أن يطلبوا وجهه، وهم في مشاغل العيش وقضايا الدنيا المليئة بالعقد، وأن يجعلوا هذه الساعات بين يدي الله دعائم لإحسان ما يليها من سائر العمر؛ وهي إشكالية يطرحها محمد الغزالي؛ كيف تمتد

---

[1]-أخرجه الامام مالك بن انس في موطئه، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الحياء (ص160-568) فؤاد بن عبد الباقي، جار الكتب العلمية ج3، بيروت ويقول بن عبد البر في هذا الحديث هو حديث حسن مدني صحيح من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، التمهيد لما جاء في الموطأ من المعاني والأسانيد، مصطفى بن محمد العلوي، محمد عبد الجبار، مؤسسة قرطبة، ص 335

[2]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص 7

[3]-رواه الطبراني في المعجم الكبير، ج11، ص54، رقم الحديث: 1125، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2.

[4]-محمد الغزالي، **الطريق من هنا**، ص60

[5]-سورة إبراهيم، الآية 40

ساعات الصفاء الروحي في حياتنا فلا نضفي عليها طباع السوء ولا تحرفها لدار الدنيا وأهوائها؛ [1].

وفي عبادة الصوم يقول: فالله لم ينظر إلى الصوم على أنّه حرمان النفس دائما من شهواتها المحظورة ونزواتها المتكررة [2]، فالصوم في نظره؛ خطة واضحة لتزكية القلب، وتدريب الناس على المعنويات العالية، وتعليمهم كيف يعملون على الخير ويتركون الشّر، وبالتالي فإنّ العبادات إذا افتقدت للأخلاق رفضت، وبالتالي فإن الصائم في نظر الغزالي ملاك في صورة انسان لا يكذب ولا يرتاب ولا يخادع ولا يأكل أموال الناس بالباطل ولا يؤذيهم بلسانه ويده وقلبه بحسده وحقده عليهم، وهذا هو معنى الصوم الذي يجمع صورته وهي الإمساك على المفطرات، هو تقوية روح الايمان بالمراقبة وبهذا يجمع الصائم بين تخلية نفسه وتطهيرها من المدنسات وتزكيتها بالطيبات وهذا ما اشار إليه حديث النبيّ ﷺ: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"[3] وقوله أيضا: "ليس الصيام من الأكل والشرب وانّما الصيام من اللغو والرفث". فالصيام شهر للتأمل وتنمية الإرادة والعزيمة والضمير والتقوى وتزكية الأخلاق.

وعن فريضة الحج فهي رحلة ترويض وتربية الانسان على أدب اللسان والفقه حيث يقول محمد الغزالي: "إننا نريد أن نجعل من الأمة الإسلامية في هذه المرحلة أمة تتعلم أن تكون أمينة على شمائلها وفضائلها، لأن السفر يكشف الأخلاق ويبلو المعادن "فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج"[4]، فالعبادات هي عملية تربية للنفس وتزكية للأخلاق وبهذا يصبح الخلق مقياسا لكمال الايمان كما جاء في قوله ﷺ: "أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا" [5] فالخلق في نظر الغزالي ليس نباتا طفيليا ينمو وحده، وإنّما هو غرس تختار له التربة ويتعمد بالسعي والتهذيب، ويُمحي من

---

[1]-محمد الغزالي، **مع الله**، ص 32

[2]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص 8

[3]-أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب: من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم،ر قم 1804، ص673/2. كما أخرجه التميمي، كما أخرجه ابن نزيمة في صحيحه: كتاب الصيام، باب: النهي عن قول الزور والعمل به، فالجهل في الصوم والتغليظ فيه، 1995، ج3، ص241. المكتب الإسلامي، بيروت، 1390هـ- 1970م ، نر: محمد مصطفى الأعظمي.

[4]-عبد القادر نور، **حديث الاثنين للشيخ محمد الغزالي**، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص 109

[5]-أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاني الأخلاق

الأوبئة والحشرات إلى أن ينضج ويؤتى ثمره [1] أي أنّ الخلق لا يكون فجأة ولا يولد قويا ناضجا رغم فطرة الانسان الطيبة، بل يتكون على مكث وينضج بالدوام من خلال حسن العبادة والاقبال على الطاعات وهي عملية التزكية؛ والأخلاق بحاجة إلى رعاية دائمة من عناصر البيئة كلها في البيت والشارع والمدرسة والاعلام والدولة.

وبالتالي فالعبادة ليست كلمات جامدة تخرجها من بطون الكتب نودعها في بطون العقول، بل هي تفاعل فكري ووجداني وأخلاقي مع حقائق الوجود تميّز نفسا زكية وخلق حسن وعمل صالح؛ والفرائض التي ألزم الإسلام كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه لظروف [2] ذلك إذا نمت الرذائل في النفس وفشا ضررها وتفاقم خطرها انسلخ المرء من دينه كما ينسلخ العريان من ثيابه ويلخص محمد الغزالي المفارقات الموجودة في واقع المسلمين وعدم انعكاس العبادات على الخلق فيقول: "وكثير من العابدين يباشرون العبادة كأنها استعارات من خارج الجو الذي يعيشون فيه، استعارات مجلوبة على النفوس، فارغة من معناها كلّه، أو جلّه والحق أنّ العبادة التي أمر الله بها أجلّها شأنا فوق ذلك، إنّها شعور مكتمل العناصر، يبدأ بالمعرفة الفعلية ثمّ الانفعال الوجداني ثمّ بالتروع السلوكي، فالصورة الأخيرة ثمرة ما قبلها وهذا هو شأن الوضع الصحيح لإقامة الصلاة وايتاء الزكاة واحسان الخلق وقول الحق وسائر العبادات" [3].

وخلاصة القول أنه لابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه وهي التزكية حتى تصلح عمل مرهق جاء يكسر الرغبة الجامحة كم يخضع الانسان لوصايا الرحمان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [4].

---

[1]-علاء الدين وحيد، **محمد الغزالي وتحطيم القيود**، دار سنابل للنشر والتوزيع، مصر، ص69

[2]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص10

[3]-محمد الغزالي، **ليس من الإسلام**، ص 107

[4]-سورة النازعات، آية 37-41

وأشكال العبادات لا تضع ذلك التغيير الحاسم إذا لم تمح الصلوات الحسد والحقد في نفس الانسان، والسجود الحقيقي ليس انطواء الجسم أمام الله بقدر ما هو انقياد القلب لهدايته ووصاياه.

المطلب الرابع: تصنيف الأخلاق عند محمد الغزالي

يوضح الغزالي مكانة الخلق في الإسلام فيقول: "إن الخلق في منابع الإسلام من كتاب وسنة هو الدين كلّه، والدنيا كلّها، فإنّما نقصت أمة حظا من رفعة في صلتها بالله أو في مكانتها بين الناس فبقدر نقصان فضائلها وانهزام خلقها [1] فلا دين بلا خلق، ولا خلق بلا دين، والخلق من مقتضيات الإيمان وحسن الصلة بالله، وحسن استخلافه في الأرض.

أما عن حقيقة الأخلاق وماهيتها يقول: "إنّ الخلق العظيم لأمة ما نتاج جملة من العناصر المتماسكة الكاملة تلتقي فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية والسياسية، ثم إن الخلق ليس قراءة ورقة أو سماع درس، إنه صناعة شاقة وتجارب متكررة، وتعلق مستمر ينتهي فإن يكون ملكة قائمة وصبغة ثابتة [2]

وعن رتبة الأخلاق في العقيدة الإسلامية يقول: "كان المتصور أن تسبق العبادة الأخلاق على أساس أن الأولى هي حق الله والثانية هي حق الناس ولكن تبين لي أن الأخلاق تسبق العبادة ويكون ترتيبها على النحو التالي: " الإيمان فالأخلاق فالعبادة " حيث يرى محمد الغزالي أن العبادة الأولى هي معرفة الله معرفة صحيحة، والعقل المستنير بهذه المعرفة هو القائد الواعي لكل سلوك صحيح، والأساس المكين لكل معاملة نقية وبناء روحي متكامل؛ ويوم تتلاشى هذه المعرفة من لب الانسان فلن يصح له دين ولن نقوم له فضيلة.

فالعبادات كما سبق ذكره في نظر الغزالي مقاصدها لا تضع التغيير في المسلم إلا إذا حققت مقاصدها في تغييره، ذلك أن السجود الحقيقي ليس انطواء الجسم أمام الله بل هو انقياد القلب والفعل لهداياته [3].

---

[1]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص 34

[2]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، ص 99

[3]-محمد الغزالي، **ليس من الاسلام**، ص167

فالخلق الحسن يكتسب من حسن الإيمان ومن الاقبال على الطاعات والابتعاد عن الرذائل ومجاهدة النفس، وهنا يلتقي بتعريف محمد الغزالي للخلق مع التعريف اللغوي والاصطلاحي، كونه خلقا ثابتا وراسخا حتى يصير طبعا.

ويلخص محمد الغزالي مفهومه للخلق فيقول: "الخلق هو الدين كله؛ حيث يشمل حقائق الإيمان وشرائع الإسلام بل إنّ غاية بعثة النبّي هي إتمام مكارم الأخلاق. أي إتمام الدين لقوله ﷺ: "انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1] وكأنّ الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة وبذل صاحبها جهدا كبيرا في مد شعاعها وجمع الناس حولها لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلها، واثارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يستمعوا إليها على بصيرة [2]. إلا أنّه بالنظر إلى الواقع نلاحظ ضعفا كبيرا حالة التزكية الأخلاقية يحتاج إلى كثير من التعهد وهنا يتساءل محمد الغزالي عن أخلاق المسلمين في العديد من كتبه [3] قائلاً: "أنّ العملة المتداولة اليوم في ميادين الحياة إنّما هي الأخلاق وهي لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها، وتتحاكم إلى منطقها، وربما اختلفت تقاليد وأحكام، ولكن الأخلاق تظل مرتكزة على ما أودع الله في الفطرة من تحسين الحسن وتقبيح القبيح، فأين رصيدنا كمسلمين من هذه العملة المبذولة بين الناس؟[4]؛ ونبينا القائل " إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[5] وفي نظر الغزالي أن هزيمة الأمة في العصر الحالي لا يرجع إلى العجز الصناعي والعسكري كما يرى بعض الباحثين بقدر ما هو شلل عضوي في أجهزتها الخلقية، وملكاتها النفسية، فالمجتمعات الإسلامية تشبه أحياء يقطع عليها التيار الكهربائي فغرقة في الظلام، إذ كان لابد عليها من اصلاح الخلل، إلا أنّها

---

[1]- أخرجه الإمام مالك بن أنس في موطئه، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الحياء، ح 1609 ص 568 محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية ج2، بيروت لبنان، دط دت، ويقال في هذا الحديث ابن عبد البر، هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت: مصطفى بن احمد العلوي ومحمد عبد الجبر البكرين مؤسسة قرطبة 333/24).

[2]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص7

[3]-ينظر محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص51، **عقيدة المسلم**، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، ص 82-83، **دستور الوحدة الثقافية**، **ليس من الإسلام**،ص89-100

[4]-ينظر محمد الغزالي، **الطريق من هنا نعلم** ، ص40، وينظر **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، ص84، **خلق المسلم**، ص34-35.كما كان يرددها محمد الغزالي في عدة محاضرات له في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية أيام الدراسة في مرحلة الليسانس 1984-1988م

[5]-سبق تخريجه في ص144.

ظلة في الظلام وهي تملك القدرة على اصلاح ذلك الخلل؛ فرغم أن تعاليم الإسلام.

يقسم الغزالي الأخلاق إلى قسمين أ-أخلاق ربانية **ب**-أخلاق إنسانية:

وهذه رؤية تجديدية له في منهج العقيدة والأخلاق مصنفا إياها كما يأتي:

1-الأخلاق الربانية: وهي دعامة التزكية الروحية: يرى محمد الغزالي أنها العناصر الحقيقية للإيمان بعد معرفة الله وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فهي التي تحدد علاقة المؤمن بربه وتكفل له توثيق الصلة به كما جاء في قوله: "تلك من الأخلاق الثمانية أحصيناها هي عناصر حقيقة الإيمان لنترك المباحث التي أضافها البعض إلى علم العقيدة..." [1] و هذه الأخلاق هي:

-خشية الله: يرى محمد الغزالي أنّ الخوف من الله عاطفة تنبع من حسن معرفته وكمال العلم له، فهي ليست وجلا مبهما لا يُدرى مأتاه أو نتائجه بل الخوف من الله وخشيته هو شعور واضح لجلال الخلاق العليم وما ينبغي له من جلال ومهابة واعظام [2] كما جاء في قوله **تعالى:**﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ ﴾ [3] وخشية الله بمقدار معرفته وادراك الانسان لشتى العلوم كما في قوله **تعالى:**﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ٢٨ ﴾ [4]، كما أنّ خشية الله من عناصر الإيمان، وبالتالي فالشعور بالرهبة يغمر الفؤاد من الله وحده [5] وقد يتعرض المؤمن في حياته لمخاوف شتى، لكن خوف الناس يتلاشى أمام اجلال الله واعظام أمره لقوله ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ ﴾ [6] وأن هذا الخلق أولى

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **ليس من الإسلام**، مصدر سابق، ص 98 **الجانب العاطفي من الإسلام**، مصدر سابق، ص (78-80)

[2]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 282

[3]-سورة النحل، آية 51

[4]-سورة فاطر، آية 28

[5]-محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص71

[6]-سورة آل عمران، آية 175

الأخلاق الفعالة ببلأجيال المسلمة، حتى ينشأ جيلا تقياً يقظ الضمير، كما أنه من سنن الله في النصر مخافة الله لقوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [1].

-الرجاء في الله: يرى محمد الغزالي أنه شيء ليس هناك أقسى للنفس البشرية من فقدان الأمل، وغلبة القنوط وانكسار الإرادة، إلاّ أنّ الانسان في هذه الحياة لا يفلت من غيمة إلا وتحتويه أخرى، ولولا شعاع الرجاء في قلبه لغاب في الظلام، وهذا الرجاء يومض من الإيمان بالغيب والثقة فيما عند الله، ومن ثمّ فإنّ الماديين لا يعرفونه لأنهم محجبون بالأسباب الظاهرة، يستمدون أحكامهم من عالم المحسوسات وحسب [2] وليست الحاجة إلى الرجاء قاصرة على فرد بل إن الأفراد والجماعات كما ذكر محمد الغزالي يحتاجون إلى الرجاء والدعاء في جهادهم لأنفسهم وجهادهم للناس[3] ولهذا بيّن محمد الغزالي أن ما لحق بالمسلمين من قعود واستسلام لظروف التخلف راجع إلى ضياع الرجاء في الله تعالى، وفقدان الأمل فيما عنده وعدم تقديم أسباب هذا الرجاء، ولاستعادة حضارتهم أن يستعينوا بهذا الخلق وفق شروطه التي ذكرها محمد الغزالي حيث قال: "فإنّ الرجاء في الله تعالى وحسن الظن به؛ إنّما اقترنا بالعمل الواجب، وصحبهما الإسراع في حق الله تعالى والسهر على مرضاته، أما البطالة والاسترخاء فلا مكان لرجاء، ولا موضع لحسن الظن [4].

-حب الله: الحب هبة الله الراقية، وهو شريعة وشعيرة، وهو رسالة وأمانة لقوله **تَعَالَى:**﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن

---

[1]-سورة ابراهيم، آية 13-14

[2]-ينظر محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص 64

[3]-محمد الغزالي، المصدر نفسه، ص 65

[4]-ينظر محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 283

يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [1]،أيضاً ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [2]، فالحب رباط وثيق وتعارف لطيف وفكر رائد لا يقطعه زمن ولا تبدده أوهام، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يطمئن ولا يطيب إلا بعبادة الله وحبّه والانابة إليه، والحب ما كان في طاعة الله لقوله﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ **طه: ٣١ - ٣٤** وإلا ضاعت الأخوة والألفة وفقدت الثقة كمال الأخلاق؛ وعند محمد الغزالي هو رحمة وشفقة ونعمة وحسّ مرهف متسق مع الذات وهو ضروري في الكتابة، فهو ليس صفة كمال، أو درجة عليا يقتصر نبلها على بعض العابدين دون سواه من عامة الناس، كما يعتقد ذلك بعض المسلمين، بل هو من الأمور المشروطة لحسن ايمان الإنسان؛ بل أن فقدانه فسوق، حسب نظر محمد الغزالي وقد ينتهي إلى الكفر البواح [3]، وأهمية هذا الخلق تبرز بالنظر إلى أسبابه التي توضح مقصده:

أ. أن الله عزّ وجّل أهل لكل حب، فهو ولي النعم التي شملت حياة الناس وغمرتهم لقوله **تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [4]

ب.أن النفس الإنسانية تبهرها العظمة، ويعجبها العظماء، وسيرها عليهم والتودد إليهم، والله عزّ وجّل له الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر، فإنّ كان يتصور أن بحب الإنسان قادرا بكمال قدرته، وعظيما لجلال عظمته فلا يستحق الحب في ذلك إلا الله. وفي الوقت ذاته فإنّ العواطف الفاترة والأنفاس الباردة لا تحمي حقا ولا تصون شرفا، لاسيما إذا حشد الباطل جنوده بالأوهام ودفعهم بيأس شديد إلى اقتحام كل زحام، لقد وصف الله الرجال الذين يصلحون لدينه بأنهم قوم

---

[1]-سورة المائدة، آية 54

[2]-سورة البقرة، آية 165

[3]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 300

[4]-سورة النحل، الآية 53

يحبونه ويحبهم كما جاء في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [1]، كما تحدث محمد الغزالي عن نتيجة ضمور هذا الحب في قلوب المؤمنين من المكتملين حيث يقول: "والواقع أن علم العقيدة عندنا لما اتّسم بالجدل وأضفت عليه فلسفة اليونان الأخذ والرد والبحث تحّول إلى علم جاف عقيم وأمسى قدرة عقل على الاستدلال، لا قدرة قلب على تذوق حلاوة الإيمان ويجب أن تعود إلى قواعدنا الأولى" [2].ولعل نبع المودة الدافق من قلب الرسول ﷺ ما يبدل القلوب من حال إلى حال ويؤلف بينها بدلا من أن يفرقها وقد كان منهجه في دعوته في لمّ الشمل واحاطة الناس به بفضل تزكية أخلاقه وشمائله الجميلة.

– **ذكر الله:** الذكر في معناه هو عملية عقلية روحية تعيد الانتباه وتجلو الصدأ، وترد لليقين قوته وأثره تتحقق بذلك الغاية منه وهي الطمأنينة والأمن لقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [3]، ويعّرف محمد الغزالي الذكر فيقول: "الذكر جهاز الصيانة يصلح ما تعطل ويجدد ما بلي [4]: حتى لا تتعطل الوظيفة الأصلية، ويفقد ما لدينا قيمته وذاك سر قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [5] وهو أيضا تجديد أو توكيد لمعرفته الأولى بعد الإيمان، والإنسان في هذه الحياة في حاجة إلى مذكر دائم ليستديم معرفته لربّه، وإلاّ نسيّ وطال عليه النسيان فجهل[6]، ولقد لاحظ محمد الغزالي أن العصر الحالي هو أفقر العصور إلى معرفة الذكر بركونهم إلى حاجاتهم

---

[1]-سورة المائدة، الآية 54

[2]-محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص 68-69

[3]-سورة الرعد، الآية 28

[4]-محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، المصدر السابق، ص 68-69

[5]-سورة الحشر، الآية 19

[6]-محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، المصدر السابق، ص 300

الدنيوية فتناسوا بعدهم عن ذكر الله، والذكر الذي يجب تلقينه للأجيال المسلمة إلا ليس مجرد تجمع في حلقات وترديد لكمات بل هو عمل عملية عقلية روحية، وبذلك يبيّن محمد الغزالي كيف يتجول الذكر إلى طاقة إيجابية فعالة وأنّه أكبر من أن يكون حركة شفتين، انّه يقظة قلب ورؤية آيات، هو نضج خالص وهضم للنفس وإعظام لله وحده، أما إقامة الدين الصوري في نظره فهو امتداد للقصور العقلي والغرور الأعمى [1].

1- **التوكل على الله**: يعد حسن التوكل على الله من حسن معرفته تعالى وهو يؤمن بقوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [2]، فمن نضب فؤاده من التفويض إلى الله فقد الأخلاق الربانية ولكن المؤمن يقول كما قال هود لقوله تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [3] فمن خلا قلبه من هذا التوكل فقد أيضا دعامة من معالم الربانية وانطلق في الحياة محصورا داخل نفسه[4].

- **الصبر**: عرّف العلماء الصبر على أنّه حبس النفس على ما تكره[5]، وهذا تفسير إذا قصدنا به مواجهته الشدائد بثبات وعقل متزن؛ غير أنّ حبس النفس على ما تكره إذا عنينا به دوام الشعور بمرارة الواقع وأذاه قد ينتهي بالإنسان إلى حالة الكآبة والتبلد، وربما انهزم الصبر أمام المقارنات التي تعقدها النفس بين ما حرمت منه وما تشتهيه كما يقول الشاعر:

أَقُــولُ لِنفْسِـــي في الخَـــلاَءِ أُلُومُهـــا لَكِ الْوَيْلُ مـــا هَـــذا التَّجَلُّـــدُ وَالصَّـــبْرُ[6]

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع**، ص 84 .

[2]-سورة غافر، الآية 33

[3]-سورة هود، الآية 56

[4]-ينظر محمد الغزالي، **تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل**، ص84، **وسر تأخر العرب والمسلمين**، ص81، **والجانب العاطفي من الإسلام**، ص200

[5]-مجمع اللغة العربية المعاصرة، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط5، سنة 2011م، 200

[6]-الخطيب التبريزي، **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، ج1، ص448

وهذه نتيجة الاحساس المحض بالألم دون التماس نور يهدي في ظلمته، في حين أنّ الإسلام لم يطلب من الإنسان أن يتهم مشاعره حيال ما يترل به، لكن قد تكون محنته في طيّها منحة، وقد تكون ضارة نافعة، كما قد تكون هذه المتاعب التي يعانيها الإنسان باباً إلى خير مجهول، ولو أحسن الإنسان التصرف فيها لنفذ منها إلى مستقبل أطيب لقوله تعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[1]، وبناءً على هذا المفهوم عالج محمد الغزالي عدة قضايا من خلال فكره التحوّل والثبات، بمعنى عدم الاستسلام للظروف السلبية والتحوّل عنها إلى الظروف الإيجابية أو تحويل الليمون الحامض المر إلى شراب حلو المذاق [2]، وبالتالي فإنّ الصبر عند محمد الغزالي هو جماع كثير الفضائل وهو نصف الإيمان وعند أبو حامد الغزالي أنّ الصبر تختلف أسمائه باختلاف ما يصر المرء عنه فإذا كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمّي عفة، وإذا كان في احتمال مكروه سمّي صبرا وضدّه الجزع، وإن كان في احتمال الغنى سمّي ضبط النفس وضده البطر، وإن كان في الحرب سمّي شجاعة وضده الحبس وإن كان في لحظة الغيظ والغضب سمّي حلما وإن كان في نائبة سمّي بسعة الصدر وضده الضجر وإن كان في إخفاء كلام سمّي كتمان سر وإن كان عن فضول العيش سمّي زهدا وضده الحرص، وإن كان صبرا على قدر يسر من الحظوظ سمّي قناعة وضده الشره [3].

وعند الفلاسفة يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم، فمتى علم الإنسان الخير فعله، ومتى عرف الشر تركه، وهو بهذا يقارب رأي حامد الغزالي في أساس الصبر، إلا أنّه يشترط أن تصل المعرفة إلى اليقين حتى يُثمر الصبر حيث يقول: "ترك الأعمال المشتهاة عمل يثمره حال سمّي الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادة في الدنيا والآخرة فإن قوي يقينه أعني المعرفة التي تسمى

---

[1]-سورة البقرة، الآية 216

[2]-محمد الغزالي، **جدد حياتك**، ص38

[3]-ينظر زكي مبارك، **الأخلاق عند الغزالي**، دار الكتاب العربي بمصر، ص 132-133

ايمانا، وهو اليقين تكون الشهوة عدوا [1] كما يذكر أبو حامد الغزالي في موضع آخر أن المراد بالصبر هو العمل بمقتضى اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى [2]. كما يذكر ايميل يوراك في كتابه [3] أن العلم لا يكفي أساسا للفضيلة، فمعرفة الواجب لا تكفي القيام به، لابد من شيء أحبه أو كان يُحبه ويرى منصور فهمي وعبده وخير الدين [4] أن المعرفة التي يراها سقراط أساس الفضيلة، لابد أن تكون المعرفة الجازمة التي تُورث الإرادة ثم التنفيذ وبالتالي لا اعتراض على سقراط.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]-زكي مبارك، المرجع سابق، ص 134

[2]-نقلا عن زكي مبارك ، ص135، Cours élémentaires phylosophiques, pemil youmath p343

[3]-ينظر زكي مبارك، **الأخلاق عند الغزالي**، مرجع سابق، ص 135

[4]-ينظر المرجع نفسه، ص 136

المبحث الثالث: منهج محمد الغزالي في التزكية الأخلاقية:

تناول محمد الغزالي في كثير من كتبه [1] موضوع التصوف الإسلامي وهو ما سمّاه في كتابه بالجانب العاطفي من الإسلام حيث أراد أن يخرج بالتصوف إلى النور بعيدا عن الفكرة الغربية الفلسفية التي يرفضها، ومقصده في ذلك أن يجعل قلوب المسلمين متعلقة بالله وفي ذات الوقت يملكون الدنيا بأيديهم، فيخدمون بها دينهم، ويتعلمون كيف يحّولون الذكر إلى طاقة إيجابية فعّالة.

كما لاحظ محمد الغزالي أن جوانب من شعب الإيمان قد قتلت بحثا، كفقه العبادات والمعاملات، وأخرى لم تلق الاهتمام الكافي وهي المتعلقة بالتزكية الأخلاقية والنفسية. لذلك سعى في كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام" لرأب الصدع وهو يدرك أن كثيرا ممّا كتب في التصوف ينقصه المنهج العلمي ويغلب عليه الطابع الأدبي والشخصي، فمن النّاس أصناف: أصحاب العواطف الحارة وأصحاب العقول القوية، والمؤسف في هذا أن أصحاب العاطفة كثيرا ما يميلون للجهل والخرافات وأصحاب العقول يغلب عليهم الجفاء والقسوة، والإسلام لا يدعوا إلى هذا ولا ذاك، بل يؤسس الإيمان على ركائز عقلية، وهو أيضا عبادة قائمة على سلامة القلب والمحبة والأدب الزكي.

وفي هذا الصدد عرض محمد الغزالي في كتابه "الجانب العاطفي من الإسلام" مثالين، الأول كيف أن صدق العاطفة لا يبرر تجاوز المنهج العلمي، وكيف أن اطلاقها يرث الضلالة والبعد عن التفسير والتعاليم والنصوص لا يحقق الفائدة المرجوة [2]؛ ولذا فمنهج محمد الغزالي المتزلة بين الاثنين انصافا للحق والدين، وفي هذا يقول في معرض حديثه عن الهدف من الكتاب المذكور "وقد حرصت على ضبط المفاهيم الإسلامية وتقريبها إلى الأجيال الجديدة، وكان همّي الأول كيف أصل بين العمل المطلوب في هذا العصر وبين المعاني الروحية الموفورة لدينا، كي تنطلق هذه الأعمال بطاقة داخلية قوة ينتعش بها الحق ويسبق [3] وفي مقدمة كتابه خَلق المسلم عبّر عن الطريقة المنهجية التي صار عليها في تأليفه قائلاً: "هذه نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم بها دينه وتصلح بها دنياه وأخراه جميعا، مهدت لها وعقبت بتفاسير موجزة تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الاعصار من

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص30، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص9.

[2]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 10-11.

[3]-المصدر نفسه، ص 4.

انحراف وهبوط نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عقد وعلل واكتفيتُ بما سقتُ من آيات، وذكرت من أحاديث، فلم استطرد إلى ايراد الشواهد الأخرى من أقوال الأئمة، وحكم العلماء، وعظات العبّاد والمتأدبين على كثرتها في تراثنا القديم؛ لأني قصدتُ أن نرجع إلى الشريعة وحدها، وأن أعرض جانب التربية منه على أنّه توجيه إلهي... وفرق بين المطالبة بأدب على أنّه خلق عام وبين التكليف به على أنّه دين كسائر العبادات المفروضة في هذا الدين [1].

وبهذا دعا محمد الغزالي إلى سياسة جديدة في خدمة الدين وبناء أمة، وهي الاستفادة من التجارب الطويلة والنظر الدقيق في الأسلوب الذي سار عليه رسل الله وخاتمهم محمّد ﷺ الذي دعا إلى الحق وتترّه عن كل مأرب؛ وأمّن أهل الدنيا على ما أيديهم حيث يقول: "الذي أراه أن نكدح في الميادين الداخلية لنعيد بناء أمّة توشك أن تتحول إلى أنقاض وما أكثر هذه الميادين وأفقرها إلى العاملين...إنّنا لو انتصرنا فيها ربحنا تسعة أعشار المعركة، فالأنبياء مضوا يبنون ولا يهدمون ويحسنون ولا يسيئون، مضوا في طريق التوعية والتربية والتزكية، والتبصير بالآخرة والاشراف على الحياة الدنيا من مستواهم العالي... [2] ولعل حسن الترابي يوافق محمد الغزالي في منهجه، حيث يرجع سبب تخلف المسلمين في أن بعضهم قلب سلم الأصول الإسلامية، وتباعدوا عنها بسبب تباعدهم عن المشكلات الواقعية واستغنائهم بالتقول النظرية، وبذلك أصبح فكرنا معلقا بين السماء والأرض عن منطلقاته في علم الغيب وعن أهدافه في عالم الشهادة وانتهى بذلك إلى الجمود [3].

المطلب الأول: القرآن الكريم:

اهتم محمد الغزالي طوال حياته بالقرآن وجعله محور العمل في كل شيء، فإذا استقى علما فمن القرآن، وإذا أراد الحكم في أي موضوع فالقرآن هو المرجع، فكان اجتهاده مبنيا على المرونة والمقاصد وكليات الدين. وعن مكانة القرآن الكريم يقول: ذكرتُ يوماً أنّه عندما أراد ربُنا أن يتكلم عن بركته وامتداد نعمه ذكر مرة القرآن ومرة الكون **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

---

[1]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص3

[2]-ينظر محمد الغزالي، **الطريق من هنا**، ص 55.

[3]-حسن الترابي، **سبب تخلف المسلمين**، مرجع سابق، ص 43.

شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ﴾[1]، وقوله ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[2] وعندما أراد أن يذكر أنّه أهل الثناء الحسن والحمد والشكر قال:﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ ﴾[3] وقوله أيضا:﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ ﴾[4]، وهذا التوازن بين الكون والوحي يبقى لآخر الزمن كلاهما يدّل على الآخر، وهو المحور الذي ارتكزت عليه الدعوة الإسلامية، فالإسلام علم واسع الدوائر وقرآنه الكريم كون مسطور يصارع الكون المنظور في تفتيق العقول وتجلية الفطرة.

وعن تدبر القرآن يقول محمد الغزالي: قراءة القرآن دون وعي علّة أصيب بها المسلمون من القديم جعلت صلتهم بالوحي سطحية. فهم يكتفون بتلاوة الآيات أو سماعها، وقد تومئ في أذهانهم بعض الهذيان ثم تنطفئ على عجل أو مهل قبل أن تملأ النفس بسناها العميم، والعامة تحسب أن التلاوة الحرفية لها سر مغيب قد يُغني عن التدبر والتأمل، فالسماع دون فهم والنظر دون رؤية، أمراض تمحق المواهب البشرية، وتجعل المرء شبحاً لا روحاً، والأشباح لا تضع شيئا في دنيا الناس ولا يرتقي بها شعب من العالم الثالث إلى العالم الثاني بل الأول[5]؛ ويذكر محمد الغزالي أنّه بتتبعه كلمة التلاوة في آيات قرآنية كثيرة وحدها تعني عرض الرسالة الخاتمة وبيان معالمها واعطاء صورة مجملة للقضايا والأهداف، أي ما يسمّى في عصرنا بدليل الحركة أو منهاج العمل[6]، ثم تكون بعد ذلك الدراسة والتدبر والتعلم.

وكثيرة هي الآيات التي تبيّن أن التلاوة مفتاح الاطلاع على ما أودع الله في كتابه من حق ونور فكيف تتحول إلى ترانيم وترديد ألفاظ مع قصور إدراك وتدبر؟ ويضيف أن لألفاظ القرآن

---

[1]-سورة الملك، الآية 1

[2]-سورة الفرقان، الآية 1

[3]-سورة الأنعام، الآية 1

[4]-سورة الكهف، الآية 1

[5]-محمد الغزالي، **الحق المر**، ج2، ص19

[6]-المرجع نفسه، ج2، ص21

قداستها ذلك أن الله أراد حفظها مما أصاب الصحف الأولى، حتى جعل ترددها تلاوة طاعة مأجورة وذلك حرصاً على ألفاظ القرآن؛ لكن كل هذا حسب نظر محمد الغزالي لا يقلب الأوضاع ومثله كمثل الجواهر النفيسة توضع في علب فاخرة، وقد يُعنى بالعلبة اعتناءً خاصاً، فهل تساوي العلبة شيئاً طائلا إذا سرقت الجوهرة منها؟ وهل يمكن أن ننتفع بالقرآن إذا جوّدت أحرفه ونسيت معناه؟ والقرآن يقرر في قوله تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [1]، فالشيطان قد يسرق عقل القارئ وهو يتلوه، فلا تتحقق الغاية من قراءته دون تدبّره [2]

كما يؤكد محمد الغزالي خطورة سيطرة النظرة الجزئية على المفّسر لأنّها تحجبه على الهداية القرآنية الجامعة إذ يقول: " فالنظرة الشاملة هي النظرة الصحيحة للدراسات القرآنية، ولا يمكن الرضى بنظرة جزئية عندها سادت الفكر الاسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أطرافه إنّه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته مادام الشلل أو الخطر جمّد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء؛ حيث لابد من النظرة الشمولية للقرآن كله[3] وذلك أنّ وسيطرة النظرة الجزئية، هي التي حالت دون الانتفاع بالهداية القرآنية وحوّلت درس التفسير إلى محاكات لغوية وكلامية، وجدليات فقهية، ولقد أدرك المصلحون المحدثون خطورة الانحراف الذي وقع فيه الدرس التفسيري، وذلك بابتعاده عن النظر في القرآن من حيث هو صالح لقيادة الحياة، واحتواء الحقائق الكونية والاجتماعية، والأخلاقية، والغزالي يرافق جمال الدين الأفغاني في قوله: "القرآن، وأنّي لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في الجهل يفتشون عن الفقر المدقع وكيف لا أقول واسفاه وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه يهيم إلاّ بباء البسملة ويغوص، ولا يخرج من مخرج حرف الضاد، في الصراط حتى يهوى وهو من يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية مع استكماله الأمر على أتم وجوهها وتفشي الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى نحرص على القرآن بأنّه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن بريء مما يقولون[4]، وهذا الرأي من جمال الدين

---

[1]-سورة محمد، الآية 24

[2]-ينظر محمد الغزالي، **الحق المر**، ج2، ص20-21 .

[3]-سورة هود، الآية 56

[4]- عبد القادر المغربي، **جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات**، دار المعارف، لبنان، ص61

الأفغاني يعتبر ثورة على المناهج التفسيرية العتيقة الكلاسيكية التي نجحت على المسلم نور القرآن وهدايته، لأنّها تعرفه في مباحث لفظية وكلامية، ومصطلحات غريبة يصعب عليه فك معاليقها وحل رموزها، فقال كذلك: " انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه، والوقوف عند بابه دون التخطي إلى محرابه، وإنّما نحن اليوم حملنا مع القرآن ألفاظا ومناقشات حول أحكام فرضية واستنتاجات ليس هي في مصلحة البشر ولا هي من وسائل هذا يتم إلى الايمان به، وأضفنا إليه من الشرح والتفسير ما لا يحصل له سوى الأغراب وارضاء العامة [1].

المطلب الثاني: العقل

تبيّن لمحمد الغزالي أن الصوفية هم السابقون لطريقة الله، بحسن سيرتهم وتزكية أخلاقهم[2]، كما رأى أنّ التصوف الصحيح والتزكية الأخلاقية هو المنهج الأفضل في تلقي المعرفة اليقينية وهو بذلك لم يهمش العقل، بل كان له دورا أساسيا في التربية الروحية والتزكية الأخلاقية، إذ أن العلم الديني لا يتأتى إلا بعد استيفاء تحصيل جميع العلوم، وأخذ الحظ الأوفر منها، والرياضة الصادقة للنفس والمراقبة الصحيحة لله مثل التفكر الذي يفتح للمتفكر أبواب العلم ويصير به من ذوي الآليات.

كما يحتج محمد الغزالي بالعقل على غلاة الصوفية القائلين بالفناء والاتحاد، والحقيقة والشريعة، ويرى أنّه قد ينكشف للصوفي ما لا يمكن للعقل إدراكه، ولكن ليس من الممكن أن ينكشف له شيء يحكم العقل باستحالته[3]، فالعقل عنده هو الميزان الذي قيضه الله للإنسان لقياس مدى صدق معارفه ووضع الحدود لها ومن ثمّ فإنّه ليس هناك تعارض بين مقتضيات التعقل وشؤون الإيمان الديني حيث يرى أن من لم تكن بصيرته الباطنية ثاقبة فلن يعلق به من الدين إلا قشوره[4] وأما في مسائل الإلهيات والغيب فليس للعقل فيها دور إلا الاعتراف بها وتقبلها والتسليم بصدقها.

وبهذه العقلية قد ساهم محمد الغزالي في تنقية التصوف من كثير من البدع والانحرافات،

---

[1]- جمال الدين الأفغاني، **جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات**،مرجع سابق، ص64

[2]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص112

[3]-المصدر نفسه ، ص84

[4]-محمد الغزالي، **ليس من الإسلام**، ص101

وأعطى للحياة الروحية بعداً عقلياً جديداً وفي هذا الصدد يقول محمد الغزالي: "إن الاسلام يتشعب شعبتين، أحدهما تمسّ القلب لتُنشئ فيه مشاعر الرغبة والرهبة والصبر والشكر والتوكل والحب إلى آخر ما أفاض المتصوفة في شرحه وامتلأت كتبهم به، والشعبة الأخرى تتصل بالعقل لتغرس فيه عقائد وأحكاما، وقد غصّت كتب الفقهاء والمتكلمين بهذا النوع من المعارف المهمة وما تغني شعبة عن أخرى[1]، وفي الوقت ذاته يرى الغزالي أنّ اختصار فهم الدين على الجانب العقلي واهمال الجانب الروحي العرفاني جعل من الدين قضايا جدلية جافة عن مقاصد الدين، ولذا كان احياء علم التصوف ضرورة لتفعيل البعد الروحي في الإنسان والذي يمثل الوقود الحيوي لانطلاق الحضارة، أمّا فك الارتباط بين القيم الروحية والأحكام العملية على الصعيد النظري فقد أفضى إلى انفصال السلوك عن الاعتقاد على الصعيد العملي.

وبناء على هذا أراد محمد الغزالي بفكره أن ينقل العقل من الوعي الصوفي الفردي، واخراجه من صومعته إلى الوعي النبوي المتمثل في العد الاجتماعي والإنساني الفاعل في التاريخ؛ لكي يستمد من حالة الشهود طاقة التغيير ويحوله إلى منجز حضاري يغيّر به الإنسان والعمران[2]، وهذا ما قصده بالتزكية الأخلاقية في تجاوز مرتبة النشوة الآنية عند الصوفي التي تجعله يرقص وجداً، بل تجعل الطاقة الروحية التي يبلغ بها الصوفي مقام الشهود فتشحنه بقوة الصمت وتجعل تأثره الاجتماعي بحاله وليس بمقاله؛ وبالتالي فالدين لا ينتقل إلى النفوس برصف الكلمات وانتقاء المعاني وتخيير الألفاظ بل هو سر في النفس يكتسب بطول الرياضات الروحية والفكرية التي يسمو بها في مدارج الكمال الحقيقي ليصل بها إلى نقطة قوة الصمت لتؤثر بذاتها في غيرها.

كما يترع الغزالي في مشروعه إلى عقلنة التدين في حين يتجه خصومه إلى محو الصبغة العقلية عن الدين وتحويله إلى طلسمات مبهمة[3]، طقوس مفرغة وأشكال جوفاء لا روح لها، ولا شيء آخر على العقل من الطراز الحسّي للفكر، فهو وباء يصيب العقل بأضرار فادحة ويحّول الكائن الإنساني المكرم إلى وحش شرس أو خروف وديع سهل اقتياده إلى المسالخ كحزمة برسيم، وبهذا تفسّر المواقف

---

[1]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل**، ص 84

[2]-المصدر نفسه، ص90

[3]-محمد الغزالي، **ليس من الإسلام**، ص105

المتناقضة والسلوكات المضطربة التي تعكس التناقض العقلي الناجم عن عطالة العقل وما يتبعه من فساد الذوق وبلادة الشعور، وكانت معركته مع الجمود والحرفية النصوصية التي تغض من شأن ملكة العمل، فثقُلَ عزم المسلمين في مواجهة التحديات المعاصرة وتكرسّ التخلف الموروث حيث يقول: "إنّ بعض البُله يتصور الأنبياء أبواقا لأمين الوحي يرددون ما يلقيه إليهم، فإذا انصرف عنهم هبطوا لمستوى الدهماء وخبا نورهم، أي غفلة في هذا التصور " ويضيف قائلا: "لقد كان الفقهاء على امتداد تاريخنا العلمي هم القادة الموثقين للأمة، الذين سلمت لهم زمام أمرها عن رضا وطمأنينة، وقنع أهل الحديث لما يتناقلون من آثار فلا فقه بغير سنة ولا سنة بغير فقه والواقع أنّ كلا الفريقين يحتاج إلى الآخر" [1].

أما فيما يخص موقفه من النقل والعقل فإن تجربة محمد الغزالي لم تكن مجرد تمثلات عاطفية متحمسة أو وعظ اقناعي [2] التوجه إلى عامة الناس أو إلى قوم لا يأبهون بالأسس الموضوعية للخطاب الذي يتلقونه، بل ان مبادئ منهجه كانت ماثلة في جميع أقواله وأعماله العلمية والفكرية وحتى مواقفه، وهي الإيمان والعقل والعاطفة والعلم.

ولا يعتقد محمد الغزالي أن الإيمان هو مجرد إقرار باللسان وتصديق بالقلب، مثلما عرّفه أهل الفرق الإسلامية القديمة، حيث في نظره هو تعريف يغفل عن أسس وخصائص أخرى موضوعية يتقوم بها الإيمان، بل يعرّف الإيمان على أنّه معرفة بلغت حد اليقين، أو هو علم يصحبه الجزم والقطع [3]، ويقصد باليقين هو التصديق الذي يقوم على أساسين: تصديق عقلي يستند إلى أدلة موضوعية وعلمية ونفسية تميل في الاطمئنان إلى هذه الحقيقة، التي يسري فيها تيار شعوري في النفس فتملؤها ثقة وسعادة واقبالا على الحياة وعلى الله.

وتجدر الإشارة إلى القول أنّ محمد الغزالي يفارق التيار العقلاني الخالص الذي مثله المعتزلة وابن رشد وجملة من المسلمين والفلاسفة، فلم يخص العقل بمطلق المرجعية في المعرفة، كما أنّه يختلف عن تيار أصحاب الحديث القدماء الذين خصّوا (النص) بمرجعية مطلقة، ولم يكن منهجه في تأسيس

---

[1]-محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، ص146

[2]-ينظر فهمي جدعان، **العالم بين حربين، نظرة في المبادئ الموجهة للتجربة الغزالية**، مرجع سابق، ص73، مجلة اسلامية

[3]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص 26

المعرفة الدينية إلا جمعا بين تكامل العقل والوجدان، فالعقل يرد إليه العلم، والإيمان يرد إليه مبدأ العاطفة الوجدانية وبالتالي فإنه يمكن القول أن محمد الغزالي قد جمع بين تيار الرأي العقلاني على وجه الاجمال (تيار الصوفية) الروحي بإطلاق.

ومع أن للقلب أحكامٌ لا يعرفها العقل كما تقول عبارة "باسكال" الشهيرة، إلا أنّ العقل يظل مبدأ أساسيا في المعرفة عند محمد الغزالي وثقته به أكبر من ثقة باسكال فيه مثلما هي أكبر من ثقة جملة من فقهاء الإسلام وأصحاب الحديث فيه، والمتصوفة أيضا، وأظن أن رؤية محمد الغزالي للعقل بمرجعتها الإسلامية أكثر موافقة وتجاوبا لواقع الأحوال البشرية في عالمنا المعاصر واشكالاته الراهنة، ولا شك أنّها لا تحتاج للتعبير عن نفسها بالجهاز الفلسفي والمنطقي الذي يستند إليه النظام المعرفي الاعتزالي، أو النظر الاصطلاحي الذي أتقنه أبو حامد الغزالي وبرع فيه ابن رشد، لكنّها تدرك الغايات التي تسعى إليها بآليات إنسانية أقرب إلى الحس العام "والبداهة" و"الطبع" و"الضمير" [1].

ويؤمن محمد الغزالي أن الكون مفتوح أمام العقل الإنساني من غير حدود في شؤونه الدنيوية والبشرية، وأما في مجال قوانين العلاقات الإنسانية التي تحكمها وخاصة في المواطن التي لم تدركها تعاليم الدين لينفرد العقل الإنساني بالأحكام فيها، أما بعد نزول الشرائع فالعلم لها.

كما يعتقد أيضا أنّ كل ما تعارفت عليه الأمم، ولا يضاد الدين تتحمل البشرية مسؤولياتها فيه كما أنّه ينحى إلى ما ذهب إليه أبو حامد الغزالي، إذ يعتقد أن كل ما هو مقبول من الأمور الخلقية والسياسية والاجتماعية عند مختلف الأمم مجالا يرتد مباشرة إلى الدين، أي أنه يرجع في أصله إلى الشرائع السماوية القديمة، لكن القول الحاسم هنا للدين [2] أما ما لم يرد فيه نص فإن محمد الغزالي يلتزم فيه مذهب أهل الرأي.

ويقر للعقل حرية استخدام ملكته الاستنباطية الاجتهادية في الاستدلال للأحكام وفقه أصول الاجتهاد، كما أن للعقل مجاله في علوم الطبيعة والكون وشؤون الدنيا وصناعتها أما مجال الدين فهو

---

[1]-ينظر فهمي جدعان، **العالم بين حربين، نظرة في المبادئ الموجهة للتجربة الغزالية**، مرجع سابق، ص74

[2]-محمد الغزالي، **دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين**، القاهرة، دار الكتب الاسلامي، ط5، 1988، ص172-173.

القوانين والشرائع التي تحكم العلاقات الإنسانية والعقائد والعبادات بين الخالق والمخلوق ويكون الوحي فيها هو الأصل. وللعقل البشري حدودٌ تجلت عند عجزه عن فهم حقيقة الروح ومعرفة – الألوهية واتصال الذات بالصفات مثلا، وقضايا عالم الغيب، وقد استنكر الغزالي على العقل الإسلامي الذي خاض بحارا في دراسة ما وراء المادة والتي كان لها أثرا وخيما في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية والإفادة منها كما يرى محمد الغزالي أن هذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون وفي الأنفس [1] ويمكن القول أنّه يقترب في الرأي من أبي حامد الغزالي الذي يرى أن أقوال الفلاسفة في الالهيات هي أحوال جدلية غير برهانية، وهذا الموقف ليس بغريب في تاريخ الفكر الإنساني حيث نجد الفيلسوف الألماني "كانظ" لم يقر هو أيضا للعقل أن يتحاور عالم الطبيعة إلى عالم ما بعد الطبيعة، ولم يقر أيضا مشروعية مبدأ العلية للانتقال من عالم الطبيعة عالم ما بعدها، والفرق أن محمد الغزالي يقر بمبدأ العلية للانتهاء إلى وجود الله بإطلاق على عكس "كانط" فإنّه يحصر جدوى مبدأ العلية بالعالم الطبيعي فحسب باستخدامه لما هو أبعد من ذلك.

أما عن علاقة العقل والنقل يجزم محمد الغزالي بقوله " ان العقل ا يغني عن شريعة الله، وإنّ لله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة " [2] حيث يجدد فيه محمد الغزالي العلاقة بين الدعامتين اللتين تقوم عليها المعرفة الإنسانية: حد النقل (الوحي) وحد العقل، علما أنّ هذه المسألة قديمة وجهت إليها النصوص الدينية، وخاض فيها المتكلمون وأصحاب الرأي منهم خاصة، وتناولها الفلاسفة بدءً من الكندي الذي قرر أن ما جاءت به الرسل قد ورد بمقاييس عقلية [3] وصولا إلى ابن رشد والذي ألف للمسألة رسالة: "فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال"؛ أما ابن تيمية فكتب "تعارض العقل والنقل"[4]، ورأي محمد الغزالي فيها بوضوح جاء في قوله: " هيهات أن يختلف العقل والنقل"، أو تتناقص ثمار الوحي والفكر ما دام كلاهما تصويراً مجرداً للحقيقة كما هي دون ريبة أو عوج، وفي العلاقة بين العلم والدين، يجب أن نعرف أن قول العاقل وعمله لا

[1]-ينظر محمد الغزالي: **الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر**، القاهرة، مكتبة وهبة، ط3، 1990، ص 73

[2]-محمد الغزالي، **دفاع عن العقيدة والشريعة**، ص (121-123)

[3]-أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر، القاهرة 1950، ج1، ص 241

[4]-محمد الغزالي، **حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الامم المتحدة**، ص 24

يختلفان، وإذا كان الكون صنع الله، والدين كلامه –جلّ شأنه–فيستحيل أن يكون في المعارف الكونية ما يخالف العلوم الدينية، إذ العلم ليس وصفا إلا لما صنع الله في آفاق الأرض والسماء، وتقريرا لما بث فيها من قوى وخصائص، وهذا البيان لأفعال الله يستحيل أن يجيء في وحي الله ما يختلف عنه أو يصطدم به، إنّ الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود [1].

كما نستخلص من هذا النص المبدأ الثالث في منهجه وهو العلم[2]، فقد كان محمد الغزالي حريصا على أن يتزود من المعارف العلمية، ويتابع قضايا العلم ومكتشفاته للاستفادة منها في نشاطه الدعوي والفكري، وذلك في ظل انتشار عدد من الفلسفات الطبيعية ذات السمة الالحادية كالداروينية والمادية التي تصدى لها بالنقد والتحليل والرد على هجوماتهم ضد الإسلام، وكانت القضية عند محمد الغزالي محسومة عندما أعلن أن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل للوجود؛ وأنّ العقول الذكية هي وحدها التي تستطيع اختراق أسرار الكون ومعرفة آيات الله فيه، وهي وحدها التي تميّز الحق ومن الباطل وتعرف حقائق الوحي [3] فالعقول كما يرى محمد الغزالي خلقت لتتجاوب مع حقائق الكون، ولتكون مفاتيح خزائنه وكواشف أسراره[4]، كما يعتبر محمد الغزالي تصديق الحقائق العلمية دينا ذلك أنّ الله مصدر الحقيقتين الدينية والعلمية ومنه فإنّه لا تعارض بينهما.

ورغم أن محمد الغزالي لا يذهب بمذهب ابن رشد في التأويل الذي يبدو وكأنه يقدم العقل على النقل، إلا أنّه يوافقه في أمر الاتصال بين العقل والشريعة، مع الملاحظة أن محمد الغزالي يظل مفكرا واقعيا. كما أنّه لا يذهب إلى ما ذهب إليه أصحاب التفسير العلمي للقرآن، وهو يقر أنّه ليس بكتاب علوم الكون والحياة أو مباحث فنية؛ إلا أنّه يبني اليقين على التأمل في ملكوت السماوات والأرض وهو يصف هذا العالم بكلمات معجزة صادق عليها العلم والعقل على اختلاف العصور؛ وبالتالي فالقرآن نزل لغاية عظيمة هداية جامعة للسلوك الإنساني الصحيح، وكل ما يتصل بالمبادئ الموجهة له كالاخاء والعدالة والحرية والمساواة وغيرها من حقوق الانسان.

---

[1]-محمد الغزالي، **حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الامم المتحدة**، ص24

[2]-سيأتي الحديث عنه في المطلب التالي.

[3]-ينظر محمد الغزالي، **الاسلام والاوضاع الاقتصادية**، دار الصحوة، القاهرة، ط7، 1987، ص(194-195)

[4]-محمد الغزالي، **هذا ديننا**، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1990، ص 42

المطلب الثالث: الوجدان

أطل محمد الغزالي بهذا المبدأ في منهجية على آفاق الروح النفسية والوجدانية الواسعة، وقد جاءت نصوص كثيرة تحفل بهذه المعاني التي قصد بها اثارة العقل بضياء الروح والقلب والخلق الزكي، حيث يقول في أحدها: "مع قيام الإسلام على العقل وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملا وتأملا؛ مع ذلك كلّه فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة ويجعل الايمان عاطفة دافقة بالحب والبّر إلى جانب أنّه نظر يتسم بالسداد والصواب [1].

فالإسلام كما يرى محمد الغزالي قلب انفتحت أقفاله وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه وقد جمع للإنسان فيه بين الاستشارة الفكرية والهداية النفسية. وفي ظل عالم تقدم الجانب المادي عن الروحي أشواطا، حيث قطع مراحل شاسعة في طريقة التقدم العلمي في حين تخلف روحيا وخلقيا؛ أصبح من الضروري توجيه القافلة البشرية بقيم الأخلاق وحياة الروح والوجدان والرقي النفسي؛ ذلك أن الانسان عقل وقلب [2] وبالتالي فإن تضافر العقل الإنساني مما حققه من مكاسب مادية جليلة مع حياة الروح يضمن للإنسان أفضل حياة في عالمه الأرضي؛ حيث أن الفضائل الخلقية والعبادات الروحية لا تعوق ازدهار الحياة وتقدمها كما أنّ نجاة الروح لا تتم بهلاك البدن، والفوز بالآخرة لا يشترط ضياع الدنيا وعظمة الانسان لا تقوم إلا على نشاط عقلي يواكبه نشاط روحي وهو المفهوم الممتد للإيمان الذي يعيد الانسان إلى ربّه ويوجهه إلى الحياة الروحية والتزكية النفسية التي تطهر البدن وتزكي النفس والخلق وتصالح بينهما وهذا ما تفتقد إليه الحضارة المادية التي سحرت العقول للماديات وغفلت نداء الروح والخلق باسم الحرية بيد أنّ الحرية الحقيقية ليست في حق الانسان أن يتدنس كيف شاء ويرتفع متى شاء؛ بل الحرية هي أن يخضع الانسان لقيود الكمال ويتصرف داخل نطاقها [3].

---

[1]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص 101

[2]-المصدر نفسه، ص 102

[3]-المصدر نفسه، ص 101

وبالتالي فإنّ قيود الكمال هذه توجّه إلى طريق الله حيث التزكية والتصفية لمعدن الانسان، والتحول من مواطن الغفلة إلى مواطن الذكر والحركة والسير في ميادين النفوس سيرا وجهته الله، وعدته تزكية الاخلاق وصالح الأعمال والسلوك ومظاهرها التوبة والرغبة إلى الله والورع والعفة والقناعة والصبر والشكر والخوف والرضاء والتوكل والحب [1] وهي أخلاق ربانية وإنسانية كما أطلق عليها محمد الغزالي.

وصدق العاطفة لا تبرر تجاوز المنهج العلمي واطلاقها يرث الضلالة والإسلام لا يريد العاطفة التي تميل إلى الجهل والخرافات ولا العقل الذي يقلب عليه الجفاء والقسوة بل يريد للإنسان أن يؤسس على ركائز عقلية، لأنه عبادة قائمة على سلامة القلب والمحبة والأدب.

وبناء على موقفه من العقل، فإن محمد الغزالي من الذين دعوا إلى الربط بين العقل والقلب وتفاعلهما مع حقائق الإسلام، حتى يكون للمسلم فهما يحركه إلى العمل ويعصمه من الزلل، وهو منهج القرآن الكريم، وقد ذهب إلى هذا الرأي طه عبد الرحمن في كتابه وهو يبين مفهوم العقل وعلاقته بالقلب وذبك من خلال جهود الفلاسفة والمتكلمين وأعمال الفقهاء والصوفية على أن العقل للقلب كالبصر للعين [2].

لذا نجد محمد الغزالي يحذر في فكره ودعوته من الفصل بين العقل والقلب خاصة في الممارسة الإسلامية سواء في الفهم أن التطبيق، لأن ذلك هو سبيل النجاة إذ يقول: "إذا لم يفلح الدين في شد زمام الفكر والشعور إلى أبعد حد مستطاع فحقيق به أن يهزم، وحقيق بأتباعه أن يبيدوا [3] والقرآن في طبيعة خطابه يزاوج بين العقل والقلب، فيجعل الإيمان، يطمئن إليه العقل، والمشاعر تملأ جوانب النفس وفي هذا الصدد يقول: "مع قيام الإسلام على العقل وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملا وتأملا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان، والمشاعر الجياشة ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والخير، إلى جانب أنّ

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص 104 .

[2]-طه عبد الرحمن: **العمل الديني وتجديد العقل**، المركز الثقافي العربي، ط2، دت، ص 18-19

[3]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص 87.

نظر يتسم بالسداد والصواب" [1] وهذا النص واحد من نصوص كثيرة، تحفل بهذه المعاني التي يقصد منها محمد الغزالي إثارة العقل بضياء الروح والقلب، لأن الإنسانية في تصوره لا تكتمل إلا باجتماع العقل والقلب حيث يقول: " الدين الحق هو الإنسانية الصحيحة، الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها، وتثبت أقطار مدارها، ونظمت حركتها بقوانين بسطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث أن هذا النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعدوه خلل"[2].

المطلب الرابع: العلم

يرى محمد الغزالي أنّ التعليم من أولى الفضائل التي حث عليها الدين، حيث يؤكد ذلك بقوله: "ينبغي أن يجزم بأنّ العلة الأولى في فساد التدين وتأخر أصحابه هي الجهل الثقيل الذي ضيق آفاق الحياة في أعينهم وأفسد الذوق الإنساني في فطرهم فكيف يعم الدين القلوب إذا لم يعم العلم العقول؛ فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[3] وكيف يتم هذا أو ذاك إلا في حراسة العدل الاجتماعي الصحيح؟ هناك ارستقراطية علمية تتهم أختها المادية لتبقى الطبقات الفقيرة حافلة متأخرة لأن احتكار العلم احدى الدعائم التي يقوم عليها نظام الطبقات [4].

ويحرص محمد الغزالي حرصاً شديدا على إقرار مبدأ السببية رداً على مبدأ الجبرية الذي شاع شيوعا واسعا، إذ يرى أنّه من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية ماديا وخلقيا [5] وهو يبدو أكثر وضوحا من الأشاعرة وأبو حامد الغزالي الذين يقصدهم في قوله: " وقد يذكر من باب التغطية أو الاعتذار عن الشرع أن للإنسان كسبا واكتسابا، والحقيقة أنّه مسلوب الإرادة ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أنّ الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، حظوظا مقسومة وأنصبة مكتوبة عليها لون من التسليم والسلبية، والسبب في ذلك علم الكلام والتصوف، وبعض مفسري القرآن

---

[1]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص 95

[2]-محمد الغزالي: **عقيدة المسلم**، ص 21

[3]-سورة العنكبوت، الآية 43.

[4]-محمد الغزالي، **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص87.

[5]-محمد الغزالي، **الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر**، ص 72.

وشراح السنن.

إلاّ أنّ التربية الصحيحة في الإسلام تقوم على حقائق واضحة وعلى تقرير حاسم للمسؤولية الإنسانية ولا يجدي في هذا المجال جدل ولا لعب بالألفاظ، ومذهب الأشعري تحدث عن المسؤولية الشخصية بأسلوب غامض، لا تتضح معه عدالة التكليف...أما الصوفية فقد محقوا-حسب رأيه-الإرادة البشرية وجعلوا الانسان مشدوها بخيوط إلاهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم، وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون نصوص القدر، ونتج عنها شيوع مبدأ الجبر وضعف الصلة بين الأسباب والمسببات أو حتى انقطاعها، حتى أن كثيرا من المربيين والموجهين أشعروا الأمة بوجود النار وعدم وجود الحرق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد معه الري، وأن السكين قد لا يوجد معه القطع وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية غير ملزم ولا مطرد [1] في حين يرى محمد الغزالي أنّ علماء الكلام الذين مالوا إلى هذا الرأي أرادوا بذلك الرد على بعض الفلسفات الإغريقية التي تجعل الأسباب خالقة وتنسب إلى الطبائع...في حين أن الرّد ومواجهة تحديات ذلك العصر لا يكون بنفي ما أودع الله في الأشياء من خواص، وبما وضع فيها من آثار؛ فالأسباب تؤتى نتائجها حتما-بقدر الله فيها فهو خالقها-أما خوارق العادات فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة وهي إذا صدقت-كما يذكر محمد الغزالي-تؤكد القاعدة ولا تهدمها [2] وهو بهذا الموقف يؤكد على إقرار السببية العقلانية والحرية الإنسانية داعيا إلى ضرورة تخليص العقل المسلم من هذا القصور والتخبط في شأن الجبرية وإنكار السببية والمسؤولية الشخصية الذي أدى إلى جمود العقل وتعطيله.

لذلك نجد محمد الغزالي يربط حسن التوكل بالعلم، ذلك أنّ هناك من المتزهدين أقوام يرون التوكل قطع للأسباب وعدم الأخذ بها، فهذا جهل بالعلم والدين، فالنبي ﷺ قد دخل الغار، وشاور الطبيب ولبس الذرع، وحفر الخندق ودخل مكة في جوار مطعم بن عدي وكان كافراً، وقال لسعد: لأن تدع ورثك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس.

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، المرجع نفسه، ص 72-73. وينظر: **الجانب العاطفي**، وينظر **عقيدة المسلم**، ص 37.

[2]-محمد الغزالي، **الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر**، ص (73-74) وينظر: **عقيدة المسلم**، ص38، **ركائز الايمان**، ص78، **الجانب العاطفي للإسلام**، ص31.

وفي علاقة العلم بالدين نجد الفيلسوف "ريبو"[1] في كتابه علم النفس "العواطف" يقر أن هناك منطقا للعواطف وللقلب، كما أن هناك منطقا للتفكير والعقل، وأنّ المنطق الأول لا يقل أثرا وتأثرا عن المنطق الثاني، ففينا العقل الذي يعتمد على التحليل، والقلب الذي يندفع إلى التصديق يقذف فيه الإذعان والتصديق قذفا فيصدقه، ويعمل به، ويجري وراءه، ويندفع إليه اندفاع العالم إلى ما يقرر من الظواهر التي تمت البرهنة عليها، فمسائل المعتقد مردّها إلى منطق القلب وإن ناقشها منطق العقل، فإذا كان "كانط" قد وصل عن طريق الفلسفة إلى تقرير عقلين " عقلي نظري وعقل علمي" فإن "ريبو" قد وصل عن طريق البحوث النفسية وخاصة تلك البحوث التي تشتغل بالعواطف في نشأتها واستقلالها عن الفكر أو تبعيتها له، إلا أن هناك منطقين "منطق تفكيري" ومنطق عاطفي" وأثر الثاني في المعتقدات أشد أسرا وأوسع مدى من أثر الأول.

وخلاصة القول أن الإسلام دين العلم، وما كفر العلم إلا بما يجب الكفر به من كهنات وخرافات ومتناقضات، مما مجال لها مطلقا فيما جاء به النبي ﷺ، والقرآن يدعو إلى الاستزادة من العلم وإلى التفكر في السماوات والأرض وإلى إجادة الصناعات الحديثة واستخدامها واستصلاحها وإلى تلمس الحكمة حيثما وجدت، ولا صلاح للأمة الإسلامية إلا بقراءة رشيدة لدينها تستبعد بها كل الخرافات.

ويجمل محمد الغزالي موقفه في تحديد العلاقة بين العقل والوحي في قوله: "إن العقل لا يغني عن شريعة الله، وإن لله من عباده مطالب لا تعرف إلا عن طريق النبوة"[2] وهذه القضية كما نعلم قديمة، خاض فيها المتكلمون والفلاسفة[3]، وكان للغزالي فيها رأي واضح كما جاء في قوله: "هيهات أن يختلف العقل والنقل أو تتناقض ثمار الوحي والفكر، ... إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير

---

[1]-هو الفيلسوف الفرنسي "نيو دول ريبو" (1839-1916) (Thoedule Rebut)، تولى التدريس علم النفس التجريبي عام 1985م في جامعة السوربون، من أهم مؤلفاته: علم النفس الإنجليزي المعاصر، أمراض الذاكرة، أمراض الإرادة، علم النفس العواطف.

[2]-محمد الغزالي: **دفاع عن العقيدة والشريعة**، دار الكتب الحديثة، مصر، ط3، 1384هـ-1964م، ص 157

[3]-الفلاسفة مثل الكندي في كتابه (رسائل كندي الفلسفية) 1: 244، ابن رشد في كاتبه (فصل المقام وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ابن تيمية كتابه)درء تعارض العقل النقل)

متكامل للوجود"[1].

فدور العقل ليس محصورا غي مجالات الكون والطبيعة، بل له دورا أساسيا مع الوحي، وهناك أمور نص عليها الوحي نصا كليا، وأمور نص عليها الوحي جزئيا، وأمور لم ينص عليها الوحي، ودور العقل هنا أن يستنبط ما لا نص فيه ونفهم ما فيه نص، لذلك استخدم محمد الغزالي العقل في فهم العقيدة والشريعة [2]، فمثلا رفض محمد الغزالي بعض الأحاديث التي كانت تخالف العقل في رأيه، وقد أنكر عليه الكثير رفضه هذا؟ إلا أنه ينكر السنة كما فهموا –بل كان يدافع عن الإسلام بحفظها، وهو يعرضه عرضا معقولا مقبولا موافقا للفطرة والمسلمات العقلية والدينية ويرفض كل ما خالف هذه المسلمات من أحاديث ووردت في صحيح البخاري وسلم –كما سبق ذكره-في حديث الأحد.

فليس بالمبالغة إذا قلنا إن محمد الغزالي لم يأتي في كتبه بالجديد في هذا المجال، وإنما قدم أسلوب عرض جديد، مزج فيه بين العقل والنقل مزجا ينفرد به، وهو ما أنعم الله عليه، فما أضاف الغزالي في منهج الأسلاف الفقهي شيئا بل أحيا سنة اجتهادية حميدة وهي أنه (لا فقه بغير حديث ولا حديث بغير فقه) [3].

وبذلك يعد محمد الغزالي مجتهدا من المجتهدين، وقد تؤيد الباحثة رأي عبد الحليم عويس إلى ما ذهب إليه بأننا في عصر نحتاج إلى جرأة محمد الغزالي وقدرته على الاجتهاد، أصاب أم أخطأ [4]، فكل مخلوق يؤخذ من كلامه ويترك إلا محمد ﷺ.

فالوحي في رأي محمد الغزالي يعد مصدر أساسا للمعرفة، إلى جانبه الحس والعقل، وهذا الاعتبار له ما يبرره فالعقل والحس يقودان عبر الملاحظة النظر – بتدبر عجيب صنع الخالق في الأنفس والآفاق، ويتدبر معاني القرآن الكريم وقوة تأثيره في النفوس – إلى الإقرار بوجود الخالق، وقودان عبر

---

[1]-محمد الغزالي: **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام والأمم المتحدة**، دار الهناء للطباعة والنشر، ص 213-214

[2]-يوسف القرضاوي: **العطاء الفكري**، مرجع سابق، ص 212

[3]-عبد الحليم عويس: **الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه**، مرجع سابق، ص 42-43

[4]-المرجع نفسه، ص 47

تدبر القرآن ودراسة سيرة الرسول ﷺ وشمائله إلى الإقرار بصدق الرسول وصدق رسالته [1]، فالمعارف كما يقول ابن تيمية: " منها ما يعرف بالمشرع فقط كتسبيح الأشياء قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ ﴾ [2]، ومنها ما يعرف بالعقل والحس فقط كالطب والرياضيات، ومنها ما يعرف بهما معا كمعرفة ضرر الخمر مثلا، والمعارف التي تعرف بالعقل والشرع معا قد تعضد بعضها بعضا[3].

وبهذا ينحاز محمد الغزالي إلى عقلانية معتدلة، عقلانية مؤمنة بالخالق وتنزيهه، متدبرة في وحيه، مجتهدة في فهمه وتطبيقه، مستخدمة العقل فيما يصلحها في دينها، فمنهج التكامل المعرفي الاسلامي، يحتم علينا رفض كل نظرية تخالف المعقول، وقبول كل نظرية توافقه ما لم تخالف الوحي.

وإذا كان محمد الغزالي يعترف بالجهد العقلي الذي بذلته الحضارة الغربية، وما قدمته للإنسانية من خدمة، إلا أنه يأسف لها عندما جعلت الكنيسة، القعل يكفر الدين، ويضع فاصلا بينه وبين الوحي وبين العلم والدين، كما يأسف لما نتج عن ذلك بأن نظرات أوربا إلى الإسلام بالعين التي نظرت بها إلى الكنيسة النصرانية، وبالتالي حرمت نفسها، والإنسانية من التعرف الموضوعي على عقائد الإسلام التي كانت من شأنها أن تقود مسيرتها قيادة حكيمة يسعد بها، وفي هذا يقول محمد الغزالي: إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لابد منها في تكوين الإيمان الصحيح، فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين، وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع [4]. فالعقول الذكية إذا هي التي تستطيع اختراق أسرار الكون، ومعرفة آيات الله، فتدر سر هذا الوجود فتزداد إيمان، وتعلقا بربها، وخشية منه لوقله تَعَالَىٰ:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ

---

[1]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، ص 131-132

[2]-سورة الإسراء، الآية 44

[3]-ابن تيمية، **درء تعارض العقل والنقل**، جامعة محمد بن سعود، السعودية، دط، دت، 1982، ص 64

[4]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، المصدر السابق، ص 125

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [1].

المطلب الخامس: الواقعية

انتهج محمد الغزالي خاصية الواقعية في عرضه للعقيدة الإسلامية في تربية النفوس وتزكية الأخلاق تأسيسا لمنهج القرآن والسنة، ذلك أن الخطاب القرآني هو الخطاب المقنع والنافع، والمطابق لواقع الحال، لذلك نجد محمد الغزالي يراعي مقتضيات الواقع ومتطلباته، وعليه فقد عمل محمد الغزالي على ترشيد الواقع الإسلامي من جميع الجوانب ورده إلى أصول الإيمان الصحيح، حيث انطلق من واقعه يدعو إلى قراءة مسالكه وسبله كقراءة الصفحة من الكتاب، وفعلا كان واقعه كمثل الكتاب المفتوح، يقرأ سطوره وما بينهما [2]، ففقه هذا الواقع عن طريق المعايشة والاطلاع، سواء كان واقع المسلمين أو واقع غير المسلمين، فتدبر أحداثه، وتعلم منها ووظفها في نصرة عقيدته، فقد كانت له عقلية متدبرة، تحلل بهدوء، وتشرح بمرونة، وتأخذ من الواقع لتغيير الواقع، ورغم أنه اهتم بجوانب واقعه المختلفة المادية والحسية، إلا أنه ركز على واقع العقائد والأفكار، والأخلاق والتقاليد.

فلقد أتقن محمد الغزالي علوما كثيرة، ونظر بعمق إلى مجتمعاتنا المعلولة، فرتب أدوائها ثم حارب الدلاء والدواء المغشوشين معا، وأدرك أنه لا يمكن عزل عقائد الإنسان عن حياته، ولا الخطاب عن المخاطب. بل ومحاولة ذلك هي كمن يروم بناء على غير أرض، وزراعة في غير تربة والحقيقة أننا عندما نقرأ لكتب محمد الغزالي، فإننا لا نلمس فيه المؤلف الذي يقدم فكرا أو تصورا نظريا أو مواعظ مجردة بقدر ما نلمس، المؤلف الذي يكتب نتيجة معاناة وتجربة اجتماعية أو فكرية[3]، ووعي للواقع الذي يريد تصحيح عقائده التي كانت سببا في تخلف المسلمين، كما لمسنا هذه الواقعية عند عرض بعض خصائص فكره العقدي، من خلال سعيه للربط بين عقيدة المؤمن والشريعة الإسلامية، وبين العقيدة والعمل، وبين العقيدة والأخلاق، فكانت كل أفكاره وآرائه، ومواقفه التي عاشها تنبع مما في صدره من إيمان وما في عقله من تبصر لواقعه وللحقيقة، فكان يعيش

[1]-سورة فاطر، الآية 28

[2]-يوسف القرضاوي: **الشيخ محمد الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص 97

[3]-محمد عمارة: **قصة حياة**، مرجع سابق، ص 240

للإسلام بالإسلام، إذ قادته تجربته هذه إلى ترصد طبيعة العلل والإشكالات التي يطرحها واقعه المعاصر خاصة في مجال الانحرافات العقدية والمفاهيم الخاطئة فيها.

وبالتالي نجده قد ناقش علماء الكلام والمتصوفة والمحدثين والفقهاء والمؤرخين كما ناقش المستشرقين والمتغربين[1]، وليس له من ذلك كله سوى العمل على إصلاح المفاهيم المنحرفة، وترشيد الواقع الإسلامي وفق ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله، وقد تناول ذلك تارة بالنقد، وتارة بالتوجيه وإعطاء البديل، إلى أن وقف على تشخيص العلل التي أصابت الأمة في عقائدها وفي أخلاقها والتي تتمثل في ضعف الولاء لله وفقدان روح الالتزام بالعقائد الصحيحة والعبادات، ولتجاوز هذه العلل في نظره، لابد أن تكون عقيدة المسلم هي القوة الفاعلة والمؤثرة، والمؤسسة لتصرفاته حيث تسري في أفكاره وجميع أفعاله، وميادين حياته سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي.

ومن واقع تجربة محمد الغزالي، نجده يصور لنا أثر دروس العقيدة التي كان يتلقاها في تعليمه، بتلك الصياغة فيقول: " قد كنت أرقب عن كتب ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة، فما كنت أجد فارقا يذكر لدى السامعين بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلا " [2].

وبناء على ذلك فإنه عمل على إرساء قواعد جديدة لمنهج تعليم العقائد – كما سبق ذكره – وذلك في ظل رؤيته التجديدية، لعلم العقيدة، وفي ظل هذه الرؤيا أيضا، ففي فكره السياسي مثلا لم ينشغل كثيرا بإعادة إنتاج الفكر الإسلامي الموروث في هذا الميدان، وإنما اهتم بمعالجة القضايا التي طرحها عصره، وربطها بالعقيدة كما قاوم الاستبداد بكل صوره وانتصر لحرية الجماهير – كما سبق ذكره – ومن أقواله التي تثبت هذا الموقف: " أن الإسلام والاستبداد ضدان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحده، أما مراسيم الاستبداد ضدان لا يلتقيان، فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة وهم وحده، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية سياسية عمياء " [3]. ولعل

---

[1]-سيأتي الحديث عنه في الفصل الرابع، المبحث الثاني.

[2]-محمد الغزالي: **عقيدة المسلم**، ص 8، وينظر: محمد الغزالي: **الإسلام والطاقات المعطلة**، الزيتونة للإعلام والنشر، الجزائر، دط، 1987، ص 85-88

[3]-محمد الغزالي: **الإسلام والاستبداد السياسي**، ص8

ردوده الكثيرة والمختلفة على بعض العلمانيين[1] والحجج التي ساقها، كانت سلاحا قويا لكسر جناح التغريب والعلمانية وهو دليل من الأدلة الواقعية.

ونتيجة للظروف القاسية (اجتماعية – سياسية) التي عايشها محمد الغزالي، والتي استمد مقومات شخصيته منها، هذه الشخصية التي جمعت بين مقاييس العزة والعناد، وبين الإيمان والعمل، المبدع الذي من شأنه أن يخلص الطبقات المستضعفة من البؤس ويقرر مبدأ العدالة الاجتماعية الذي يضمن الحياة الكريمة لكل فئات المجتمع، فإنه يخلص إلى قول حكيم يدل على فقه الواقع، وفقه التدين الذي عرف به، إذ يقول: " وقد رأيت بعد تجارب عدة أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، إنه من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذ كان بدنه عاريا، إنه يجب أن نؤمن على ضروراته التي تقييم أوده كإنسان، ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان، وكثيرا ما وجدتني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل، فكنت أحار ماذا أقول لهم ؟ هل أقبح لهم الدنيا؟ كما يظن أنه مفروض من علماء الدين، إن الدنيا لن تكون أقبح ما عليه في أعين هؤلاء التعساء " [2]. أي أن توظيف العقائد في النفوس، وغرس الفضائل في القلوب يحتاج إلى تمهيد اقتصادي واسع، بل حتى العقل الإنساني لا يمكن له أن يبدع أو يبتكر إلا في ظل بيئة تصمن له ضروريات الحياة.

ويؤكد محمد الغزالي في هذا الاستخلاص قيمة الجانب الروحاني في تدعيم معنويات الإنسان، وحفظ كيان الأمم، بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد الملموسة من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعوز والاحتياج، بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جدا قد يكون السبب الأود في نشوء الرذيلة وشيوعها [3].

وهذا الرأي للغزالي يعبر بوضوح على مدى واقعية فكره، وتعامله معه وبذلك أراد محمد الغزالي للمسلمين أن يجسدوا عقيدتهم، حسن إيمانهم بالله في واقعهم وطلك بالإصلاح النفسي

[1]-ينظر: سهيلة مازة: **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص241-242.

[2]-محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، ص61

[3]-محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص 91

العمراني الشامل، حتى نتمكن من محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم، وهذه في حد ذاتها واقعية المنهج القرآني الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور لقوله تَعَالَى:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [1]، فهذه الظلمات هي واقع الإنسان من الشرك والرذيلة والفساد، والتخلف المادي والمحتوى.

فمشكلة الإنسان كما يتصورها محمد الغزالي، ليست في استقبال عقائدها من الكتاب والسنة، وإنما هي في كيفية إنزالها على الواقع وترجمتها إلى كل عمل صالح وسلوك حسن، ويؤكد ذلك في القول: " غاية ما يصبو إليه الدين، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل – فإذا ضمنا هذه الجوانب، فقد أمكن للدين أن يحقق رسالته وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع في بطون الكتب، أو كلاما تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ، وخطب المنابر، لا يثمر غير التوجيه النظري"[2] وبذلك لا يكون له علاقة بواقعه، فلا يغير فيه ولا يصلحه.

المطلب السادس: التاريخ

لم يؤثر عن محمد الغزالي في كتاباته – كتاب في "التاريخ" بمعناه الخاص، إلا أنه كان شغوف بقراءة التاريخ الإنساني عموما والتاريخ الإسلامي خصوصا، قراءة المتدبر الواعي، الراصد لبواعث الفعل التاريخي، الراسم للخط البياني لأمته عبر تاريخه بمختلف مراحله، ولا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته ولا دراسة ولا مقال إلا وله فيه نظرة إلى حدث من أحداث تاريخ المسلمين، يحلله، ويقرأ سطوره، مستنبطا في النهاية قوانين التغيير والإصلاح، ووقوفا عند العلل، وفي هذا يقول: " ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق في صوغ العقل ونفعه بتجارب لا حصر لها، فإن حاضر الإنسانية، امتداد لماضيها البعيد ومهاد لمستقبلها المرتقب، وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى ليصونوا يومهم وغدهم " [3] ولذلك كان يرى أن التاريخ دراسة إنسانية وفريضة دينية.

---

[1]-سورة إبراهيم، الآية 1

محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص 62

[3]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص 113

فالتاريخ في نظر محمد الغزالي ليس مجرد أحداث تُسرد نتعرف من خلالها على أنباء الانتصارات والهزائم، بل هو ذاكرة الأمة ومستقبلها ومستودع تجاربها ومعارفها، وهو عقلها الظاهر والباطن، وخزانة قيمتها ومآثرها وأساس شخصيتها الفائرة في القدم، الممتدة مع الزمان [1]، لذلك نجده يقرر بأن التاريخ هو دراسة إنسانية، وفريضة دينية إذ يقول: " إن دراسة التاريخ ليست نافلة يتطوع بأدائها من يشاء، إنها ضرورة دينية واجتماعية تقوم بها الأمم الحية، ولو أن مؤسسة تجارية غفلت عن ماضيها وتجاربها، لأغلقت أبوابها على عجل، وانسحبت من الأسواق لتكون ذكرى " [2] وإلى جانب ذلك، فإنه يؤكد أنه بعد التأمل العميق في تاريخ المسلمين القريب والبعيد، تبين بأن دراسة التاريخ هي ضرورة بقاء وسياج لحياة المسلمين، ورسالتهم، إذا كانوا حراسا على صون حياتهم وتبليغ رسالتهم [3] ذلك أن الأمة الإسلامية تتمتع بتاريخ لا تزال أسراره مخبوءة ومعرفة المسلمين له ضئيلة، ولهذا السبب نجد محمد الغزالي في دراسة للتاريخ – لا يقف عند مرحلة معينة من مراحله، بل يجعل التاريخ وحدة متجانسة وحلقات مترابطة تبدأ من بعثة الرسول ﷺ إلى حاضر المسلمين اليوم.

وقد سلك محمد الغزالي نهج القرآن الذي جاء في قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [4] والذي يتبين في هذه الآية وفي مثلها أن هناك عقلا يتكون من التجربة، ومن السير في الأرض، ومن النظر إلى الماضي، وأخذ العبر والدروس منه. هذا العقل المتولد من المدارسة والمعاناة، فتكون أحكامه أقوى وأصوب.

ومحمد الغزالي ينظر إلى التاريخ على أنه المعبد الذي تُعرف فيه سنن الله في الكون، وقوانينه في الحياة والأحياء، وهو مختبر لسولك البشر، ومجال فرز الحق من الباطل، وميزان الفوز من الخسران، وليس دخول هذا المعبد من نوافل الأعمال – كما ذكر – بل هو واجب ديني على كل مسلم وبيان

---

[1]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ص 296، وينظر: **تراثنا الفكري**، ص 105-106

[2]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، ص 145

[3]-محمد الغزالي: **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، ص 116

[4]-سورة الحج، الآية 46

ذلك في قوله تعالى:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [1] وبرؤية هذه أنكر محمد الغزالي على الذين لم يبذلوا الجهد في قراءة تاريخهم، طنا منهم أنه من العلوم القليلة الشأن والجدوى، فوقع للأمة ما وقع من الخزي والوبال فيقول: " عاتبت على رجالنا أنهم لم يدرسوا التاريخ كما يجب و لم يوفروا له الجهد والوقت الذين وفروهما لعلوم أقل قيمة، ومن ثم وقعت في ماضينا أخطاء معيبة وآراء رهيبة ثم مرت كأنها رقم على الماء، لم تخلف بعدها عبرة و لم تستفد منها عضة هذه طبيعة الأمم الغافلة تستقبل أحداثا كانت من قبل مثلها، ثم تتعامل معها وكأنها لا تعرف عنها شيئا... أليست هذه هي المعنية بقوله قال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ ﴿١٠٠﴾﴾ [2]؛... وآلامنا المعاصرة تجعلني أدرس بتوءدة تاريخ رذيلة طالما حذرنا الإسلام منها، ونهانا عن مواقعتها [3].

وبما أنّ الرسالة الإسلامية، هي رسالة عالمية، فلابد من التعرف على الأمم الأخرى، وعلى أحوالها وفي هذا يقول: " لم نكلف أنفسنا مد البصر إلى ما وراء حدودنا، مع أننا أصحاب دعوة عالمية نعم لم نحاول أن نعرف كيف يفكر أو كيف يعيش اليهود والنصارى وغيرهم في بلادهم وما هي الأطوار النفسية والاجتماعية التي يتميز بها " [4].

وبناء على ذلك دعا محمد الغزالي إلى إيجاد منهج معرفي إسلامي جديد قادر على صياغة التاريخ الإسلامي صياغة جديدة يكون من خلالها ركيزة وحدة ومناصرة، فيؤلف له " مجمع علمي " يتعاون رجاله على غربلة التاريخ الإسلامي كله غربلة قوامها نشدان الحق، وعلاج الهفوات الفردية كما يرد للشعوب الإسلامية اعتبارها ويجمع شتاتها [5].

---

[1]-سورة يوسف، الآية 111

[2]-سورة الأعراف، الآية 100

[3]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ص 290

[4]-محمد الغزالي: **عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق**، دار الشهاب، باتنة، ص 162

[5]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، المصدر السابق، ص 299

كما أنّه يرى الحاجة الملحة، إلى بعث روح النقد الموضوعي لتراثنا العقدي وتاريخه وحاضرنا وفي أفكارنا، والغاية من ذلك هو الكشف عن أسباب الخلل والاضطراب والانحطاط في جميع أحوالنا، عن طريق التمييز بين الأسباب والنتائج الذي يتوقف عليه العلاج الصحيح، إذ أن الخلط بينها فوق أنه خطأ منهجي وعلمي فادح، فإنه قد ضيع علينا وقتا طويلا وطاقات في تشخيص العلة والعلاج، فكان سببا في تفاقم أمراض الأمة الإسلامية، فلابد إذا أن نعيد النقد على أسس قيمنا العقائدية باعتبارها قيم جوهرية لها دورها الأساسي في بعث روح الأمة، واستنفار طاقاتها للنهوض الأخلاقي والعلمي والعملي، مع تبصير الأمة والعالم أجمع، بقيمة الإسلام وما يتضمنه من قيم عظمى عليها أن تبرز في واقع الناس. حتى يكون الإسلام في التاريخ الإنساني عنوان على حقائق العقيدة والشريعة والعبادات والأخلاق وشتى المعاملات، وتكون كلمة الحضارة عنوان على النشاط الفكري والروحي والعمراني، وجملة القيم الدينية والمدنية التي صاحبت مسيرة الإسلام " [1].

وهذا المسلك السليم في التاريخ، لا يكون الدين فيه ظاهرة تاريخية أو ثقافية – كما هو عند بعض الشعوب بل هو في حقيقة فطرة الله، وهو خاصية كونية وإنسانية، حتى لا تعود الديانات كلها إلى مذاهب متعارضة وعقائد متناقضة، وإنما هي دين واحد متواصل قائم على الوحي والكتاب، زما أرسل محمد إلا ليؤكد الرسالات السابقة، وليظهر ما تغير عبر التاريخ ليتممها ويكملها ويصحح الانحرافات العقدية والأخلاقية، ويردها إلى وحدتها وفي المصدر والغاية.

المطلب السابع: الوسطية والاعتدال

تعد الوسطية من المفاهيم الكلية والمركبة، والمهيمنة على سائر المفاهيم القرآنية الأخرى، فهو ينظمها جميعا، ولعل مفهوم الوسطية قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [2]، يؤسس لشخصية هذا الدين.

وتتعلق الوسطية في الإسلام بفلسفة الحياة ومنهج العبادة، وطريقة العيش وأسلوب التعامل،

[1]-محمد الغزالي: **الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر**، ص 164-165

[2]-سورة البقرة، الآية 143

كما أنّ المتأمل في القرآن يجد أن أصل الكلمة وسط تشمل المعاني التالية [1]:

1-جاءت صفة للأمة في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾

2-كما جاءت صفة للعبادة المقصودة لقوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾[2]

3-صفة للمعيشة المرجوة لقوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ ﴾[3]

4-صفة للشخصية المعتدلة لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[4]

5-صفة للحياة لقوله تعالى:﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعٗا ﴿٥﴾ ﴾[5]

وبذلك يحقق انسان الوسطية الذاتية من خلال التوازن والاعتدال بين عناصره الأربعة: الروح-النفس-العقل-الجسد.

أمّا صفات المؤمن التي جاءت في قوله تعالى:﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾[6] تمثل ملامح الهوية الشخصية التي تتفاعل مع مكوناتها؛ فالوسطية هي مبدأ ومحور وسلوك.

وفي هذا يؤكد محمد الغزالي على أنّه لابد من إدراك أن الاسلام يتميّز كنظام عن غيره من

---

[1]-رانيا رجب شعبان، **مجلة المسلم المعاصر**، ع 152، سنة 2014، ص 67-89

[2]-سورة البقرة، الآية 238

[3]-سورة البقرة، الآية 225

[4]-سورة القلم، الآية 28

[5]-سورة العاديات، الآية 5

[6]-سورة الفرقان، الآية 63

الشرائع فكل قانون مرتبط بقيمة أخلاقية حتى الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ جاءت في وسط السورة تماماً، ولم يشهد التاريخ أن نبيّا قد بنى دولة بنظام وقوانين كما بناها الرسول ﷺ.

وعند محمد عمارة مفهوم الوسطية هو جعل إلاهي، وليست مجرد نزعة إنسانية أو اختيار بشري يرغبه البعض ويرفضه آخرون **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ وبذلك معنى الوسطية هو التوازن الذي يجمع عناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة –مكونا الموقف الثالث الوسط–البريء من غلو الافراط والتفريط[1]، حيث أن كلا من الافراط والتفريط هو ميل عن الحياة القويمة، أي أن المسلمين خيار وعدول، لأنهم وسط ليسوا من أرباب الغلو في الدين مفرطين ولا من أرباب التعطيل المفرطين، وهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال[2]، ولأن العدل–الوسط–الخيار–إنما يتحقق بجميع عناصر الحق والعدل من المدعي والمدعى عليه، واتخاذ موقف الشاهد على هذه الموازنة بين مكونات هذا الموقف الوسط العادل، تكون الوسطية بهذا المعنى خاصية الإسلام –عقيدة وشريعة وقيم وأخلاقية. وخصوصية تجليات هذا الإسلام في مختلف ميادين الثقافة والمدنية –الحضارة–وسائر ممارسات الانسان المسلم في سائر مناحي الحياة؛ كما وازنت الوسطية بين آيات الله في كتابه المتطور (الكون) وبين آياته في كتابه المسطور (القرآن) حتى لا يغرق العقل المسلم وكتاب الكون وعالم الشهادة غافلا عن عالم الغيب فيقع في الدهرية التي حملة أهلها لقوله **تَعَالَىٰ:** ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[3].

وحتى لا يغرق أيضا هذا العقل المسلم في عالم الغيب ومحيطات الآخرة، التي لا قدرة للعقل على اكتناه حقائقها متجاوزا حدود الأمثال التي ضربها الله على النحو الذي يجعله غافلا عن فقه الواقع أو عمران الدنيا كما وازنت الوسطية بين الماضي والحاضر والمستقبل حتى لا يهاجر العقل المسلم من الحاضر إلى التاريخ ولا يغفل على عظاته وحتى يضمه استشراف المستقبل إلى معطيات

[1]-محمد عمارة: **الوسطية الإسلامية وفقه الواقع**، موقع الإسلاميون، islamion.com.news 22/05/2019

[2]-محمد رشيد رضا: **تفسير المنار**، دار البار للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ج2، ص4-5.

[3]-سورة الروم، الآية 7

الحاضر ذلك أن التاريخ في الرؤية الإسلامية علم من علوم اجتماع الواقع المعيشي فلما اختل هذا الميزان وهذه الوسطية بتأثير النزعات الباطنية والغنوصية ! انفتحت أبواب التأويل والتفضيل والتفريع في معارف عوالم الغيب والردح، وضمرت معارف المسلمين في ميادين عالم الشهادة والواقع المعيشي، فغرقت كثير من العقول والتيارات الفكرية في تفاصيل المغيبات والفروض المتجلية حول عوالمها ومكوناتها على حساب معارف عالم الكون والشهادة ولقد أثمر هذا الخلل ضمور عناصر الوحدة الفكرية والثقافية المؤسسة على الأصول والثوابت وشاعت الفرقة والاختلافات [1].

وبالتالي فإنّ الوسطية الإسلامية تأخذ من الصوفية الحب والروحانية لكن تترك البدع والخرافات، وتأخذ من العقلانية والفلسفة لكن نترك الشطحات وتقليد الغرب أو تأويل النصوص لتتناسب مع الأهواء والمصالح، وهي تأخذ من السلفية الالتزام بالنصوص لكن تترك الغباء في قراءة النصوص وتغييب العقل والمنطق، والوسطية الإسلامية تجمع بين العقل والنصوص وميزات التاريخ والحاضر والمستقبل.

كما ذكر محمد عمارة في مقاله[2] أن دار الأرقم بن أبي الأرقم كانت مدرسة النبوة والمؤسسة الأولى في تاريخ الإسلام، فيها كانت صياغة القلوب والعقول بخلق القرآن وقيم الإسلام، ولقد قدمت المنهاج الإسلامي-"الدعوة" على الدولة، والأمة على السلطة والتربية على السياسة، وتقدم تغيير النفوس على تغيير الواقع، فكان الاصلاح منطقيا وحقيقيا وراسخا.

ونستخلص مما سبق نقاط منهجه التي ركز عليها في والتزكية الأخلاقية:

1- الرجوع إلى جمع مسائل التزكية إلى أدلة الشرع والحرص على الدليل الصحيح.

2- كما حرص محمد الغزالي على الاهتمام بموضوعات التزكية الحقيقية شرعا من مسائل علمية وفكرية وقولية وعملية مع توظيفها.

3- الرجوع في المسائل الخلافية إلى الأصول الصحيحة وإلى فهم السلف وفقه الأئمة المجتهدين مع التزام ما هو أقرب إلى الأدلة وأقوى في الدلالة.

---

[1]-محمد عمارة، مرجع سابق.

[2]-المرجع نفسه.

4- ترك الحديث الضعيف والموضوع وعدم الاستدلال بهما، وقد يذكر محمد الغزالي أحاديث ضعيفة في بعض كتبه على سبيل الخطأ أو يكون مما اختلف العلماء في تصحيحه [1].

5- حرص على بيان الضوابط والقواعد الشرعية التي تزيل الإشكال في كثير من أمور التزكية الأخلاقية بضوابط مجاهدة النفس وحدودها وقواعد العزلة عن الناس أو الاحتكاك بهم، وكذلك ضوابط التعامل مع الكرامة، ومتى يكون الزهد شرعا، ومتى يكون اهمالاً وتقصيراً مع تبيان فقه الحياة والاعتدال في العيش؛ وكيف نجمع بين اصلاح النفس والخلق مع اصلاح المجتمع، وكيف نجمع بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين عدم العجب والغرور والرياء، وكيف يكون الجهاد جزءً من تزكية النفس وأنّه لا يتعارض مع السلوك بل هو منه، وبيان ضوابط التعامل مع المقامات والأحوال، والرؤى وكيفية التعامل مع الغيبيات والتوافق بين الظاهر والباطن في الشريعة والحقيقة وغيرها.

6- كما أكد في منهجه من خلال التزكية الأخلاقية على وحدة الأمّة واجماعها واصلاح السلوك الفردي. وحرص كل الحرص على بيان توافق الشريعة مع العقل السليم والفكر المنطقي والمنهج العلمي. واجتهد في البحث على أقرب الطرق وأسهلها في تزكية النفس والخَلق وفقاً ليسر الإسلام ووسطيته.

[1]-كان وجود الأحاديث المردودة في كتب التزكية سببا في – كثير من الباحثين والعلماء من هذا العلم رغم أهميته

المبحث الرابع: قيم وأبعاد التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي:

المطلب الأول: قيم التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي

1- الذكر:

ليس الذكر افتعالا نفسيا لشيء بعيد عن الإنسان، أو تخيلا لوهم مقطوع بالحياة الخارجية، بل هو مفتاح الصلة المباشرة بالله المتعال ما إن شرق معناه في نفسه وتتحرك به شفته حتى يذكر الله ببره ولطفه وبصحبه بتأييده وعونه. فهو حركة قلب لا حركة لسان ومصدره الكنيسة والاستقرار[1].

وفي هذا يذكر محمد الغزالي أن عددا كبيرا من المسلمين في قرون مضت كانوا يحسبون الذكر أفضل ما عند الله، وأدنى إلى ارضاءه من أي عمل آخر، كما ظنوا أنّ درجة الاحسان لا تنال إلا بطول الذكر، سواء في الصوامع والزوايا المعزولة والمجالس الحافلة، فأكثروا من الأوراد وأنواع التلاوات، وانتشرت السبح في الأيدي ذكرا وتسبيحا لله، إلا أنّه هناك مسلك أرشد من ذلك وأقرب إلى الصراط المستقيم دون تهوين لعبادة الذكر والانتقاص من شأنه أن يرقى به المسلم إلى درجة الاحسان[2].

يورد محمد الغزالي عن ابن عطاء السكندري أنه كان يقول موكدا على الذكر: "لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، فإن تعلقك عن وجود ذكره أشد من تعلقك في وجود ذكر، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حصور إلى ذكر مع رغبة سوى المذكور فقد رأى ابن عطاء الله أنّه لا ينبغي أن يترك الذكر حتى ولو انشغل قلبه ونفسه عنه حتى يترقى بمداومته إلى أعلى المراتب، وقد تطغى صور الوجود الأدنى على الفوائد، فيكون ذكر المرء لربّه لسان لا تصحبه لذة، وقد لا يشعر بجدواه إلاّ أن الاصرار عليه ومداومته قد تحمد عقباه، ويرتقي به هذا الادمان إلى يقظة قلبه ومشاعره[3] وفي اعتقاد محمد الغزالي أن ابن عطاء السكندري – هذا الصوفي الذكي – يريد أن

---

[1]-محمد الغزالي: **فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء**، دار المعرفة، ص121.

[2]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص77.

[3]-المصدر نفسه، ص77.

يصل بالمرء إلى حالة الاستغراق حيث يكون من أهل الصلاح من تصفو سرائرهم وتزكوا بواطنهم وتتوطد صلتهم مع ربّهم – فتمر بهؤلاء لحظات ليست من حياة الناس يذهلون فيها عن عالمهم ويبقون مع الله في استغراف قد يطول أو يقصر وهذه اللحظات أمر وارد وعادي وهو يستنكر في هذا بعض المصطلحات الصوفية كالغناء، والجذب ووحدة الشهود إلا أنّه يرى أنّ هذه اللحظات ليست الغاية من عبادة الانسان ربّه بل هي حالات تعرض وليت غايات تقصد [1]. تلك هي فلسفة محمد الغزالي أنّ ذكر الله ليس قلبا أو لسانا يتوسل به بل ينبغي أن يتحول هذا الذكر إلى الأعمال العظيمة التي هي الغاية من هذا الدين رسمها الشارع الحكيم وناط بها كيان الفرد والمجتمع، فحرارة العاطفة وليست وحدها المقصد من عبادة الذكر.

كما لا يوافق محمد الغزالي شرح ابن عجيبة لما قاله ابن عطاء السكندري[2] عندما قال: " فإن دمت على ذكر الحضور رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور، لما يغمر قلبك من النور وربما يعظم قرب النور المذكور فيغرق –الذاكر–في النور حتى يغيب عمّا سوى المذكور وحتى يصير الذاكر مذكورا والطالب مطلوبا والواصل موصولا وما ذلك على الله بعزيز " ثم يقول: "إن الذاكرين الله بالقلوب هم في حال ذكرهم لله بلسانهم أشد غفلة من التاركين لذكره، لماذا؟ لأن ذكره اللسان يقتضي وجود النفس وهو شرك؛ والشرك أقبح من الغفلة" [3]وقد رفض محمد الغزالي شرح ابن عجيبة ويرى أنّ ابن عطاء بريء من قصده، فإن الذاكر غير المذكور قطعا، وشعور المخلوق غير الخالق توحيد لا شرك كما يستبعد محمد الغزالي بعض عبارات الصوفية من اتخاذها في ميدان العلم والتربية والتزكية مهما التمس لها من شروح لمقاصدها. ولا غرابة في ذلك ومحمد الغزالي يُعرف عليه الأسلوب البسيط في منهجه لتوصيل فكرته ودعوته إلى العقل والقلب معا والذكر عنده لا يفارق الأعمال ويتحول الاستغرافْ فيه إلى إخلاص القلب ومهارة ونبل الغاية.[4]

---

[1]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 78-79.

[2]-ابن عطاء السكندري: فقيه مالكي وصوفي شاذلي الطريقة (658-1260م/709هـ-1309م)، من أهم كتبه: الحكم العطائية الكبرى والصغرى، التنوير في إسقاط التدبير، تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، مفتاح العلاج ومصباح الأرواح... الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص122.

[3]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص80.

[4]-الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص122.

كما أنّ الذكر عند محمد الغزالي هو عبادة اجتماعية أيضا، إذ كثيرا ما تختم آيات القرآن بأسماء الله الحسنى يناسب ما يقارب معناها من أفعال العباد، والسر في ذلك اشعار الناس بأن رقابة الله لا تنفك عن تصرفاتهم مهما اختلف مجالها، واشراق المعرفة الالهية في نظره لا يختصر في صومعة منعزلة أو محراب خاشع بل هو في أعمال المؤمن اليومية في أن يذكره في قوله وعمله وخطواته فقوله تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ [1] فالجملة الأخيرة من الآية تدعو المؤمن إلى ضرورة الاحساس بإشراف الله عليهم إشرافا غير منقطع ولذلك يجب أن يحذروه، كما أنّ قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[2] جملتها الأخيرة جاءت مغنية عن جواب الشرط وهو-يظفر بالحماية والمتعة [3]- ومواجهة النفوس القلقة باسم الله مقرونا بأوصافه الباعثة للطمأنينة والثقة إشارة لأنّ المسلم في شتى أحواله يعود إلى ربّه. وبالتالي فإنّ الذكر في نظر الغزالي هي معاملة مع الله، رغم أنّ كثيرا من الألسنة المتحركة باسم الله وقليل جدواها وما أقل أفئدة طائعة لذكر الله ويشير الغزالي إلى أن فساد الأديان يأتي من تحولها إلى ألفاظ ومظاهر، في حين أنّ الدين مقصده انشاء ضمائر حية وسرائر طاهرة وقلوب ترمق الشهود الالهي برهبة دلك هو الذكر الحق [4].

2-الاحسان:

لا يمثل الإحسان عند الغزالي تجويد جزء من العبادات وإهمال أجزاء أخرى قد تكون أخطر وأجل؛ وإنما هو أداء فروض العين والكفاية، ذلك أنه فريضة مكتوبة على كل شيء وفي الوقت ذاته هو تناول شؤون الدنيا والآخرة معا، فهو استثمار الحياة الانسانية لحقائق الأمر الإلهي، واضفاء صبغة السماء على حياة الأرض، وهو أيضا ترقية كل عمل يذكر الله فيه واتقانه وتقديمه في أحسن صورة له، وبالتالي يكون الاحسان مراقبة ومشاهدة في جميع الأعمال صغارها وكبارها حتى أنّ اللقمة تضعها في فم زوجتك لبناء بيت على الحب، وأن الرصاصة تطلقها على عدوك في ساحة الوغى كي

[1]-سورة البقرة، الآية 211

[2]-سورة الأنفال، الآية 49

[3]-محمد الغزالي: **الحق المر**، ج3، ص 220.

[4]-محمد الغزالي: **فن الذكر والدعاء**، ص122-123.

بناء العالم على العدل وقهر الظلم [1].

فالإحسان الذي ورد في القرآن والسنة، ليس هو الاستغراق الذاتي والتأمل العميق الذي يغيب فيه المرء عن نفسه أحيانا وعن محيطه بل هو تفاعل وحركة مع ربّه ومجتمعه.

والمسلم إذا أطاع الله لا يشترط عليه صومعة محدودة الرقعة، يسبح فيها لوحده في طبيعتها... بل صومعة المسلم هي الأرض كلّها التي نزل إليها خليفة لله ليملأ أرجائها بالعمل الصالح المتقن وهو يعبد ربّه وهذا معناه لقوله ﷺ: " أن تعبد الله كأنك تراه " بأن يعبده المرء وهو يقيم حد السرقة إيمانا منه أن الله أراد بهذا نشر الأمان بين الناس [2] وايقاف الظلم والاعتداء على الحقوق وأن حكمته اقتضت أخذ الحق من المعتدي لقوله تعالى:﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[3] وبالتالي فإن رؤية الله في ساحة المحكمة حين يقام هذا الحد هي رؤية الله في المسجد حين تقام الصلاة وهذه هي التزكية الروحية والأخلاقية التي هي مقصد تكليف الدين وأحكامه يأن يرتبط الذكر والعبادة بما يقول ويقوم به المسلم أو يعيش به ولأجله.

والقرآن الكريم مليىء بالآيات التي تغرس جذور الاحسان في القلوب وهي تعالج أحوال الناس ومشاكلهم في حياتهم بالتزكية والتربية وترقيق القلوب. ففي الآيتين﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾[4]

كما يدعو محمد الغزالي إلى التمعن في الاسمين من أسماء الله الحسنى التي ذكرت في هذه الآيتين التي يعالج فيها القرآن لأزمة بين الزوج والزوجة حيث يبدأها بالرقة واللطف وينهيها بالحزم. فيقول للزوج: إن عفوت عن زوجتك ما ساء منها فإن الله غفور رحيم وهو تذكير بحكمة الله في أسمائه

---

[1]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص85.

[2]-المصدر نفسه، ص 86.

[3]-سورة المائدة، الآية 38

[4]-سورة البقرة، الآيات 226-227.

الحسنى، ما يشيع جوّ المودة والتسامح في البيت المضطرب، ثم إن تقرر الطلاق فيذكر سبحانه أنّه عليم مما يحدث لهما[1]. وبالتالي ذكر اسماء الله الحسنى في القرآن الكريم ليس تعدادها وحفظها بل هي تذكير لتزكية النفوس والأخلاق وإقامة السلوك الحسن على الحذر والروية.

ونصل إلى أن المغزى من عبادة الله كأنك تراه؛ ليس استغراقا والذكر يلهج به اللسان فحسب بل هي وصف لإنسان يقيم أوامر الله في شؤون الحياة كلها. كما يُمثل الألفة بين الله وعبده وهو حقيقة وحدة الشهود المغايرة عن وحدة الوجود، فقد يعيش المؤمن في أنوار الله معيشة راقية بلغ فيها مراتب الاحسان حتى يصبح يتفانى في إرضاء الله بالقول والفعل وصدق القلب؛ وكذلك المداومة على العبادة عملا وفعلا وتعبداً لا ينتهي بالحلول بل ينتهي إلى مرضاة الله والفلاح في الدنيا والآخرة وبالتالي يكون مجال الإحسان واسعا جدا وحدوده هي وظيفة الإنسان بالحياة من ولادته إلى مماته. ويخلص الغزالي إلى القول بأنّ الاحسان لا يضيع غرسه ولن تتخلى العناية الالهية عن أصحابه، وأنّه ليس بذهن طبيعة الغفلة أو يقظة نفس طبيعتها الركود، إنّه خليقة مستقرة، وملكة تتكون من حب الاتقان وهواية الكمال وادمان الذكر لله ودوام الشعور بصحبته تعالى[2].

3-البناء الروحي:

يؤمن الغزالي أنه لا يصلح دين إلا بأمرين هما: العقل السليم والقلب، فقد يكون لبعض الصوفية الحب لله، لكن خروج أكثرهم عن العقل، وعن سنن الله، واعتقاداتهم بالخرافات تحبط أعمالهم، كما قد يكون لعلماء الكلام والفلاسفة القوة في العقل والقلب، يرفض هذا التدين المغشوش المنحرف، إذ عندما يختل الميزان يضيع العقل أو يضيع القلب، فأهمية القلب السليم في الإيمان تتجلى في قوله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [3] وأهمية العقل السليم تبرز في قوله تعالى﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [4] فلا اسلام ولا

[1]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص81.

[2]-المصدر نفسه، ص90.

[3]-سورة الشعراء، الآيات 88-89

[4]-سورة الملك، الآية 10

إيمان بلا عقل، كما لا إسلام ولا إيمان بلا قلب، إلا أن كليهما في حاجة إلى موازين تحقق تكاملها وانسجامهما حتى يتحقق التدين الصحيح فعاطفة الحب الإلهي تصنع الكثير إذا لم تكن مجرد عاطفة هائجة بعيدة عن الشريعة التي حددها الله طريقا لحبه، وأن يحكمها عقل ضابط غير مسرف.

فالصوفي الذي يحارب الأخذ بالأسباب، ويتقاعس على بعض النشاطات يكون بعيدا عن العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح؛ ذلك أن المسلم لا يكون كاملا إلا إذا كان نيّر العقل والقلب معا، حاد البصر والبصيرة معا تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته مع الحياة والكون [1]. وهذه الصفات هي مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه، فهو دين يبني عقائده من ناحية الصحة العقلية، على أسس فكرية تشبه البديهيات في علوم الرياضيات، إذ أن الركائز العقلية لهذا الدين ثابتة فيما شرع من معاملات عامة، وفيما يعرض له من مشكلات وقضايا متجددة.

وإلى جانب هذا فالإسلام دين عبادة تقوم على سلامة القلب، وشحنه بالحب والأدب والإخلاص، ويجمع الغزالي هذين الجانبين في فكره وقوله: "ودين الإنسان ينقص بقدر ما يصحب عاطفته الحارة من نقص عملي أو عجز فكري" [2].

فالجانب العاطفي للإسلام كما يسميه الغزالي-وهو (التصوف) أساس لا يمكن إنكاره في الفكر الإسلامي الصحيح إذا كان مربوط بشرطين:

1- أن يعتمد على الكتاب والسنة.

2- أن يكون منسجما مع العقل الصحيح بعيدا عن البدع والخرافات [3].

وهنا تكمن الصلة بين العقيدة كجانب نظري وبين التصوف كجانب وجداني.

فاستقلالية العقل كما هو الحال في علم الكلام نتج عنها إيمان غامض "فاترا" واستقلالية القلب عن العقل، نتج عنها إيمان مبهم تغلبه الخرافات، وفي هذا يقول الغزالي: "إن الإيمان الغامض قليل الجدوى والإيمان الفاتر أعجز من أن يهيمن على السلوك والواقع أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يحتلوا

---

[1]-محمد الغزالي: **الحق المر**، ج3، ص65.

[2]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الاسلام**، ص11-13

[3]-عبد الحليم عويس، **الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراءه**، مرجع سابق، ص60

مكانة القمة، ولم يغيروا التاريخ الإنساني ويقيموا حكما مكان حكم وأخلاقا مكان أخلاق، إلا لقربهم من حياة الرسول واقتباسهم من سناه وسريان الإخلاص في قلبه إلى قلوبهم، وحب الله من فؤاده إلى أفئدتهم [1].

والذي نستنتجه من هذا القول، أن هدف الغزالي من الجمع بين العقل والقلب، هو أن يتشكل لدى المسلم إيمانا مبنيا على اليقين مُهيمنا على السلوك، محركاً للعمل الذي يستطيع به أن يحتل مكان القمة-كما احتلها أسلافه-فيغير التاريخ بفاعليته ويصنع الحضارات.

فالربط إذا يعني التفاعل المزدوج مع حقائق الإسلام، عاطفة، وفكرا وانفعالا يقينا، ويقظة ذهنية، وهذا ما يقصده الغزالي يقوله: "التصوف الذي نريده" فهو الإيمان بالله عاطفة وفكرا، والحقيقة، أن هذا المنهج هو الذي سلكه القرآن في عرض العقيدة الإسلامية وذلك بإثارة العقل والوجدان لتثبيتها في قلوب الناس، ومثال ذلك ما بينه الغزالي في عرض القرآن الكريم لحقيقة الألوهية بما تتضمنه من إثبات لوجود الله تعالى وذكر لأسمائه الحسنى فيقول: "لقد ذكر القرآن الكريم أسماء الله الحسنى مئات المرات في تضاعيف قصصه وتشريعه، ووصفه لمشاهد الكون، ومشاهد البعث، ورفض أن يكون الثناء على الله فطريا لا يتحرك به الفؤاد ولا يرضى به سلوك، ثم ترجم النبي العابد محمد ﷺ هذا المنهج في نواحي حياته كلها فصار إنسانا ربانيا ترنو بصيرته إلى الله، ويباشر كل شيء في الدنيا باسمه كأنه منه على مرأى ومسمع" [2].

ولعل هذا المعنى نفسه نجده عند تفسيره لقوله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣ ﴾ [3] فيقول الغزالي: "والآية تشير إلى أن القرآن لا يحتوي على مباحث نظرية مجردة، أو قضايا من اختلاف الترف العقلي، كلا هذا الكتاب يعرف الناس بربهم على أساس من إثارة العقل، وتعميق النظر، ثم

---

[1]-محمد الغزالي: **فن الذكر والدعاء عند الأنبياء**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، ص27

[2]-المصدر نفسه، ص16

[3]-سورة الزمر آية 23

يحول هذه المعرفة إلى مهابة الله ويقظة في الضمير، ووجل من التقصير واستعداد للحساب، هناك أفكار أرضية تبدئ وتعيد في نطاق الحمأ المسنون، أما القرآن فهو يجعل الناس يمشون في الأرض ويرتقون لصفاء قلوبهم إلى السماء[1].

4-فلسفة الفقر عنده:

كما سبق أنّ العقائد في نظر محمد الغزالي هي الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الفاضل، لأنّها لباب الدين ومحور تعاليمه والغاية التي يصبو إليها هي أن يجدد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل، وبضمان هذا الجو يحقق الدين رسالته، وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس في بطون الكتب، أو كلاما تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ وخطب المنابر لا يثمر إلا التوجيه النظري وكان يخشى على المسلمين من عدوان الفقر، كما يذكر أن الرسول استعاذ منه، لأنّه لا يشجع على غرس العقائد في القلوب وتزكية أخلاق الناس بقدر ما يدفعها إلى الآفات والرذائل فقد تساءل محمد الغزالي[2] كيف تملا قلب انسان بالهدى إذا كانت معدته خاوية؟ في هذا السياق يؤكد الغزالي أن غاية الدين أن تجد الجّو الملائم لغرس العقيدة في نفوس الناس لتظهر آثارها في خلق وعمل ثم يعترف قائلا: "وقد رأيت بعد تجارب عدة، أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة؛ إنه من العسير جداً أن تملا قلب انسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية، أو تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عاريا. إنّه يجب أن يؤمن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان[3]

فكان محمد الغزالي يختار ماذا يقول في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل هل يُقبح في أعينهم الدنيا؟! كما يظن أنّه مفروض من علماء الدين؟! في حين أنّ الدنيا لن تكون أقبح مما عليه من في أعين هؤلاء التعساء وقد عرض الحل في قوله: "لابد من التمهيد الاقتصادي الواسع والإصلاح العمراني الشامل إذا كنّا مخلصين حقاً في محاربة الرذائل والمعاصي والجرائم باسم الدين أما أن نترك

---

[1]-محمد الغزالي: **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، ص13.

[2]-محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص61.

[3]-المصدر نفسه، ص62.

الظروف التي تلد الجريمة تنمو وتتكاثر ثم نكتفي في جدمة الدين بالنصائح المجردة والعواطف المفتعلة فهذا في الحقيقة هو العبث المبين"[1] إضافة أنّه لم يكن يلقى اللوم على النظم الاقتصادية وحدها، بل لم تعجبه كثيرا من عادات المسلمين في استهلاك المال بلا وعي ودراسة والتي يجب تجنبها، وفي نظره أنّ كثيرا من المتصدقين يعوزهم الفهم والدراسة رغم أنّ الغنيّ عبادته الأساسية حسن استخدام المال واستثماره في التعمير وسدّ حاجيات الآخرين، وهو جوهر الأمر بالصدقات وتزكية النفس والمال من البخل والشح وكذا انتهاج الاعتدال والاقتصاد لقوله **تعالى**:﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ **الإسراء: ٢٩**

فيما يذكر الغزالي أنّه عندما وجد رجلا أراد أن يحج للمرة الثالثة قال له: كفاك حجا ألا أدلك على عمل أنفع وأعظم أجرا؟! شاب صيدلي لم يبدأ حياته بعد، وأرى أن تقدم له هذا المال يبدأ حياته به وينطلق في ركاب حياة جادة، وكان أن تصدق الرجل بثمن رحلة الحج[2] وبموقفه هذا أراد محمد الغزالي أن يؤسس للفضيلة، ويعلم الناس أن زكاة المال هي زكاة للنفس والخلق، وأنها زرع لثقافة الإحساس بالآخر، والتعاون على الخير بين الناس. وهو بذلك يستنتج أنّ للفضائل أسباب اقتصادية حيث نجده يربط بين ما ينشأ فيه المسلم المعاصر من فقر وظلم وتأثير ذلك على نفسه ومعاني الفضيلة داخلها حتى يخلص بمرارة قائلا: "كان لزاماً في هذه الحياة الراكدة الجامدة أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلي هبط بقواهم الأدبية هبوطه بقواهم المادية، ومن المفيد أن نعلم أن عقل الانسان كجسمه يحتاج إلى غذاء دسم منظم لكي يستمر نماؤه ويتم كماله".[3]

ثم يتحدث الغزالي عن بعض الفضائل التي يطلبها الدين وينميها في نفس المسلم وهل كان للأسباب الاقتصادية دور في تنميتها أو حمّلوها فملا عزّة النفس، وهي فضيلة حث عليها الإسلام، وهنا يؤكد الغزالي انّ حاجة النفس الإنسانية إلى سناد مادي لتقوى به وتعتبر أمر لابد منه؛ وإلا سيدركها ذل الاحتياج وهوان الشأن في البيئة الفقيرة الحقيرة، ولولا الكفاح المتابع الجاد الذي قام

---

[1]-محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص62.

[2]-فتحي حسن ملكاوي، **العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، حلقة دراسية**، ط (1417-1996) المعهد العالمي للفكر الاسلامي، الأردن، ص 202

[3]-محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص70.

و لم يزل يقوم به العلم والايمان لاستبد في الأرض سلطان الكثرة في المال والجاه ولأنكر على الطبقات الفقيرة كل شرف وتقدم [1].

وفي مقابل هذا يرى محمد الغزالي أن كل دعوة تحبب الفقر إلى الناس أو ترضيهم بالدون من المعيشة، أو تقنعهم بالهوان في الحياة أو تصبرهم على قبول الهون والرضا بالدنية فهي دعوة فاجرة يراد بها التمكين للظلم الاجتماعي وارهاق الجماهير الكادحة في خدمة فرد[2]، وفي هذا الصدد يقول مالك بن نبي أن التعبد ليس في المساجد فقط ولا في الخلوات بل هو في نبضات حياتنا تعبير عن الإخلاص لله أولا، اخلاصا يحقق ارادته في الكون البشري ثانيا، كما يرى مالك بن نبي أن الاقتصاد ليس قضية انشاء بنك وتشييد مصانع فحسب بل هو قبل ذلك تشييد الانسان وانشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات، وعندما يربط محمد الغزالي الخلق الرباني بالخلق الإنساني يقول أنّه لو أنّ المرء حاول استرضاء الله بنصف الجهد الذي يبذله لكسب المال أو التمكين في الأرض لقطع مرحلة رحبة في طريق الارتقاء الروحي والخلقي.

وفي فلسفته في كريم العيش يذكر محمد الغزالي أنّه يكره الضيق والقلة، يحب السعة والوفرة بشرط أن لا يكون ذلك من مصدر مشبوه فيه، أما المصدر العذب الحلال فلا معنى للبعد عنه أو الزهد فيها وهو عنده إذ نجده شعاع من حسنة الدنيا التي ندعو الله بها، أو من زينة الحياة التي هي حق عباد الله المؤمنين به، يردد الغزالي دعاء أحد الصحابة " اللهم اعطني كثيرا فإن القليل لا يكفيني " كما يستنكر الغزالي على الذين يظنون الدين رضا بالدنية وركونا من البأساء والضراء وانصرافا متعمدا عن مناهج الحياة، مستشهدا محمد الغزالي في هذا الأمر يقول ابن الجوزية: " ما زال جمع من المتزهدين يزورون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مباحات، والذي يحملهم على هذا هو الجهل، فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم، وهذا لأن الطباع لا تتساوي، فرب شخص يصلح على خشونة العيش، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطبقه هو؛ إن لنا ضابطا وهو الشرع فيه الرخصة كانت أفضل من عزائم؛ لتأثير نفعها وحسن عافيتها؛ وكلام ابن

[1]-محمد الغزالي: **الإسلام والأوضاع الاقتصادية**، ص73-74.

[2]-محمد الغزالي: **الإسلام والطاقات المعطلة**، ص71.

الجوزي في تربية النفس وإحسان رقابتها يشبه قول البوصيري في الموضع نفسه[1].

فالإسلام كما يعتقد محمد الغزالي، لا يعلن الحرب على الجسم وإنّما يستعين بقوته على إقامة الفرائض والبناء بها، ويجعل الدنيا معبرا لما بعدها، ... وبالتالي فإنّ الدين صحة عقلية ونفسية وسلامة خلق، فلا يجوز أن يعرقل النشاط الإنساني باسم الدين. ولكي يتزكى المسلم ينبغي أن يعتدل في حسه ووجدانه بين الدنيا والآخرة والموت وكلما استطاع المسلم التخلص من الضباب الكثيف الذي يصنعه الانهماك في الدنيا، ومنح نفسه ساعة تأمل في لحظة صفاء وتذكر قرب لقاء الله، فإنه سيتفاجأ بحيوية جديدة تدُّب في نفسه تغير نظرته للكثير من الأمور، وبالتالي فإنّ هذه النفس وتربية الإرادة الواعية ونداء الضمير الحي هي التي تحفظ للإنسان كيانه من الانهيار أمام ضغط النوازع البشرية لتستقيم على فطرتها السليمة. ويخلص الغزالي في كتابه الإسلام والأوضاع الاقتصادية بهذه النصيحة قائلاً: "يجب أن ننتفع بالدين في بناء أمّة تتوافر فيها التربية النفسية العميقة والعدالة الاجتماعية الشاملة والديموقراطية السياسية المنظمة وبذلك وحده يأخذ الشرق الإسلامي طريقه إلى الحياة [2].

المطلب الثاني: أبعاد التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي:

1- البعد العقدي:

يُعرّف الإيمان بأنّه فعل تصديق، ومن ثّم فهو حالة معرفية ووجدانية؛ وبالتالي فإنّ قوة القضية الإيمانية تنبع مشروعيتها عند صاحبها من قدرتها على اقناعه لا من سلطة الآخرين، ولا من مدى الاجماع الذي يمكن أن يقترن بها؛ ولأن ضروب الإيمان وأشكاله تختلف، فإن مضامينه ونزعاته تختلف أيضا وتتباين، ولذلك تتفاوت أحوال المؤمنين في خصالهم الذاتية وفي علائقهم بغيرهم من المؤمنين وغير المؤمنين.

ولذلك لا ينفك الإيمان وتشخيصه في التدين عن ذاتية المؤمن، أي أنّه ذو علاقة وبرمجة وجدانية Emotional programing للمؤمن، أو ما يسمى بالمخطط الأول الخاص بهذه الذاتية، وهذا ما يفسر تفاوت أحوال المؤمنين وانتشارهم بين الشدة والرحمة، أو التزمت والاعتدال، أو

[1]-محمد الغزالي: **الحق المر**، الجزء3، ص33. **عقيدة المسلم**، ص50. البيت من قصيدة البردة للبوصيري في القرن 7هـ.

[2]-محمد الغزالي: **الاسلام والاوضاع الاقتصادية**، ص207

الاستقامة والتهاون ومع القول بأن الإيمان تصديق فإنّه لا يخرج المؤمن من إيمانه حتى لا تقترن أفعاله اقترانا خالصا ومطلقا بخالص الإيمان، ولأنّ الإنسان يعتريه ضعف وقلة حيلة وهذا ما يحيره برغم عظمته وجبروته أي في تناقضاته الوجودية العميقة. ويتطلب الإيمان إدراك حالة النفس المطمئنة والسلم الاجتماعي وطيب العيش وصلاح الإنسان، أي إدراك حالة ما هو الأسلم للإنسان وأنّه الوارث للأرض حيث يحدد القرآن أن الإيمان بالله غاية خلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة، والإنسان مكلف ببناء عالمه الايماني والتفكيري حيث يمر إلى أعماق الوجود؛ فالإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته وأعماقها، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الحوادث والكائنات إلا عن طريق الإيمان، فهو أعظم الفضائل في هذا الوجود وهو عنصر غالٍ ما دخل في شيء إلا زانه وما نزع منه إلا زانه [1].

كما يرى الغزالي أن الإيمان في جوهره كلّه تزكية وهو انكار للذات وحب للغيرة وستر عن المخطئ، ويسعى لإقالته من عثرته، وسرور غامر بتوبته؛ كما أنّه بالإيمان يسعى الإنسان إلى مراتب الكمال الإنساني وذلك بارتقاء النفس من مجال الحسّ إلى مجال التفكير، حيث الارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للأهواء والشهوات إلى مقام العبودية لله، حتى يصل إلى حالة يطلع بها على الحقيقة، ويتقرب من الله.

فالإيمان في نظر الغزالي قوة عاصمة ودافعة لمكارم الأخلاق ورادعة لمساوئها والسكينة هي انسجام المؤمن مع فطرته[2] ذلك أنّ في فطرة الإنسان فراغا لا يملأه علم ولا ثقافة ولا فلسفة انما يملؤه الإيمان بالله ولا تربية إلا بالتزكية.

يرى مالك بن نبي أنّه في القيم الروحية الإسلامية أنه لا مجال لترقب وحي جديد بعد ختام الوحي بالإسلام فهو وحده المؤهل لمستقبل رسالته تعيد شروط البقاء في هذا الكوكب لسائر الأجيال المستقبلية، كما أنّ علم الأخلاق عند أبي حامد الغزالي هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته لها الشريعة وخط رجال المكاشفة.

---

[1]-محمد الغزالي، **عقيدة المسلم**، ص 138

[2]-المصدر نفسه، ص138.

وفي هذا يقول محمد الغزالي "لقد استيقنت أنّه لا يقتل الغرور وحب النفس وحب الظهور والمكابرة بالمال والجاه إلا الإيمان الحي والتعلق الشديد بما عند الله تبارك وتعالى... لقد رأيت من طغى عندما حكم ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق، وتأملت الدوافع إلى هذا كلّه، فلم أجد إلا قلوبا خاليه من الله عزّ وجل، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته، وان همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي، وأوكد أنّه عند فساد الفطرة لا يوجد دين، وعند اختلال العقل أو نقصانه لا يفهم وحي، وأن الأوامر الجزئية المتناثرة المنفصلة عن روح جامع لا تكون سلوكا، كما أنّ اللبنات المركومة وأسياج الحديد الملقاة لا تنشئ بيتاً[1]. ويضيف محمد الغزالي موضحا أنّ تعليمات المرور لا تفيد من أصيب بانفصال في الشبكية أو من أصيب مما مات القلب. وقد أقام نبيّنا محمد حضارة حققت الغاية من الوجود الإنساني وكانت عدته في ذلك ما تلقى من وحي وألهم من هدي، كما أكد المستقدمين والمستأخرين على تصحيح المسار الإنساني عن طريق ضبط الأجهزة الرئيسية في الكيان الإنساني [2].

2-البعد الروحي:

تدعو القيم الروحية الإسلامية إلى إصلاح الذات من خلال التزكية الأخلاقية والتربية الروحية التي تقوم على العبودية لله وعلى العمل في الميدان الإنساني القائم بحد ذاته على البذل والعطاء، وهي تشترك مع جميع التقاليد الروحية التي تدعو الإنسان إلى استمداد القوة الروحية من خلال التغلب على أهوائه بدل أن يعيش أسيراً لنزواته، وهذا التطلع إلى ضبط النفس هو ما يصطلح عليه بالجهاد؛ فاستيعاب هذا البعد مرحلة ضرورية من أجل نقاش مستفيض حول البعد الذي يمكن أن يحمله هذا المفهوم، حيث ما يجب أن تستوعبه سواء على المستوى الفردي أو على المستوى العالمي؛ أنّه على الإنسان أن يجاهد نزواته الحيوانية وسلوكاته العدوانية من أجل الولوج إلى انسانيته وكرامته؛ والاحساس بهذه الحقيقة جزء من الدين بل هو قيمته العليا.

---

[1]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان الشرعة والعقل**، ص 72-73 وينظر دستور **الوحدة الثقافية**، ص 55-56

[2]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري في ميزان الشرعة والعقل**، ص 73 .

فالقوة الروحية ليست في موالد ولا في قبور ولا في أماكن ولا في حجارة[1]... بل هي في روحانية المصلين في أماكن العبادة وهي في قلوب البشر وعقولهم وتواصلها مع الله خالق الكون في كل زمان ومكان.

وتهديت النفس الإنسانية كما يرى محمد الغزالي – لا يعني قمع نزعاتها وغرائزها واستئصالها تماماً، فإن ذلك مخالف للفطرة الإنسانية وطبيعتها، إنّ الشهوة انما خلقت لفائدة، ولها وظيفة لا غنى للإنسان عنها ولا بقاء له من دونها، فشهوة الطعام ضرورية لحياته ونموه، وشهوة الجنس تحفظ النسل وتساهم في بقاء النوع الإنساني، ولكنّه يربط هذه الشهوات بالاعتدال والعفة والعقل والتزكية.

وانطلاقا من روحانية الإسلام عالج محمد الغزالي الكيان الإنساني معالجة وافية، مبرزاً الملكات العليا للإنسان ومؤكدا على ضرورة الإيمان به، سيدا لهذا الكون، هذه السيادة التي يكاد الإيمان بها ينطفئ إما لسوء فهم؛ أو لقلة وعي؛ أو لعدم استقامة المنهج التربوي والتزكوي ليتردى الإنسان إلى مستوى آخر، غير الذي ارتضاه له الوحي، وحتى تتحقق هذه الغاية القرآنية ويستمر السعي الانساني في سبيلها، لابد من الإيمان بالملكات التي يتوفر عليها الإنسان والتي محور نشاطها؛ وفضاء توظيفها اثبات سيادة الإنسان في الكون، وهذه السيادة في نظر محمد الغزالي هي تجارب الإنسان مع هذا الكون الكبير[2].

كما يبني محمد الغزالي نظرته هذه على طبيعة النفس البشرية التي تتوفر على السلبية والإيجابية، أو على الخير والشر معاً، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تَعَالَىٰ:﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[3] ، وكيف أنّه يؤتى الشر ثم يتعرض إلى سوء توجيه في أحد الجوانب أو في كليها معاً، وتثبت هنا مسؤولية المجتمع في مختلف مستوياته لأنّه مصدر هذا التوجيه، ولذلك يقول الغزالي والمجتمع الرشيد هو الذي يهيئ النفس البشرية مجال التنفيس عن هذه السيادة

[1]-ينظر: محمد الغزالي: **ليس من الإسلام**، ص142-143. **دستور الوحدة الثقافية**، ص146-147.

[2]-ينظر: محمد الغزالي: **الإسلام والطاقات المعطلة**، ص37.

[3]-سورة الشمس، الآيات 7-8

ويتيح لها فرص القوة... [1].

ففي نظر محمد الغزالي أن رسالة التزكية (التصوف الحقيقي) هي التوجه بالإنسان إلى الريادة في التربية، وبث الأخلاق الحميدة والآداب النبوية والسمو بالإنسان نحو الروحانية والكمال الخلقي.

أمّا البعد الروحي الذي جعل الإنسان رباني هو أنّ الله نفخ فيه الروح، وهذا الجانب الإلهي فيه هو الذي أهّله بأن يكون خليفة هذا الكون حين حمّله الرسالة الإلهية، حيث أن الله خلق الإنسان مادة ثم نفخ فيه الروح وخلق فيه استعدادات أمانته.

ومن أهداف التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي تكوين الشخصية المتوازنة حيث ركز على المكونات الرئيسية للنفس الإنسانية وهي العقل والوجدان والجسم، وينظر إليها باعتبارها كيانا واحداً متكاملاً، حيث جاء تأكيده على بعض الأساليب والطرائق التربوية التي تتناول تلك المكونات بشكل متكامل ومتوازن، كالمجاهدة لتزكية القلب والروح، والتفكير لتربية العقل، وترقية النفس الإنسانية في مجالات الادراك وتنشيط العقل والحواس.

فالفضيلة لا تتحقق إلا من خلال تصفية القلب لذكر الله تعالى؛ وهي عملية التزكية التي تلعب الفضائل دورها العام في ضبط قوى النفس والإنسانية، وتنمية الاستعدادات الفطرية الخيرة فيها.

3-البعد الاجتماعي:

يرى محمد الغزالي أن المجتمع أسرة كبيرة تتواد فيما بينها حيث يقول: " والمجتمع في الإسلام أسرة كبيرة تقوم على التعارف والتواد، والناس على صعيد الأرض سواسية ولائهم لله لا للجنس أو لتربية أكرمهم عند الله أتقاهم [2] كما أكد عن كيفية صيانة الأخلاق وتزكيتها في المجتمع، فالتزام الأشخاص بالأخلاق على مستوى الفردي يقتضيه دورا كبيرا في المجتمع والبيئة المحيطة حيث أن تزكية الفرد تأتي من تزكية المجتمع إذ يقول: "يجب صيانة الأخلاق الخاصة بصيانة الجماعة نفسها من فتن العبث والسفاهة التي تذر عليها كما يذر الغبار على الرؤوس في العاصمة الهيجان و لم يغفل محمد الغزالي على تبيان أنّ البيئة المحيطة بالإنسان لها تأثير عليه وتشكيل دينه وأخلاقه واختيار دينه حيث

[1]-محمد الغزالي، **الإسلام والطاقات المعطلة**، ص37.

[2]-محمد الغزالي، **مشكلات في طريق الحياة الاسلامية**، ص 52

يقول: " إنّ التدين من أعظم دعائم السلوك الإنساني ولكن المرء لا يختار ابتداء الدين الذي يسير وفق تعاليمه، إنّ البيئة التي ولد فيها هي التي تزوده بأركان هذا الدين وتوثق به مشاعره ثم ينمو الانسان بعدُ وينمو عقله وادراكه لما عنده وعند غيره " [1] كما عمل على جعل الأخلاق تسير في وجدان الفرد، وتعم في المجتمع بل لابد أن تتجاوز إلى معاملة أهل الأرض قاطبة بالأخلاق الفاضلة، وأن تنعكس – تزكية أخلاقه النّاس كافة، فالعلم مكلف أن يتلقى أهل الأرض بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع غيره والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم مؤكدا على أن الإسلام منع اتباعه من اقتراف أي إساءة نحو مخالفيهم في الدين [2] .

كما وجه الغزالي دعوته لوسائل الاعلام عندما لاحظ أن بعض ما يذيع في القنوات السمعية والبصرية أو المكتوبة أنداك لا يساعد على تقويم الخلق أو تهذيبه السلوك، بل قد يكون بعضها بلاء تختنق الفضائل في صحبته، وتختصر في أزمته وبالتالي لا تضمن للأخلاق عافيتها [3] ذلك أن انتشار مثل هذه الرذائل في المجتمع تؤدي إلى الغفلة عن الدين وأنّ بث الإثم في المجتمع بهذه الوسائل لا يبقى معه دين ولا تستقّر فضيلة.

وفي مقابل هذا دعا إلى وسائل الترفيه والتسلية والترويح التي لا تهدم خلقا أو تهدر كرامة الانسان وبمنهجه الوسطي يدعو إلى طرق أخرى في فنون الترويح حيث يقول: "إلا أننا نؤمن بأن طرق التسلية فنونها واسعة متنوعة. وإذا كنّا لا ندعو إلى التزمت الخلقي الضيق، فإننا نحرض على التزمت الذوقي... [4].

وفي قوله تعالى:﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن

---

[1]-حمد الغزالي، **ركائز الايمان بين العقل والقلب**، ص 11

[2]-ينظر محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص 31-32

[3]-ينظر محمد الغزالي، **ظلام من الغرب**، ص 174 .

[4]-المصدر نفسه، ص 175

ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1] فمعّن محمد الغزالي في الجملة الأخيرة من الآية الكريمة وجد أنّها تدل على أن الأمر الفرط أو الوضع السائب أو المجتمع المنحل؛ يأتي ثمرة غفلة القلب، واتباع الهوى سواء أكان ذلك في أحوال النفس أو أخلاق الجماعة، وحتى لا يغفل الانسان عن طريق ربّه، وينغمس في شهواته وفساده لابد من ضابط خلقي ورادع روحي.

وفي هذا الصدد نجد محمد الغزالي يربط الحرية الإنسانية بالجانب الروحي، فهي ليست حق الإنسان في أن يتحول إلى حيوان، أو ينكر نسبه الروحي إلى الله، أو يقوم بالأعمال ما يوهن بها صلته بالله، ويقوي بها بالتراب، فإنّ الحرية بهذا المعنى لا تعدو إلا قلبا للحقائق أبعاد الأمور عن مجراها، حيث أنّ الحرية المطلقة لا تنبع إلا من العبودية الصحيحة لله [2] وما تميزت به فلسفة محمد الغزالي في التزكية الأخلاقية، أنّه اعتنى بالرباط الوثيق بين الأخلاق والتوحيد، وأن الأخلاق جزء من أجزاء الإيمان بل المؤشر على وجوده من عدمه وزيادته من نقصانه، إذ مع إقراره بأن الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل وأنّ الاكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، وأنّ الحرية النفسية والعقلية أساس المسؤولية[3]، إلا أنّه لابد من العقاب عندما يتحول ذلك الانسان إلى مصدر للعدوان على البيئة التي كفلته وآوته وأنّه قابل عطفها وعنايتها بتعكير صفوها وإقلاق أمنها، حيث لابد أن تكون العقوبة حلاً أخيراً بعد إعطاء الفرص الكافية -وهي عملية تربية النفس وتزكية خلقها بالتدريج-.

ومن جهة أخرى يذكر ياسين عبد السلام أنّ القوة الجماعية وفاعليتها في التغيير تأسس على قوة الفرد قلبا وفكرا وحركة وجهدا حيث يقول: وإذا اتبعنا القوة الذاتية للجماعة والإرادة المغيرة نجدها تنبع من قلب الفرد العضو وفكره وحركته وسائر طاقاته، وإنما تحقيق النظام ووحدة القيادة، وضبط المسؤوليات تلك القوة الذاتية الكامنة في الأفراد، ويبرزها على شكل إنجازات عينية " [4] فالتزكية لها أهميتها في التغيير ودورها في ارتقاء الفرد والجماعة من حال متردية مضطربة سائبة إلى

---

[1]-سورة الكهف، الآية 28

[2]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 54 .

[3]-المصدر نفسه، ص 55 .

[4]-ياسين عبد السلام، **المنهاج النبوي تربية وتنظيم وزحفا**، الشركة العربية الإفريقية للنشر والتوزيع، ط3، ص 385.

حال مستقرة ثابتة ومنظمة، فلا بد من تجديد التوبة، وتصحيح النيات فلو تبنينا ذلك و لم تتعمدها بالتزكية وتنورها بالعبادات ونروضها بالعمل الصالح ملكنا أفرادا وتنظيما وأمّة، وبالتالي فإنّ التزكية مصطلح ومفهوم ضمن منظومة القيم، حيث أن موضوعه هو الإنسان الذي هو موضوع الإصلاح في الواقع الإنساني الفردي والاجتماعي، أو هي هدف العمران ووسيلة فهي ليست مسألة مشاعر أو خواطر نفسية تقتصر على الإصلاح الفردي بل تدخل في صميم البناء الاجتماعي والعمران البشري.

4-البعد الحضاري:

تقرر أن الدين والخلق قرينان متلازمان بحيث إذا اثبت الإيمان وصحت العبادات ازدهرت الفضائل وحسن الخلق، وتعامل الناس بشرف ونبل وكرامة وصدق حتى كان المسلمون الأوائل قدوة أخلاقية، ونماذج تجسد فيها الشرف والصدق والإخلاص فتصدروا بذلك القافلة البشرية عن جدارة.

وفي نظر الغزالي لا تبنى الحضارة بتخاصم الكون وجهل مفاتيحه، أو تخاصم الإنسان وتجافي فطرته؛ لأنّ القرآن يبني الإيمان على فهم الكون ودراسة الإنسان، ذلك أن بناء الحضارة قد يبدو علميا لكن هو في صميم الأخلاق ودعائم التربية الروحية والتزكية الأخلاقية، التي تقوم على فقه واسع في الحياة والأحياء، في الأرض والسماء، في كل ما يؤثر فيها وتؤثر فيه، ويستحيل أن يكون الجهل بالحياة دينا، أو يكون الفشل فيها تقوى، فمن يملك صفرا في شؤون الدنيا يكون إلا صفرا في شؤون الآخرة [1].

ولعل تميز الحضارة في الإسلام عن غيرها، في كون الأخلاق حارسا على الحضارة المادية لكيلا تطغى ولا تتجاوز حدودها الإنسانية، حيث أن أساس القيم الحضارية في الإسلام هو الحرص على كرامة الإنسان فهو محورها، بل لأنّ مفهوم الحضارة في القرآن هي تلك الروح السامية من الفضائل والخصال الأخلاقية الطيبة التي تعكس نفسها في سائر النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات، من استقرار وسلوك سوي، وتأدب وتألق ورغبة في العمران وتطوير آليات النظم الحياتية وترقية البنية الثقافية العلمية.

[1]-محمد الغزالي، **تراثنا الفكري**، ص 42-43.

أما سبب الخلل كما يتصور الغزالي في أخلاق المسلمين هو نقص العناية بالجانب النفسي والتزكوي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأيضا، عدم ربط المسلمين عقيدتهم بالتزكية الأخلاقية؛ إذ في الوقت الذي حظيت فيه مختلف جوانب الثقافة من فقه، وتفسير وحديث وغيرها بالعناية الكبيرة وبالتأليف المكثف، كان الجانب الروحي والأخلاقي مغموط الحق، منقوص الاهتمام ولهذا تساءل الغزالي عن سبب تفاوت العناية بين الوضوء-مثلا- في فقه العبادات والجانب التزكوي الأخلاقي قائلاً: "لماذا نؤلف مثلا كتبا كبيرة في الوضوء لها طابع علمي محدد؟ ولا نؤلف هذه الكتب في الإخلاص والتوكل والتقوى والأمانة والصبر والحب؛ وأكاد أقول إنّ الأعمال الظاهرة من عبادة ومعاملة ما تصدق وتكمل إلا إذا انساقت وراءها هذه المعاني الباطنية، وتخللت مسالك الفؤاد ولذلك يجب أن تطرق موضوعاتها بكثرة ودقة [1]. كما يؤكد الغزالي أن بقاء الأمم وازدهار حضارتها يقتضي تزكية الأخلاق وتطبيقها في دنيا الناس، والإسلام يقر ذلك لقول الشاعر أحمد شوقي:

إنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا [2]

ويذهب محمد الغزالي إلى أنّ أي حكم لا يقيم القيم والأخلاق بين الناس، مصيره الزوال حيث يقول: "لا مكانة لأمة ولا لدولة ولا لأسرة إلا بمقدار ما تمثل في العالم من صفات عالية وما تحقق من أهداف كريمة فلو أن حكما حمل طابع الإسلام والقرآن، ثّم نظر الناس إليه فوجدوه لا يعدل في قضية ولا يرحم في حاجة ولا يوفي في معاهدة، فهو باسم الإسلام والقرآن قد انسلخ عن مقوماته الفاضلة، وأصبح أهلا لأن يعلن في فجاج الأرض وآفاق السماء" [3].

وبالتالي فإن الأمة التي تستجمع أخلاق النصر سوف تنتصر، وعلى العكس من ذلك إذا استجمعت أخلاق الهزيمة حيث يقول: " إنّ الذين يستجمعون أخلاق النصر سوف ينتصرون، والذين يستجمعون أخلاق الهزيمة سوف ينهزمون، ومن ظنّ أنّ الله يحابي أمماً، فيرفعها وهي تفد، فسوف تدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته، ووحي الله وتاريخ الناس شهود على ذلك " [4]

---

[1]-محمد الغزالي، **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص 3-4

[2]-محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص 33

[3]-المصدر نفسه، ص 33.32

[4]-محمد الغزالي، **الحق المر**، ص219.

5- البعد الجمالي:

عندما غاب الوجه الجمالي للدين، وكذلك وجهه الانساني والحضاري والأخلاقي، لما في التراث الإسلامي بقي فيه إلا سمة التشريعي القانوني (حرام/حلال...) وهكذا اختلت البنى النفسية والعقلية الحاملة لعقيدة التوحيد الحقيقية؛ ما أدى إلى انفصام في شخصية المتدين (النفاق)، وعليه تمّ إفراغ الدين من مضامينه الوجودية الكبرى، وعندما يختلي المتدين إلى محارم الله فينتهكها، فتلك اشارة على خلو قلبه من جماليات عقيدة التوحيد، أمارة كاشفة على علل استحكمت على قلبه، وهذا ما يدفعه لتقديس الشكل لإيهام نفسه وتضليل غيره لحسن تدينه. وفي هذا يقول الغزالي: "المسلمون الآن مصابون بتدين الشكل لا تدين الموضوع، والدين عندما يتحوّل إلى طقوس ومراسيم يفقد قيمته... لأنّ الدين قبل كل شيء قلب حي وضمير يقظ وسريرة نظيفة"[1]... وهذا أثر التزكية الأخلاقية على تدينه، كما كان يتعجب محسن يهتم بوجهه الذي هو محل نظر الخلق (كالاهتمام بتطبيق تفاصيل في المستحبات) ولا يهتم بقلبه الذي هو محل نظر الخالق سبحانه وتعالى؛ إن الدين حق وجمال كما جاء في قوله تَعَالَىٰ:﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾[2]والهدى لا يكون بباطل والبشرى لا تكون بقبيح [3]

فإذا جاءت مقاصد الشريعة الإسلامية لجلب المصالح وردء المفاسد فلماذا لا يجدد إطار التحسينات وتستثمر في فلسفة الجمال؟ حيث أن التحسينات هي في حقيقتها أن تكون الأمة في منظر بهيج في سلوكها وأخلاقها وأقوالها.

ويقّر محمد الغزالي بعد تمعنه في سورة النحل وجد فيها المعاني الحقيقية لتزكية النفس حيث يقول: "وانظر في سورة النمل فأجد تناولا يستحق أن تقف عنده مدهوشا **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ

---

[1]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان**، ص148.

[2]-سورة النمل، الآيات 1-2

[3]-ينظر محمد الغزالي، **ركائز الإيمان**، ص150.

أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ [1]، فمعنى البهجة التي تشع في أرجاء النفس عندما نرى منظر الخضرة شيء يلفت النظر، ويزيد العاطفة ويضيف قائلا: "والذي أراه أن الإيمان الذي يصوغه القرآن في النفس ليرفع به مستوى الإنسان إلى أن يكون ذواقا لما في آفاق الأرض والسماء من نواحي الجمال، ولا يتم إيمان إنسان إلا إذا نظر إلى الكون على أنه هذه الصفحات التي يبدو فيها الجمال الإلهي والمجد الإلهي، وفي نظري أن الله عز جّل عندما أقسم بالليل والنهار وبالصبح والظهر والعصر والقمر والسماء وبالوالد والمولود، وبالنفس يقسم بها لكي يلفت نظرنا إلى أن الكون موضوعا كبير لمعاني كثيرة [2].

وفعلا إن هذه المعاني المستوحاة من الكون، لا يدركها العقل وتتلقاها الأنفس إذ يرى الغزالي أن هذا النظر المتعمق في الكون، وعظمته بهجة للنفس والقلب يشيع فيها الاطمئنان وهو نوع من التزكية الروحية وبعث للخلق الحسن.

وبناء على ما سبق ذكره، فإن التزكية الأخلاقية هو مفهوم مركزي من المفاهيم القرآنية، ذلك أن موضوعها الإنسان، وهو موضوع الصلاح والإصلاح في الواقع الإنساني فردا وجماعة، وأنّ التزكية عند محمد الغزالي هي تربية للقلوب والنفوس، وتطهيرها من شوائبها، وإطلاق خصائصها العليا، كما كان له منهجا فيها وأبعادا في تحقيقها، فلا معنى للدين إلا بالتوحيد وتزكية الإنسان في الكون، إلا أنّ زيادة العلم مع نقصان التزكية ومدارج التربية يؤدي إلى الفساد. وبالتالي فإن الوسطية الإسلامية تأخذ من الصوفية الحب والروحانية، وتترك البدع والخرافات.

[1]-سورة النمل، الآية 60.

[2]-ينظر مجلة المسلم المعاصر حوار مع الشيخ محمد الغزالي، ع58، 1991، ص102-103

الفصل الرابع:

التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي وتحديات العصر

المبحث الأول: عوائق التزكية الأخلاقية وسبل معالجتها

المطلب الأول: الانحراف العقدي

المطلب الثاني: التدين المغشوش

المطلب الثالث: الجهل والتقليد

المطلب الرابع: الأوهام والخرافات

المطلب الخامس: ترك الأخذ بالأسباب وتعطيل السنن.

المطلب السادس: تصحيح الفهم الخاطئ لعلاقة الدنيا بالدين.

المبحث الثاني: محمد الغزالي التحديات المعاصرة

المطلب الأول: الحضارة الغربية

المطلب الثاني: العلمانية

المبحث الثالث: التزكية الأخلاقية وسؤال الحداثة

المطلب الأول: الحداثة والمنظور الأخلاقي.

المطلب الثاني: محمد الغزالي و الحداثة الغربية

المطلب الثالث: آثار الحداثة على التزكية الأخلاقية

المطلب الرابع: سؤال الحداثة وبديل التزكية الأخلاقية.

المبحث الأول: عوائق التزكية الأخلاقية وسبل معالجتها

أدرك محمد الغزالي أنّ هناك أمران خطيران يعترضان طريق النهضة الإسلامية، أولهما: فهم الدين وتعد من التحديات الداخلية، وثانيهما: أنّ الإسلام دين لا دولة ليس له علاقة بحياة ونشاط الانسان ولا تحكمه قوانين أخلاقية.

ولمواجهة ذلك وعلاج تلك المفاهيم الخاطئة يرى الغزالي وجوب نظرة فاحصة واختيار لبيب في التراث الثقافي الإسلامي، وهو بهذا يؤيد كل دعوة وكل فكر يدعو إلى ضرورة إعادة بناء العقل الإسلامي من جديد لتصحيح الفهم المغلوط في الإسلام.

المطلب الأول: الانحراف العقدي

يمثل التوحيد جوهر الإسلام ومظهره، وهو رباط بنائه ولون طلائه ومقعد أصوله وفروعه وجميع رسل الله جاءت بهذا الإيمان الخالص وجمعوا الناس عليه ونهوا على كل شائبة تعكر صفو ونقاء نوره لقوله تعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1] إلا أنّ كثير من الناس زاغوا عن هذا الصراط فتشبتوا بأوهام مخيفة أبعدتهم عن الله حتى جاء القرآن الكريم فصدّع صرح الشرك ونادى لليقين الحق، كما أن المسلمين بدورهم أصابهم من داء الأمم السابقة عندما ظلموا رسالتهم بما شابوا به عقيدة التوحيد واقحامهم عليها من بدع وخرافات وجاء هذا في قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[2]

والابتداع في نظر محمد الغزالي يأتي بالشيء وضدّه ليفسد العقيدة الوسط فتسوية المخلوق بالخالق شرك يفسد عقيدة التوحيد، وافناء الخلق في الخالق ضلال وإن كان ظاهره غلّو في تقدير الله

---

[1]-سورة الأنبياء، الآية 25

[2]-سورة البقرة، الآية 118.

واعتراف في مبدأ التوحيد [1] وقد أدى هذا إلى انسلاخ العالم من خصائصه العتيدة وإبعاده عن طبيعة النفس البشرية حتى باتت تتردد على ألسنتهم كلمة "الحلاج" عندما سئل: من في الجنّة؟ قال: الله، حتى أصيب جمهور المسلمين كما يقول محمد الغزالي –برشاش من هذه الخارقة، وأوقف نمو المنطق المادي في بلاد المسلمين، وخلط بالإلهيات أمور كثيرة لا تمت إليها بسبب[2] ذلك أن هذه الفكرة لا يمكن بناء سلوك عملي عليها، مما أدّى إلى الاختفاء بنوع من الجبر الذي يشل الإرادة، وقد فرق الغزالي بين وحدة الوجود ووحدة الشهود فقد سيغرق المرء في النظر إلى مسألة ما استغراقا بذهله عما حوله فهل يعني هذا فناء ما حول الانسان لأنّه غائب عنه فكره؛ وبالتالي فإن غلبة أشعة الشمس نهارا على النجوم لا تعني أنها معدومة لمن لا يراها، فعدم ادراكنا للشيء ليس معنى عدم وجودها وفي نظرة أن أناسا يعيشون مقام الاحسان في أنوار الله معيشة رفيعة وهم يعبدون الله كما جاء في قوله ﷺ "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[3] وهذا الألف حسب نظر محمد الغزالي قد يطلق عليه وحدة الشهود، وهو أن يحيا المؤمن بعاطفة دينية تجعل نشاطه وسكونه كله في مرضاة الله وكذا الحال لكل من يؤمن بفكرة ويعتنقها ويحبها.

وأما حديث الرسول ﷺ: أن الله قال: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي شيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذه"[4]. ويشير الحديث إلى قمة الاحسان والألف بين الانسان وربّه حتى يصل إلى مرتبة التفاني والاتقان في إرضاء الله تفانيا يجعل كل جوانبه وجوارحه مسخرة في طاعة الله.

فالمداومة على العبادة والاخلاص فيها لا يعني الحلول والاتحاد كما يتصوره بعض الصوفية بل يعني العبادة الصحيحة التي خلق من أجلها الانسان لعمارة الأرض وخلافة الله فيها.

---

[1]-محمد الغزالي: **ليس من الإسلام**، ص 141

[2]-المصدر نفسه، ص 141

[3]-سبق تخريجه، ص85.

[4]-رواه البزار في المسند، تر: محفوظ عبد الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط1.

ولعل آثار ثقافة الوسطاء كالاتجاه إلى قبور الصالحين ودعائهم كانت سبب في انصراف المسلمين عن العبادة الصحيحة التي تزكّي النفس وتهذب السلوك وتجعله يراقب الله كأنه يراه فلا وساطة بين الله وخلقه، فكل مسلم مكلّف أن يقف بين يدي ربّه مهما كانت حالته.

كما أنّ الاعتقاد في فكرة الوساطة أيضا غيّرت نظره المسلمين إلى سنن الله الكونية وظنوا أنّها تسخر لكل من واضب على عبادة معينة حتى انتهى الأمر إلى أن فقدت أمة المسلمين مكانتها العالمية في دنيا تعتمد على المعرفة الحقة بأسرار الطبيعة وقواميس الحياة ولعل من أكثر ما استحدثه الصوفية وظلموا به هذه الأمة ودينها هو الاعتقاد بالأولياء حتى قال المستشرق "آدم متز" "Adam Metz" [1] في كتابه الحضارة الاسلامية: الحركة الصوفية أوجبت في الاسلام ثلاثة مبادئ أثرت فيه تأثرا كبيرا هي الثقة الوطيدة الكاملة بالله، والاعتقاد بالأولياء، واجلال النبي ﷺ [2] ولا تزال هذه المبادئ الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثرا في الحياة الاسلامية، ولعل هذا التفوق الذي ظفرت به المبادئ الصوفية هو سر خصومة العلماء للقوم[3] وفي نظر الغزالي أنّ كلام "آدم متز Adem Metz" غريبا حيث أن الثقة بالله واجلال الرسول ليس بدعا صوفية بل هو من حجم الدين، أمّا ما استحدثه الصوفية حقا هو الاعتقاد بالأولياء، وقد يقصد من الكاتب بالثقة الموطدة بالله هو هذا التوكل الباطل والمعقد عن العمل والإنتاج. فإن كان هذا ما يعنيه فهو ابتداع حقيقي من جهال الصوفية، لم تعرفه القرون الأولى.

وعن وحدة الوجود يرى محمد الغزالي أن جمهور المسلمين أصيبوا برشاش هذه الخرافة رغم قدمها، مما أوقف المنطق المادي في بلاد الإسلام، وخلط أموراً كثيرة بالإلهيات تعد من الخرافات العقدية إذ أن العالم شيء يختلف عن الله ويغايره —برغم ما يقوله فريق من الصوفية–فالله لا مثل له في ذاته وصفاته وحقوقه التي فصلت تفصيلا في كتبه المترلة وبالتالي هناك فرق كبير بين وحدة الوجود

---

[1]-آدم ماتز Adem Metz مستشرق سويسري ألماني، (1869-1917) اهتم بالأدب العربي في القرن الرابع هجري وما تلاه، خبير في اللغة العربية له كتاب die renaissance des islams"، يقظة الإسلام ترجمه إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، رضوان السيد، **المستشرقون الألمان**، النشوء والتأثير والمصائر، دار مدار الإسلامي، بيروت، 2009، ص 67.

[2]-ينظر محمد الغزالي، **ليس من الإسلام**، ص 177

[3]-ينظر المصدر نفسه، ص 177

ووحدة الشهود ويدعم محمد الغزالي فكرته بمثال عن الشمس وشروقها فيقول: فالشمس مثلا تطلع فتعمر بأشعتها الساطعة أرجاء الكون فلا يمكنك أن ترى في الأفق البعيد أو القريب نجما، حتى إذا عاد الليل ونشر ظلامه أخذت النجوم المختلفة عن العين تلوح فرادا وجماعات فهل غلبة أشعة الشمس عليها تغني لمن لا يراها انّها معدومة؟ وإن من المؤمنين من يعيش في أنوار الله معيشة رفيعة رسخوا في مقام الاحسان حتى ألقوا أطواره الزاهية [1] وحين نقد محمد الغزالي التراث وأراد غربلته فذلك لا يعني أنّه لا يصلح لبناء معرفي يجعل العقل يستئنف نشاطه الحضاري، بل كان يقصد الجزء الذي طغى على حركة الفكر في عصور التردي صاغ فيها العقل صياغة شلت قدرته على الابداع وعطّلة وظيفته على التقدم، وتوارثت مسلمات خاطئة اعتبرها الأجيال حلولا مستمرة لمشكلاتها الفكرية وبديلة لها.

ولقد حارب محمد الغزالي هذا النوع من الفكر المتحجر الذي يكرس الوثنية في العقل المسلم وأغلق عليه فكرا طفوليا، وذكر في كثير من كتبه أن سبب تخلف المسلمين هو الثقافة التقليدية المغشوشة التي ورثوها وكرسوها، وعمل عملا أن تكون نقطة نحو النهضة تبدأ من إعادة تشكيل العقل من خلال غربلة التراث وبعث الأفكار الحية التي تستجيب لمتطلبات العصر وتكون في مستوى العقل المعاصر.

كما دعا إلى تطهير التراث من كل ما يخاصم العقل أو يعطل وظيفته. وبالتالي فإنّ أكبر تحدٍ في الوقت المعاصر هو التفكير في كيفية تجديد الصلة بعالم الناس والارتقاء بها إلى أفق أوسع، إلى أفق يسود فيها العامل الواسع الذي يقوم على التزكية والإحسان والتنافس في الخيرات، بدل أن يسود زمن العلمانية التي تقوم على العمل الدنيوي ومصالحه، وقد تبين لي أن طه عبد الرحمن ومحمد الغزالي يشتركان في مفهوم العقل في الإسلام، ويتفقان على أن مفهوم العقل في القرآن جاء مرادفا للفقه بحيث يؤكد كل منهما أنّه لو انتبه علماء المسلمين إلى هذا الترادف لاهتدوا إلى حقائق أساسية تغير المسارين اللذين اتخذهما المفهومان في تاريخ الثقافة الإسلامية، فلا تنحصر وظيفة العقل في ضبط ظاهر الأشياء، ولا ينحصر الفقه في ضبط ظاهر الأفعال وحده، كما حصل في هذه الثقافة، بل كان

[1]-ينظر محمد الغزالي، **ليس من الإسلام**، ص 145

بالإمكان تفادي التعارض الذي – بينهما حتى صار العقل يغلب على معناه الاختصاص بأمور الدنيا، والفقه يغلب على معناه الاختصاص بأمور الآخرة[1].

كما أن الفصل بين العقل والقلب –كما سبق ذكره–أفضى إلى انصراف الفقه إلى تقنين ظواهر الأفعال وإهمال القيم الخلقية في الأحكام الفقهية مما أدى إلى حبس الأخلاق على جزء محدود من أفعال المكلفين واعتبارها من المقاصد التحسينية، ولعل هذا الفصل بين المادة والروح في سلوك المسلم، كان نتيجة الافتتان بالثقافة اليونانية وفلسفتها جعل المسلمين يغلقون عن منزلة القلب ويغيبونه رغم أن ذكر القلب ورد في القرآن الكريم مرادف للعقل لقوله **تَعَالَىٰ**:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2] أو كما يبيّن فيه طه عبد الرحمن أنّه جاء بمعنى الفاعلية الادراكية ليخلص إلى أن العقل "هو عبارة عن ادراك القلب للعلاقات القائمة بين الأشياء"[3] وبالتالي لا مجال للفصل بين العقل والقلب.

وبناء على ذلك فإن فهم المسلمين للعقل منطلقه من سوء فهم الدين والجهل بحقيقته، رغم أن القرآن الكريم أعطى الاعتبار الأولى للمعاني الروحية والأهداف الأخروية ، فعندما يقول الله عزّ وجّل ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [4] فإنّه يخاطب القلب بمعانيه الروحية ويمكن الإشارة هنا إلى ما أكد عليه محمد الغزالي أن استعادة شهود الأمة وعزها الوجودي ودورها الرسالي لا يكون بناء المصانع وتشييد العمران بل تقوم على العمل التزكوي الاخلاقي لبناء الانسان، خاصة وأن الدين الاسلامي قد بلغ أعلى مقامات الأخلاق، فلا دين بدون خلق ولا خلق بدون دين[5] وكانت تلك هي الغاية من رسالة النبيّ ﷺ وهو يقول: "انما

---

[1]-ينظر طه عبد الرحمن، **سؤال العمل الديني**، بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء، 2012، ص 66.

[2]-سورة محمد، الآية 24

[3]-طه عبد الرحمن، **روح الدين**، من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمائية، المركز الثقافي، العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2012، ص30

[4]-سورة الإسراء، الآية 82

[5]-للتوسع ينظر: محمد الغزالي، **ليس من الإسلام، تراثنا الثقافي بين ميزان الشرع والعقل، دستور الوحدة الثقافية**

بعثت لأتمم مكارم"[1] الأخلاق ولقد وضع الغزالي أنّ الاسلام بلغ أعلى رتب ومقامات معاير الأخلاق، وهو يطابق بين الدين والخلق ليرتقي بالإنسان بوظيفته الدنيوية إلى غايته الدينية، وليطابق في هذا الصدد بين مقاصد الاسلام وأهداف الأخلاقيات العالمية بحيث يصبح حفظ الدين مطابقا للالتزام بثقافة الإيمان واحترام الدين، وحفظ النفس مطابقا للالتزام بثقافة المسالمة واحترام الحياة، وحفظ العقل مطابقا للالتزام بثقافة التسامح والصدق في الحياة، وحفظ المال منسجما مع ثقافة التضامن والتعاون والنظام الاقتصادي العادل، ثمّ حفظ النسل مطابقا بحفظ الثقافة لكرامة الانسان والمساواة في الحقوق والشراكة بين الجنسين.

أما العمل لله كما تقرره محمد الغزالي فهو العمل الذي يسبقه العلم به، والعلم به لا يتم تحصيله بترديد أسمائه ألوف المرات بل العلم بالله من تتبع آياته في الآفاق وفي الأنفس ومن الصلاة له في المراصد والمعامل الحافلة بالتجارب والملاحظات [2]

ويلاحظ محمد الغزالي أنّ الحالات التي تملأ العالم الإنساني اليوم، هي بقية الأجيال التي نشأت في غياب الفقه الإسلامي والروح الإسلامية بمعنى في غياب الإدراك السليم والعقل السليم [3] وكانت البلية الكبيرة من قصور الفقهاء في ميدان التربية والعبادة ومن قصور المتصوفة في ميدان العلم والتشريع [4] فكانت بذلك فلسفة الكون في القرآن الكريم بعيدة جداً عن اهتمام قرائه ومفسريه.

أما عن ثنائية العقل والإيمان، يذكر محمد الغزالي بأن القرآن الكريم قد وجه إلى الانسان البالغ العقل، كما دعاه إلى فهم الأدلة وتدبرها وبالتالي فإنّ الايمان الذي لا دليل عليه هو إيمان مقلد.

كما استغرب الغزالي كيف أن البعد الاخلاقي لم ينل حظه اللائق من جهود التأصيل الفقهي والتأويل التشريعي ذلك أن الفقهاء أنزلوا الأخلاق رتبة المقاصد التحسينية والكمالية رغم أن مكارم الأخلاق تشكل الغايات التي تضمنتها الشريعة. وفي رأيه حتى تخليص العادات من التقاليد البالية والقوانين الجاهلية لا يقل خطرا عن تخليص العبادات نفسها من البدع الى شابتها.

---

[1]-سبق تخريجه، ص144.

[2]-ينظر محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، ص79

[3]-ينظر محمد الغزالي: **ليس من الإسلام**، 178-248

[4]-ينظر المصدر نفسه، ص 179-272

المطلب الثاني: التدين المغشوش

وصف محمد الغزالي أحوال المسلمين الآن أنهم مصابون بتدين الشكل لا تدين الموضوع، وأن الدين عندما يتحول إلى طقوس ومراسم يفقد قيمته لأن الدين قبل كل شيء قلب حي وضمير يقض وسريرة نظيفة[1].

أدرك محمد الغزالي أنّ الحياة المعاصرة قد وسعت من آفاق النظر وأصبحت مجالات العقل أوسع من أن تحصر أو يحاط بها وانكشف له أن ثقافة الداعية ينبغي لها أن ترتكز على استعاب الواقع وحسن التبصر بالمعاني، وأنّ التدين كما يقول: ليس علاقة موهومة بالله، فلا قيمة للتدين إذا لم يمنع الاسفاف ويدفع إلى التنامي ويقمع غرائز الاستعلاء وقهر الضعفاء [2]. ذلك أنّ من شروط الانطلاق والتغيير محاربة مواريث الثقافة المغشوشة التي تحتضن البدع والخرافات حتى يتحرر العقل، وأنّه من المستحيل إقامة مجتمع ناجح في رسالته إذا جهل أصحابه الدنيا وعجزوا عن الحياة، كما يرى محمد الغزالي أنه فشل دفع المسلمون ثمنه غاليا عندما سقطوا في ميادين الحياة، ولذلك أراد أن يفهم الناس أن هذا الدين هو تقوى تّعمر القلوب من العبادات لا يستغرق تعلمها وقتا طويلا، ثم تكون مهارة في شؤون الحياة ثمّ تتحول مع صدق العزيمة إلى وسائل دعم الحق وسيادته [3] وبالتالي دعا إلى تجديد الفكر الديني وأكد أنه يتطلب عقلا أنضج وقلبا أزكى كما يتطلب تبصرة بأخطاء التاريخ ومزالق الأجيال؛ ويقتضي علماء لا مجرد قراء وخبراء، ومختصون في فنون التربية والتثقيف لا عبيد لتقاليد سائدة [4]، وأنّ التدين يوم يفقد القلب تزكيته وتضع فيه الأخلاق، ومحبة الخلائق، يكون لعنة على البلاد والعباد[5].

لاحظ محمد الغزالي أنّ للحركات الإسلامية دور في قولبة الفرد المسلم وجعله كانسان آلي في تفكيره وسلوكه، إذ رسمت في المجتمع شكلا واحدا من التدين، فمن خرج منه خرج من الدين،

---

[1]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان**، ص 148.

[2]-محمد الغزالي: **كيف نفهم الإسلام**، 54.

[3]-محمد الغزالي: **مئة سؤال**، دار الهناء، ص 9-10.

[4]-المصدر نفسه، ص 216.

[5]-محمد الغزالي: **مشكلات في طريق الدعوة الإسلامية**، ص 51.

حيث ظهرت أشكال للتدين بشكل جمعي –لم يكن من قبل–فأثقلت المسلم بكم هائل من النوافل والأشكال أدّت إلى تضخم في ذلك المجال على حساب عمارة الأرض والأنفس، وجعلت المتدينين يطمئنون بتدينهم دون البحث عن أسباب للتراجع الحضاري وعلاجه، وحين نبحث في مفهومهم نجده ذلك التدين المغشوش الذي يركز على قشور الأشياء وذيولها لا على جواهرها النفسية والحقيقية[1] ، وقد نتج عن ذلك امتلاء المساجد وخلو المصانع وتدني الأخلاق، وصار المسلمون أكثر استهلاكا وأقل انتاجا بسبب التدين الشكلي.

كما أنّ بعض محبي السنة والذين "انشغلوا عن أعمال القلوب وأحوالها" وعن الحديث في الرقائق والزهد والورع والنفس وأنواعها، وعن فقه القلوب وتزكية الأخلاق وتهذيبها وتصفيتها، شغلوا عنها بأمور أخرى هي من الشريعة بمكان كالحرص على اظهار السنن النبوية وتعليمها والتحذير من فرق أهل البدع والضلال وطرقها، إلا أنهم انشغلوا بشيء زائد منها حملهم على التقصير من حيث لا يشعرون في أعمال القلوب وتزكية الخلق، وهذا ليس منهج السلف الصالح الذي كان الفقيه منهم من يخشى الله ويرجو الآخرة ويعمل بعمله فيبدو ذلك في سلوكه وعمله وظاهره.

والذي حمل بعض المتأخرين على هذا التقصير في جانب التصفية والتزكية ظنهم أن الكلام في القلوب وأحوالها والنفس وتقويمها والخلق وتزكيته عند الصوفية والطرقية، وكأنه منهجا خاصا بهم، حيث غلب عليهم الكلام والتصنيف فيه، ووقع كثير من طوائف الصوفية وأئمتهم في صور وألوان من البدع والخرافات، وظهر أنّ السير إلى الله وإصلاح القلوب وتزكية الخلق من عمل أهل التصوف والطرق فقط كما ذكر "أنك تجد الفقيه يتكلم في الظهار واللعان والزنى والسيف والرمي، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها ولا يتكلم عن الإخلاص، ولا يحذر من الرياء وهذا فرض عليه لأنّ في العمالة هلاكه والأول فرض كفاية"[2] ويقصد من كلامه هذا أن الاعتناء بالفقه ومسألة وتفريعاته والتفسير والحديث واللغة وغيرها من العلوم ، يكون فيه حد الاعتدال والنصاب فلا ينشغل بالظاهر والباطن خواء من المحبة والخشية والخوف والتوكل والإنابة

[1]-محمد الغزالي: **ليس من الإسلام**، ص 140.

[2]-المصدر نفسه، ص 141. وينظر: **الطريق من هنا** ، ص 22-23، **مع الله**، ص 159 إلى 256-270.

واليقين، ولا تعرف عينه دموع الخشية ولا قلبه الخشوع ولا نفسه التذلل لله تعالى، كما لا ينشغل بالباطن وأعمال القلب وإصلاحه ويهمل رعاية العلم والعمل بما جاء في القرآن وحتى لا يذم المسلم بصفات أهل الكتاب من اليهود والنصارى بتركهم العمل أو يذّم بصفات المخالفين وأشباههم وتركهم.

إلا أن بعض الصوفية –كما سبق ذكره–غالوا في تصوفهم وابتدعوا فيه وجعلوا لهم طرقا منها: الأوراد والتلاوة والمجاهدة والصبر والفقر والصوم[1]، وهذا ليس هو المنهج السديد في التزكية لأنّ الإسلام جاء ليهذب الغرائز ويربيها وليس لقتلها وسلبها من الانسان لأن ذلك يخالف الطبع البشري والفطرة الإنسانية.

وبالتالي فإن كل تدين فاسد له آثار يعانيها القاصرون هزائم ثم ملاحقة في كل ميدان [2] وإذ ينشد محمد الغزالي هذه الثقافة السليمة والوعي الديني في كل الاتجاهات مدركا ضروريتها؛ فهو ينشد بذلك ثقافة الوحدة بين المسلمين بوحدة عقيدتهم، وينشد ثقافة التنشئة السليمة للعقل المسلم، والضمير المسلم، والسلوك السليم، كنا أنه ينشد ثقافة السمو بشؤون الدنيا في ظل الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية التي تجعل عبادة الله في المسجد أو في المصنع أو في الحقل سواء [3].

وهو بذلك ينشد الثقافة الموروثة أو التقليدية كما يسميها أحيانا، والتي كانت تمثل عنصرا هاما بالنسبة للحضارة الإسلامية، فهي التي تصنع عقيدة الأمة ومزاجها، وشخصيتها ووجهتها [4]، ولا يمتري عاقل بأن هذه الثقافة لعبت دورا فعالا إبان الفترة الذهبية حين تمكنت من صنع عقول من الطراز العبقري ثم نجحت بمعية العلم الإسلامي، في مساندة الحضارة الإسلامية حتى بلغت شأنا عظيما، لكنها حين اختلطت بالخرافات والأوهام والبدع وتسربت إليها جهالات الدهماء، وأهواء الخاصة، هوت مكانتها وهوت معها الحضارة الإسلامية، ولهذا دعا الغزالي بإلحاح إلى ضرورة إعادة المسلمين لثقافتهم الإسلامية الأولى التي تتفق من الكاتب والسنة إذ يقول: "إنني أطلب من أمتنا

---

[1]-محمد الغزالي، **ركائز الإيمان**، ص 95-96، وينظر: **علل وأدوية** ، ص 141، 144 و 151.

[2]-ينظر محمد الغزالي: **ليس من الإسلام**، ص 146

[3]-محمد الغزالي: **الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر**، ص 227

[4]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان**، ص 149

الإسلامية أن تحاكم تقاليديها إلى الإسلام فما وافقه بقي، وما خالفه ترك" [1].

فمن أجل تصحيح التدين المغلوط، والوعي الديني وتقويم ثقافتهم العقدية لابد من غربلة التراث الثقافي الضخم الذي آل إليهم، بعد تراكمه طيلة قرون عديدة من الزمن، هذا التراث الذي يحمل موروثات ثقافية مترادفة بين الصحة الخطأ، ويجمع بين الأفكار والتصورات القيمة، والبدع والخرافات الخطيرة، مما يستلزم على مسلمي القرون الأخيرة غربلته، وتنقيته من أجل الانتفاع من الموروثات النقية واستبعاد الموروثات المشوهة والخاطئة، التي تحمل وزرا كبيرا فيما لحق بالمسلمين من تخلف وانحطاط [2] والذي يشغل الغزالي أكثر، ويستغرب له هو أن تلقى فيما هذه الموروثات رواجا كبيرا بين المسلمين رغم بعدها عن الكتاب والسنة، ولا صلة لها بهما كما عبر عنها: "بعضها عادات لا عبادات، والبعض الآخر وجهات نظر فقهية غير ملزمة أو طبائع شعوب لا تعاليم دين، وقد تكون اعوجاجا فكريا أو أخلاقيا أطال عمره التهاون فتلقاه الرعاع بالقبول ونشأت عنه فوضى واسعة النطاق [3].

المطلب الثالث: الجهل والتقليد

يعرفُ التقليد على أنّه قبول رأي الآخر بلا حجة ولا دليل، أو هو اتباع الانسان غيره فيما يقول ويفعل معتقدا الحقيقة فيه من غير نظر وتأمّل في الدليل[4]. ويتميز المقلد بالاتباع والمسايرة والعجز والقصور والاكتفاء بالرأي الواحد، وعدم استعمال ملكاته الطبيعية في التفكير والفعل والوجود.

وسميّ هذا الموقف بالمحافظة لاعتقاده في كمال الدين وقداسته وثبات شرائعه وعلوية أحكامه وصلاحيتها مهما تغيرات الظروف، وحجتهم في ذلك أن شريعة الإسلام جاءت محكمة تامة واكتمل بها البناء وختمت بها الدعوة، كما يرى أصحاب هذا الموقف ضرورة الاكتفاء الذاتي للتراث ويؤمنون

---

[1]-محمد الغزالي: **مستقبل الأمة خارج أرضه كيف نفكر فيه**، ص82

[2]-محمد الغزالي: **ركائز الإيمان**، ص 149

[3]-محمد الغزالي: **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا** ، ص 115

[4]-الزركشي بدر الدين، **البحر المحيط في أصول الفقه**، وزارة الأوقاف والشؤون الاجتماعية، ط2، 1413هـ-1992م، ص112، وينظر: الجرجاني، **التعريفات**، مرجع سابق، ص 96.

بأنّهم الفرقة الناجية وأنّ غيرهم من المواقف ضالة... وكأن تراثنا القديم قد اكتمل في حد ذاته وحوى، ففيه عزنا وفخرنا وحلول مشاكلنا الحاضرة[1] ويسند هذا الموقف التقليدي الماضوي إلى حديث للرسول هما: "خير القرون قرني ثمّ الذي يليني " وقوله "لا يصلح هذه الأمة إلى بما صلح أولها" ومعنى هذا أنّ حاضر هذه الأمة مرهون في تقدمه بالرجوع إلى الماضي وأن قمة التقدم والرقي كانت في العصر الذهبي لا يمكن استعادته تاريخيا وزمنيا ويغلب على أصحاب هذا الموقف النزعة الخطابية، التي يغيب فيها الوضوح والعمق النظري والنضج الفكري وتغليب العاطفة والانفعال فتتحول إلى جدال ومهارات لفظية، معتمدين على آراء جاهزة ومسبقة، حتى رأيهم في التغيير يعبرون عنه عبر استعادة حرفية للماضي دون اعتبار للعقل والعصر والتجربة والتاريخ وحركة التغيير والتقدم.

إلا أنّ السلفية تحولت إلى فكرة إسلامية مهيمنة على المجال الأيديولوجي الحركي الإسلامي ويغدو المجال حول دلالتها المحددة رأسماليا رمزيا يحاول الفاعلون الاسلاميون استثماره فكرا وعملا.

فمحمد عمارة يربط السلفية بالتاريخ العربي الإسلامي ويحاول أن يبحث لها عن جذور حضارية تراثية؛ فهي كما يرى ظاهرة عباسية ترتبط بالتيار الفكري الذي قاده أحمد بن حنبل ضد المعتزلة وما عرف بمحنة خلق القرآن والتي انتهت إلى انتصار أصحاب الحديث والنص على أصحاب الرأي والعقل[2]. أما محمد الغزالي فيعتبرها نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون لولائها العميق لكتاب الله وسنة رسوله. وقد ترتبت على التقليد المطلق للماضي كما يرى الغزالي عدة أخطاء نذكر منها:

- أثار الدولة الدينية على الدولة المدنية والحاكمة الإلهية على الشورى الإنسانية وتقسيم المجتمع إلى مؤمن وكافر.
- تقديم صورة سلبية للإسلام تبدأ بالحدود والعقوبات وتوصي بالتشدد والالتزام بالواجبات واهمال الحقوق والحريات.
- الميل إلى التعصب وسيطرة النعرات الطائفية والحميات القلبية على الموقف التاريخي.
- تعطيل مسار التقدم والرقي بالمفاهيم الإسلامية عوض تشغيلها وتفعيلها في البناء

[1]-ينظر: محمد الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، 84.

[2]-محمد عمارة: **السلف والسلفية**، دار المقاصد، ص 36.

الإنساني والعمراني. وفي الوقت ذاته فإنّ تقليد الغرب تقليدا أعمى وتبني نهج الحداثة وما بعدها والعولمة ارتكاب خطأ أفدح في محاولة لتفادي خطأ تقليد الماضي التراثي.

وهنا يقول محمد الغزالي-كما سبق ذكره- وهو يصف تدين المسلمين في هذا العصر "المسلمون مصابون بتدين الشكل، لا تدين الموضوع، والدين عندما يتحول إلى طقوس ومراسيم يفقد قيمته لأن الدين جعل كل شيء قلب حي وضمير يقظ وسريرة نظيفة[1].

كما يرى أن الاهتمام المبالغ المظهر على حساب الجوهر هو سبب هزيمة الأمة، فإن حقيقته تضيع، وغايته تتلاشى وبالتالي فإن المعنى الحقيقي للدين أن يكون حركة قلب ويقظة فكر أما المراسيم الجوفاء، والصورة الشاحبة[2]، فلا دلالة لها، حيث من عجز عن تصحيح قلبه ولبه فهو فيما سواها أعجز، ويوم يتولى عملا ما يكن نموذجا للفشل، لأنّه لن يدفع تيارات الحياة إلى حيث يحب، بل تدفعه إلى حيث تشاء وقد حذر محمد الغزالي من التدين المغشوش أن يكون مجال لإذكاء نار الخلاف الفقهي، وقد يكون أذكى على الأمم من الالحاد الصارخ [3].

لذلك رفض محمد الغزالي أن يكون التدين ستارة لتغطية العيوب، كما نجده يحرص على معالجة إشكالات أمته في وقتها وظروفها وحيثياتها، مؤكدا على دور المؤسسات الدينية في بلورة القيم الإنسانية والتزكية الأخلاقية خاصة وأن التقليد في الايمان قد أسفر على الجهل العملي بأسماء الله الحسنى، وعدم تمثلها في العقل والخلق والوجدان، كما ضعفت أخلاق القوة والعزة إزاء هذا الجمود وفتح باب الخرافات والأوهام في ظل تعطيل وظيفة القلب.

---

[1]-محمد الغزالي: **ليس من الإسلام**، ص150.

[2]-محمد الغزالي: **علل وأدوية**، ص 56.

[3]-ينظر محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية**، ص 100، وينظر **ليس من الإسلام**، ص 148-149، وينظر **علل وأدوية**، ص 56-57

المطلب الرابع: الأوهام والخرافات

نبّه محمد الغزالي في كثير من كتبه [1] أنّه من بين ما اعترى الثقاف الإسلامية من شوائب خاصة في التصوف انتشار صور من الرهبانية وضلال من الجهل بالحياة الدنيا، والعزوف عن أعبائها ومناهجها جميعا، حيث أصبحت الفكرة الشائعة عن الدين أنّه عدو للحياة؛ وأنّ وظيفتها الأولى في إعداد الناس لاستقبال الدار الآخرة بأنواع من مراسيم وأشكال الطاعات يحسبونها من كمال التقوى وعلامات حب الله. إلا أنّ هذه التصورات كما يراها محمد الغزالي ضرب من الخيال المريض [2] وبهذا المفهوم ابتعد أناس عن جوهر الدين ومنطقة، فالفرق بعيد بين التمكين في الدنيا والقدرة عليها وبين الاغترار بالدنيا والحمق في تقديرها، والإسلام جاء بالوسطية الخيرية بين الدنيا والآخرة، إذ أنّ التماوت قبل الموت هروب من وظيفة المرء في الوجود، وتحمل تكاليف الحياة، وجهالة بأسرار الحكمة العليا، وهذا التماوت. كما أطلق عليه محمد الغزالي-لا يمكن أن يكون دينا [3] ذلك أن الإيمان بالله وخشيته ليس حظا حميلا تزخرف به وجوه المحال، هو جذور تتغلغل في القلب وتمتد فروعها في السلوك وتظهر ثمرتها في الأخلاق والمعاملات ولا يتحقق هذا إلا في دنيا النّاس واستثمارهم للحياة [4] داعيا الأمة أن تكون مثلا عاليا في اسلام الوجه لله وافراده بالنية الصادقة والعمل وذلك في ظل وجود مسالك شائعة بين المسلمين والتي تعد خطرا على الإسلام وضلال في الاتجاه واضطراب في المقصد، كما يؤكد محمد الغزالي على أنّه أي خلل يصيب دعائم التوحيد معناه الخبل والضعف الذي يدرك موطن القيادة الفكرية في هذا الدين ذلك أن التوحيد حقيقة وعنوان وهدف، ومبدأ نهاية، وهنا يشير منبها إلى أنّه ليس بصدد تصيّد التهم للناس ورميهم بالشر جزافا، بل هو واجب النظر الطويل لتخليص الأمة مما شابها من انحراف عقدي وفكري.

ويورد محمد الغزالي أمثلة من واقع عصر حيث يقول: اهتمت حكومة إنجلترا في سبيل مكافحة الشيوعية بالحالة الدينية في مصر، فكان مما طمأنها على ايمان المصريين أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا

---

[1]-محمد الغزالي، **حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام وإعلان الأمم المتحدة**، ص 191 .

[2]- للتوسع ينظر: محمد الغزالي، **كيف نفهم الاسلام**، دار الهناء للنشر والطباعة، الجزائر، ص 60

[3]-المصدر نفسه، ص 61

[4]-محمد الغزالي، **حقوق الانسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة**، ص 192

ضريح أحمد البدوي بطنطا هذا العام، والذين زاروه ليسوا مجهولين لدي، فطالما أوفدت رسميا لوعظهم فكنت أشهر من أعمالهم ما يستدعي الجلد والسياط لا ما يستدعي الزجر بالكلام، وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الإسلام وأنظمته آدابه شيئا، حيث لو دعوا لواجب ديني صحيح لغزوا نافرين، وإن كانوا أسرع إلى الخرافة... وحسبك من معرفة حالهم أنهم جاءوا الضريح المذكور بالتزاور والابتهال والدعاء ؛ وإن كان هذا الكلام مطابق للواقع بهذا المفهوم الخاطئ للتوسل إلى الله، إلا أنّ الله لم يطلب من عبادة أن يأتوه ومعهم من يحمل عنهم حسناتهم أو يستغفر لسيئاتهم و لم يجعل وساطة بينه وبينهم[1] لقوله تعالى:﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2].

وهكذا انتشرت بين الناس بدعة الوساطة بأن يتجهوا إلى قبور الصالحين طالبين منهم ما لا يطلب إلا من الله، اعتقادا منهم أنّهم يتقربون بالصالحين إلى الله وهم لذلك يلجؤون إلى من هم أزكى حالا عندهم ليدفعوا عنهم ما لا يمكنهم رفعه بتزكية قلوبهم وسلوكهم، وفي نظر محمد الغزالي كانت هذه الوساطة سر الانصراف عن الله الحق إلى عبيده الذين لا يملكون حول ولا قوة؛ فكم من عبادة ظاهرها توقير الله وهي تنتهك حرمات الله، ويشير الغزالي إلا أنّ هذا السلوك كان حركة وثنية لقوله تعالى:﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾[3]

وهذا الاعتذار القديم كما ذكر القرآن-هو نفسه ما يردده ليغطي الجهلة بالدين، كان المشركون يطوفون بالكعبة عرايا نساءً ورجالاً وحجتهم في ذلك أنّ طوافهم بالثياب عصيان لله، وقد حارب الغزالي هذه الممارسات وبين أنه لا مكان لوسطاء بين الله وخلقه، فالمسلم يقف بين يدي ربّه

---

[1]-ينظر: محمد الغزالي، **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة**، ، ص 192-193، وينظر: سهيلة مازة: **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص 217.

[2]-سورة الشورى، الآية 21

[3]-سورة الزمر، الآية 3

ويدعوه مهما كانت حالته متيقنا باستجابة دعائه من الرحمن ولعل الصلاة وهي العبادة الأولى خير دليل على هذا الاتصال المباشر مع الله دون وساطة بشرية أو مادية، ويعجب الغزالي لهؤلاء الذين يتخذون الأموات التي انقطعت صلاتهم بالدنيا وسطاء الله، وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا. إن هذا التفكير لا عقل فيه ولا إخلاص، كما يتصور الغزالي-بل هو أوهام تحاول تعكير التوحيد الخالص، وهو روح الإسلام، وما يأسف إليه أيضا اضطراب نظرة المسلمين إلى سنن الله الكونية بهذه الأوهام والبدع، وهنا يلفت الغزالي نظر المسلمين، إلى أنه إذا كلفنا بزيارة القبور حتى ترق القلوب وندعو لمن سبقونا بالمغفرة والرحمة، فهذا ليس معناه أن زيارة القبور عبادة، وأن الذين تربطهم بمكان القبور بعض مشاعر الرجاء، فهذه مشاعر مرفوضة جملة وتفصيلا ما دامت توهن أمل الانسان في الله، وتزده إلى غيره من الأموات أو الأحياء [1] وفي هذا يقول الغزالي: "نحن نغار على عقيدة التوحيد، ولا نسيغ شركا ونقبل آخر، وكم يحزننا أن يكون قلب أمريء ما فارغا من الله مملوء بغيرة ممن بقوا أو هلكوا"[2]... حتى جاء على الناس زمن ظنوا فيها أن مقاليد الكون أصبحت بأيدي مجموعة من هؤلاء يعرفونها بدلالهم على الله وهم جاهلون [3].

فالاستعانة على قضاء الحاجات أو طلب العون أو الشفاء أو الفرح إلا من الله وبالله، ولا يجوز لمسلم أن يتجه إلى قبر طالبا العون من صاحبه، على أن الغزالي لا ينكر محبة الصالحين والثناء عليهم، بل نجده يؤكد على أن احترام العظماء واجب حيث يقول: "ولا أعني بالعظماء أصحاب الثورة ولا أصحاب السلطة، فهؤلاء فيهم من يوقر وفيهم من يحتقر، وإنما أعني بالعظماء أصحاب العلم الغزير، والشمائل السنية، واليقين الحي، والجهاد المخلص" [4] ولعل دليلنا على ذلك هو ثناء رب العالمين على الصالحين من خلقه، وتنويهه تعالى بأخلاقهم لقوله **تعالى**:﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾[5] وقوله أيضا عن سيدنا نوح: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ

---

[1]-سهيلة مازه، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص 218-220

[2]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، ص 155

[3]-محمد الغزالي، **ليس من الاسلام**، ص 142

[4]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، المصدر السابق، ص 149

[5]-سورة مريم، الآية 41

﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾[1] فالثناء على الصالحين كما يرى الغزالي هو قانون مطرد تتوارثه الأجيال وتخلد به تقوى العابدين، وشجاعة الأبطال. طلب الدعاء من الصالحين وهم أحياء أو دعاء المؤمنين بعضهم لبعض ثابت من عهد سيدنا نوح الذي قال لربه:﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾[2]، إضافة إلى أن هذا الدعاء سواء كان عن حضور أو في الغيب، فهو مأثور مأجور لماله من دلالة حسنة وحسن الثواب، وحسن الظن بالله، حتى أن الملائكة حملة العرش تقول في ورد دائم [3]:﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[4] ويرد الغزالي في كتابه قولا لحسن البنا في هذه القضية موضحا ذلك: محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب عملهم قربة إلى الله تبارك وتعالى والأولياء هم المذكورين في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[5]، والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا على أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم [6].

المطلب الخامس: ترك الأخذ بالأسباب وتعطيل السنن:

من بدع العقائد التي تعتبر شركا بالله هو عدم الأخذ بالأسباب بل ونكران العلاقة الكائنة بين الأسباب والمسببات، والحقيقة –كما ذكر الغزالي –أن الخلاف الذي أداره علماء الكلام الأقدمون في

---

[1]-سورة الصافات، الآية 6

[2]-سورة نوح، الآية 28

[3]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، ص 160

[4]-سورة غافر، الآية 7

[5]-سورة يونس، الآية 63

[6]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، المصدر السابق، ص 160

هذه المسألة قد أثر على أفكار المسلمين ومشاعرهم [1] وهو ما يجب محاربته والذي يستغرب له الغزالي –وهو أن المسلمين قد اشتغلوا ببعض السخافات والبدع حتى حولوا دينهم إلى طلاسم يناط بها المستحيل في الوقت الذي غلبهم العجز عن فقه شؤون الدنيا وخصائص الأشياء.

كما جاء ذكره من قبل أن الغزالي يؤمن بما كشفته العلوم الحديثة، من حقائق، وخواص ممكنة لكثير من الأشياء، وليس للمسلم أن ينقصها أو يزيد عليها باسم الإسلام، بل لا يقبل منه دينا إذا تجاهلها باسم التوكل على الله، لأن التوكل لا يخدش قانون الأسباب والمسببات [2]، ولا يعطلها، بل ولا يمس القوى التي وهبها الله لمختلف العناصر في هذا الكون لقوله **تعالى**:﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] بل ومقتضى الإيمان الاعتراف بما أودع الله من طبيعة في مواد الكون، ومثال ذلك: أنه من خواص النار أنها تحرق، وانكار هذا لا يقول به دين ، والإسلام بريء منه لأنه دين يصدق الحقائق ويؤكدها ويوضح هذا ابن تيمية قائلا: "إن أهل الهدى والفلاح يثبتون علم الله وقدرته مشيئته ووحدانيته، وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه ومع هذا لا ينكرون ما خلقه من الأسباب التي خلق بها المسببات **قال تعالى**:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[4] **وقال تعالى**:﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[5] فأخبر الله أنه يفعل ومن قال إنه يفعل ما يريد عند وجود هذه الأسباب لا بها.

فقد خالف ما جاء به القرآن وأنكر ما أوجده الله من القوى والطبائع، وتوضيحا لذلك يعرف الغزالي الأسباب على أنها أدوات ووسائل فطرية وطبيعية، وهي سنن الله في خلقه، ولذا فجحودها

---

[1]-محمد الغزالي: **ليس من الاسلام**، ص 151

[2]-المصدر نفسه، ص 148، وينظر: **حقوق الإنسان**، ص 185-186.

[3]-سورة طه، الآية 50

[4]-سورة الأعراف، الآية 57

[5]-سورة المائدة، الآية 16

عبث، والتعويل عليها في بلوغ الغايات والعمل بها دين [1]، لذا نجده يستنكر على الذي يعلق ودعة أو تميمة، وهو يعتقد النفع فيها قائلا: "فالذي يعلق ودعة أو يحتفظ بتميمة ظانا أن هذه المواد تنفع في دفع مرض أو جلب رزق أو إطالة أجل، إنما وثني يجاري بتفكيره العفن تفكير عبدة الأصنام والعجول" [2] فالاستشفاء من الأمراض لها مواد أخرى حددتها علوم صحيحة، مبنية على الأخذ بالأسباب، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ، أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود، فجذبه فقطعه ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن أن يشركوا بالله ما لم يترل به سلطان، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: "الرقى والتمائم والتولة شرك" قالوا يا عبد الرحمان هذه الرقى والتمائم قد عرفناها. فما التولة قال: "شيء يصنعه النساء يتحببن إليه إلى أزواجهن" [3]. وروى أحمد عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ أبصر على عضد رجل حلقه من صفر فقال: "ويحك... ما هذا؟ قال: من الواهنة قال: أما إنها لا تريد إلا وهنا، انبذها عنها فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا" [4].

كما انتقد الغزالي بعض الناس الذين يتخذون المصحف نفسه حجابا، معتقدين أنه يقيهم الإفلاس إن كان تاجرا مثلا، أو يرد عنه بطش الرؤساء إن كان موظفا: قائلا: "وهذا تخبط سقيم وإذا حسبه السذج إيمانا بالله إجلالا لكتابه" فهم واهمون، فصلة المسلم بالقرآن العظيم أن يتدبره ويعمل به [5] ويؤكد الغزالي هنا على أن النجاح في العمل وفي شتى الميادين إنما هو منوط بالعمل والأخذ بأسباب، فكل تفريط في العمل لا يعوضه تعليق مصحف و لم يرد هذا في ديننا وما أنزل الله به من سلطان.

وقد بين الغزالي طريقا شرعيا يتوجه به المسلم إلى ربه إذا حيره أمر أو نابه سوء، أو حلت به مصيبة أو مرض —وهو الدعاء بدلا من تعليق الصحف فهناك أدعية في القرآن والسنة يستعين بها

---

[1]-محمد الغزالي، **ليس من الاسلام**، ص 152 وينظر سهيلة مازة: **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص217-218.

[2]-المصدر نفسه، ص 148

[3]-أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقي والتمائم، ذكر التغليظ على من قال بالرقى والتمائم، متكلا عليها، حديث 6090، ج13، ص 456

[4]-أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب: تعليق التمائم، حديث 3531، ص 804

[5]-محمد الغزالي: **ليس من الاسلام**، المصدر السابق، ص 149

المسلم ويرددها راجيا من الله أن يكشف عنه ما نزل به، ويسوق إليه رحمته: "وهذه هي الرقي التي نتعرف بها لأن الشارع هو الذي علمنا إياها، وهي من أسباب الكون المعتادة فإن العاجز إذا طلب من القادر شيئا ينتظم مع الحكمة العامة لم تكن إجابته إليه شذوذا ولا فوضى بل كانت عونا يذكر ويشكر" [1].

كما يحذر الغزالي من الاعتقاد أن الدعاء يخترق سنن الله الكونية، أو يهدم قوانين الأسباب والمسببات، بقدر ما هو توفيق للإنسان من الله، للأخذ بالأسباب الصحيحة، ومنع العوائق التي تعرضها. والإيمان بهذا النوع من الدعاء هو لون من الرقي لا شيء فيه بل هو إيمان محض [2] وليس من قبيل الشرك الذي حذر منه ابن مسعود كما سبق ذكره في حديثه.

ويخلص الغزالي بالقول: وهو يحذر من بدع العقائد وغيرها داعيا إلى علاج الانحراف ببصيرة وأناة وبالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه مؤكدا على أن البدع صغراها وكبراها لا يمكن إقرارها لقول الرسول ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه" [3].

والحقيقة أن سر هذه المحدثات في العقائد خاصة هي بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي من ناحية الخلق والسلوك أو العمل لذا يجب محاربتها بالحكمة وذلك بالالتزام بما صح من تعاليم الإسلام عقيدة وشريعة، فهذه خرافات وابتعدت عن جوهر الإسلام وعرقلت مسيرته الحضارية المنشودة، فلن يصلح للمسلمين دين ولن تصح لهم عقيدة إذا تناولوا أمورهم بطريقة لا يقرها وحي من كتاب وسنة ولا يؤكدها فكر سليم.

المطلب السادس: تصحيح الفهم الخاطئ لعلاقة الدنيا بالدين

إذا كان العلاج الذي قدمه الغزالي في الجبهة الأولى يستهدف إلى تصحيح الفهم العقائدي والوعي الديني من أجل إعادة صلتهم الحقيقية، بالإسلام مثلما كان على عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، فإن هذا العلاج قد ركز في جبهته الثانية على تصحيح وعي

---

[1]-محمد الغزالي: **ليس من الاسلام**، ص 149

[2]-المصدر نفسه، ص 150

[3]-أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب: إذا أصلحوا على صلح جور، فالصلح مردود، ح 2697، ص 313

المسلمين للدنيا وفقههم للكون، من خلال إعادة علاقتهم بها بعد وهن في أوصالها أحيانا وقطع في أحيان أخرى. وقد تبين الغزالي كيف حدثت القطيعة بين المسلمين والدنيا، لأسباب كثيرة أهمها فهمهم الخاطئ للإسلام، وعدم إدراكهم أن الإسلام هو الدين الذي يحث على العمل للدنيا والآخرة[1]، ويربط العمل في الدنيا بالإيمان ويجعل تأمل الإنسان في الكون وسيره لأغواره وإحاطته بأسراره، عبادة خالصة لله ترقى بها عقيدة الإنسان، ومفتاحا لنيل خير الدنيا والآخرة، ولهذا كان من أشد ما يتغرب له اعتقاد بعض المسلمين، أن الإيمان محصور في أداء مختلف العبادات والشعائر رافضا هذا الاعتقاد[2] وفي هذا الصدد يقول الغزالي: "وإني لأستغرب أحوال الناس ينتسبون إلى الإسلام ويريدون ظهرهم للكون، فلا يدرسون له قانونا ولا يكشفون له سرا، أي إيمان هذا؟ وأي جهل بقصة الحياة ووظيفة أدم وبينه في ربوعها" [3].

ويذهب الغزالي هنا إلى الجزم بأن العالم الإسلامي لن يحقق أية نهضة حضارية ما دامت هذه الأفكار منتشرة بين أبنائه، وعليه أن يحاربها وأن يستبدلها بإقناعهم، كما قال: "أم كل علم يطوي مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين وفرائض العبادات العينية، والكفائية، وهو أولى من نوافل العبادة ومسائل الخلاف التي يدع فيها الفارغون وانشغل بها المتنطعون" [4].

ويأسف الغزالي للأمراض والعلل التي ألحقت أضرارا فادحة، ووقفت عائقا في طريق أداء رسالة العمل والأعمار ومقصد الاستحلاف عن الله، وهو توحيد الله والتي كانت من بينها المفهوم الخاطئ للعلاقة بين الدين والدنيا، رغم أن الإسلام قد جعل الأرض والإصلاح فيها مطية للفوز بالآخرة، إلا أن كثيرا من المسلمين قديما وإلى يومنا هذا جانبوا التصور الإسلامي الصحيح، وفهموا أن الدين عدوا للدنيا وأن المسلم لا يبلغ درجة التقوى إلا إذا عاش وهو يعاني الفقر وكآبة المنظر، في الأهل والمال، وعاش جاهلا لسنن الله في خلقه، والكون والكائنات، فهذا الفهم السيء قد أنشأ أجيالا من

---

[1]-محمد الغزالي: **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص 78.

[2]-ينظر محمد الغزالي: **عقيدة المسلم**، ص 132-133.

[3]-محمد الغزالي: **علل وأدوية**، ص 09.

[4]-المصدر نفسه، ص 115.

المسلمين-دون شعور-تعيش حالة التطفل على غيرها، والاستقالة العقلية التي لا تملك دنيا ولا تفقه دينا[1].

ولخطر هذا المفهوم على انحطاط الأمة الإسلامية فكرا وسلوكا، فإن الغزالي سارع إلى تصويبه، كما يبينه هنا أن إسهاب النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة-في الحديث عن الآخرة وهو أحد أصول الإيمان الست (إيمان باليوم الآخر) إنما المقصود منه هو تهذيب الغرائز، وتربية الضمائر، ونشدان الخير والصلاح في الأرض وإعمارها، أما العجز في فهم الدنيا وكشف ذخائرها والجهل بأساليب استثمارها إنما يدل على طفولة فكرية يضارها الدين[2].

ومن جهة أخرى فإن القرآن يحث على تأمل الكون وتدبره، ويدعو إلى إمعان النظر فيه، حتى يدرك من ورائه عظمة الله، وقدرته تعالى وثمة زيادة الإيمان وتثبيتا للعقيدة الصحيحة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾[3] فيكون التأمل في الكون مفتاحا لإدراك عظمته وبالتالي مفتاحا لإدراك عظمة البارئ الذي أبدعه [4] كما يقرن القرآن دعوته لإدراك عظمة الخالق بدعوته البشر إلى استغلال الكون والانتفاع بما أودعه الله تعالى فيه، فإن الهيمنة على قوانين الكون تنفع الإنسان في الدنيا والآخرة وتمنحه قدرة على إعزاز عقائده والدفاع عنها [5]. فتستقر بذلك عقيدة التوحيد في نفسه.

ويرى الغزالي أنه إذا كان الغرب قد غزوا الفضاء بعدما سيطروا على زمام الحضارة في العالم، فإن المسلمين ما زالوا متمسكين بممارسات وتصرفات واعتقادات، لو أنشغل أسلافنا بها لما تمكنوا من نشر الإسلام، ولا استطاعوا إنشاء الحضارة التي نعمت البشرية بظلالها قرون من الزمن وفي هذا يقول

---

[1]-ينظر : محمد الغزالي: **علل وأدوية**، ص 177.

[2]-المصدر نفسه، ص 188.

[3]-سورة الجاثية، الآيات 3-5

[4]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي**، ص 43

[5]-محمد الغزالي: **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، ص 387

الغزالي: "إنه أمر مثير للعجب أن يعيش جمهور المسلمين من بضعة قرون لا يعرفون عن الكون شيئا يذكر، وأن تكون علومه ثانوية في ثقافتهم الخاصة أو العامة، وأن يكون التعرف على أسراره وقواه شيئا كماليا خفيف الوزن عند البعض، وضربا من اللغو والعبث عند البعض الآخر [1].

لذا تصدى الغزالي بعض الأصناف من العابدين الذين يعتقدون أن الانغماس في العبادات هو سبيل لنيل رضوان الله والفوز بالآخرة، حتى أصبح كما يقول: "أغلب العابدين يرجحون نافلة في مجال العبادات المحضة على درس علمي، أو ابتكار صناعي، وربما ظن تلاوة ورد أرضى لله من اختراع آلة، أو صون جهاز، أو إحكام إدارة أو تدبير سياسة" [2]، ولكن في الحقيقة هم يظلمون الإسلام باسم الإسلام وهم يجهلون، حقيقة الأمور، وحقيقة العبادات في الإسلام، فلا يدركون بفهمهم القاصر" أن عبادة الله في الحفل كعبادته في المحراب، وعبادته في المصنع كعبادته بالسعي والطواف" [3]... وأنها كما تكون مناجاة الله في صلاة خاشعة تكون مدارسة لعلمه الجليل في كونه الكبير [4].

وعن فلسفة الإسلام في الحياة يقول الغزالي: "إن الذمي لا يذكر الموت ليعطل الحياة، وإنما ليكفف من غلوائها ويمنع الافتتان بها والعزف في حماتها [5]، وهو بهذا القول إبراز فقه الحياة الإنسانية وتوسطها بين الدنيا والآخرة كقولهم: "عش لآخرتك كأنك تموت غدا وعش لدنياك كأنك تعيش أبدا" [6] وأمة الإسلام وسطا، لا تأخذ الدنيا وتغوص فيها فتنسى الآخرة، ولا تعمل للآخرة فتنسى الدنيا، وخاصة الوسيطة لهذه الأمة، هي في حد ذاتها فكرة الاعتدال بين الدنيا والآخرة ذلك كما قال الشاعر:

---

[1]-محمد الغزالي: **مشكلات في طريق الحياة الاسلامية**، ص 20

[2]-محمد الغزالي: **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، ص 60

[3]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي للإسلام**، ص 79

[4]-محمد الغزالي: **مشكلات في طريق الحياة الاسلامية**، ص 24

[5]-محمد علاء وحيد: **محمد الغزالي وتحطيم القيود**، مرجع سابق، ص 130

[6]-أخرجه التقي الهندي، كنز المال كتاب الحضانة من قسم الأفعال 5/581 رقم: 14034 وقال الألباني: لا أصل له موضوعا: وأنه اشهر على الألسنة في الزمنة

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها [1]

وحتى أن صور الثواب والعقاب كلها سبقت للترغيب والترهيب، ودعم تربية سليمة، يسعد بها المسلم في الدنيا ويفوز بها في الآخرة، ولعلّ أن الترغيب والترهيب هو في حد ذاته نهجا سليما يعبر عن وسطية الإسلام يقوم به سلوك الانسان ويدرك به فقه الدنيا والآخرة.

فذكر الموت كما يرى الغزالي –يضع حدودا حاسمة لشتى أهوال الحمق والغرور والاستطالة التي تبطش بالألباب وليس لإفساد الحياة وإساءة العمل فيها، بل للتخفيف من غلوائها وكفكفة الاغترار بها، فإذا اعتدل التفكير فلن تتحول السعة إلى فوضى، ولن يتحول الضيق إلى محن [2]، بل نشأ عقيدة سليمة في نفس المؤمن، تكون له العين الذي يبصر بها والعقل الذي يدرك به عظمة هذا الخالق، فيفقه بذلك غاية وجوده.

وبناءً على ما سبق ذكره نخلص إلى أنّ محمد الغزالي قدم كتبا في اصلاح "الذات الإسلامية" [3] التي شوهت بالتخلف الموروث، [4] ودراسات لتجديدها وتزويدها بالغذاء الإسلامي الصحيح والمتمثل في تجديد العقل، وتصفية رؤيته وتزكية الخلق وتربية النفس وتهذيب السلوك وترقيق مشاعر القلب، وإقامة علاقة التكامل فيما بينها، حيث كان هذا الميدان جانبا مهماً في مشروعه الفكري واجه به كل التحديات، ومدركا قبل ذلك ضرورة إصلاح الداخل الإسلامي، والذات الإسلامية لزيادة المناعة ضد الزحف الغربي عليها وفي هذا يقول: "إن تحديات الدعوة الإسلامية تجيء قبل أي زحف خارجي من داخل أرض الإسلام –على أنّ التحدي الأعظم للإسلام كله هو يقظة كل القوى المعادية له وتبييتها النية على اغتياله" [5].

---

[1]-ينظر: محمد الصلابي، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1409هـ-1988م، ص210

[2]-محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية**، ص 142

[3]-محمد عمارة: **المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي**، ج1، مرجع سابق، ص 31

[4]-ينظر: محمد الغزالي، **خلق المسم**، عقيدة المسلم، ركائز الايمان، التعصب والتسامح، جدد حياتك، ليس من الاسلام، هذا ديننا، من معالم الحق، كيف نفهم الاسلام، مع الله، الجانب العاطفي من الاسلام، الاسلام والطاقات المعضلة، تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل، سر تأخر المسلمين، علل وأدوية، دستور الوحدة الثقافية، وغيرها

[5]-محمد عمارة: **المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص 32.

فقد كان يعيب على العلماء أو الدعاة الذين يغلقون باب الوعي والمعرفة والثقافة، ويكتفون بالمقررات المفروضة، واللغة الموروثة ويتجاهلون الواقع وما يجري فيه من مستجدات ولعل ما يميز فكر محمد الغزالي هو خطواته الطليقة نحو المعرفة الانسانية المعاصرة، فيفيد منها ويتعرف على أبعادها بالمنطق والثقافة، كما يفتح أبوابا أمام الباحثين على الحقيقة والأمل. فقد كانت هناك جهود مهملة من طرف العلماء وخاصة ما يتعلق بالجانب الإنساني والتزكوي الأخلاقي، والناحية النفسية والسلوكية، إلا أن محمد الغزالي قد وضح كل ما يملكه الإسلام من تصورات أفضل وأصوب وأجمل وأمثلة ذلك كتابه "جدد حياتك" الذي جاء فيه مجال حي لبناء المسلم عقليا ونفسيا وخلقيا وعلميا حيث فتح به توجها إلى المجالات الجديدة في الفكر الإسلامي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: محمد الغزالي والتحديات المعاصرة

لم يكن محمد الغزالي بمعزل عما يحدث في عصره بل تفاعل معه وتصدى لتياراته وتحدياته، فقد وقف في وجه الاستعمار وفي وجه الصهيونية، الشيوعية، والحضارة المادية، والتنصر والعلمانية، كما كانت له مواقف وآراء حيال العقائد المنحرفة التي تمثل تحديات قديمة حديثة للمسلمين، كاليهودية والنصرانية والاستشراق، والفلسفات، وحرص على أن يكون للمسلمين أقدام راسخة في كل مجالات المعرفة، وأن تكون إحاطتهم بهذه المذاهب أكثر من إحاطة أهلها، وقد كان له منهجا في عرض العقيدة الإسلامية والتزكية الأخلاقية.

المطلب الأول: الحضارة الغربية

دعا محمد الغزالي إلى ضرورة دراسة الحضارة الغربية والانتفاع بها وذلك حسب ضوابط الاستفادة ومقتضيات الاستيعاب، كما أنه ينظر إلى قضاياها من منطلق قرآني، حيث يرى أن الجانب الأخلاقي فيها والإنساني هو المرفوض[1] ذلك أنّه يستغل قوته المادية والعلمية في نشر الأباطيل حول الإسلام، فالغرب كما يصفه محمد الغزالي هو: "المسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، الغرب الذي يجر وراءه ألوفا من الأمم المأسورة والدول المقهورة بعد ما كسّر شوكتها بقوته الباطشة، الغرب الذي رسم الصلبان رمز التضحية على رايات تضلل جيوشا انشغلت بالسلب والنهب، وانطلقت في مشارق الأرض ومغاربها تثير الرعب والفزع؛ هذا الغرب العنيد الذي يسير بحوثا علمية نزيهة لإثبات أن الإسلام قام على السيف [2].

وقد حرص الغزالي على لفت انتباه المسلمين إلى حقيقة النوايا التي تحرك الغرب، ويحدد موقفهم بناء على حقدهم الذي لم يتوقف أبدا و لم يتوان عن اتخاذ أساليبه لمهاجمة العالم الإسلامي، فهذه الحضارة عملت على صرف الخلق عن الخالق وعن التفكير فيه كما عبر عنها أنّها: "تعرف الخلق لا تعرف الخالق، تعرف اليوم لا تعرف الغد" وقد شبهها بأبي الهول التمثال القابع عند الأهرام في مصر

[1]-رمضان خميس الغريب، **محاور المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص233.

[2]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ص 106

له وجه إنسان وجسم حيوان، كذلك هذه الحضارة لها عقل أنسان وغرائز حيوان [1].

وهكذا اتخذت الحضارة الغربية دينا بإيثار العمل للدنيا، واهمال الآخرة، ورغم أنّها نجحت كثيرا في بلوغ درجات رفيعة من التقدم العلمي والتطور المادي، إلا أنّها فشلت عندما حولت البشر إلى عبيد التراب، وجعلت جماهير غفيرة تحيا ليومها، وتذهل عن آخرتها، وتكدح لمآربها القريبة، ولا تفكر تفكيرا جاداً في مرضاة الله، والعمل به، بل قد طوعت التقدم العلمي لخدمة أخس الغرائز، وهيأت العالم لحروب لاحقة.

وبالتالي فإن الغزالي لم يرفض الحضارة الغربية في جانبها الإنساني والأخلاقي، إلا عندما وقف على واقعها اليومي، ومختلف الملابسات التي تكتنف الحياة في ظلها، وبذلك فإنه من جملة السلبيات التي يجب على المسلمين أن يحذروا منها هي ابتعاد هذه الحضارة عن الله، وإعلانها المعصية له وفي هذا يقول: "تجاهل الناس رسالتهم ونسوا ربّهم وشرعوا لأنفسهم، فماذا كسبوا؟ كسبوا أزمات الجوع والخوف، إن الساسة أجهدوا ذكاءهم في الشرق والغرب، حتى درت الأرض السمن والعسل، ثم جمدوا ذلك الخير كله في أسلمة الدمار الشامل، وبقيت الأمم تلهث وراء الضرورات المضنية إلا ما أسأم العصيان وأقل جدواها، مهما كان لصاحبه من ذكاء وحضارة إذ نصف الجهد في تحصيل الأقوات لو بدل في الأدب مع الله وابتغاء مرضاه لكسب الناس الدنيا والآخرة معاً [2].

فالحضارة الغربية قضت على كثير من المبادئ الإنسانية، الرفيعة والأخلاق الكريمة وفتحت أبوابا لانتشار الرذائل وشيوع المباذل، أما استحضار رقابة الله وخشيته، فأمر مستبعد، بل أنه رجعي، ودلالة على التخلف والانحطاط في فلسفتها.

وإلى جانب هذا، فإن الحضارة التي يرفضها الغزالي ويحذر منها كافة المسلمين من الإفتتان بها، هي التي ساندت الغزو العسكري والثقافي وتمده بأحدث الوسائل وتدعمه بأرقى الطرق لاستبعاد العالم الإسلامي أو القضاء عليه. ومقابل هذا الموقف من الحضارة الحديثة، فإن الجانب الذي يرى

---

[1]-ينظر محمد الغزالي، **كنوز من السنة**، ص 9

[2]-محمد الغزالي: **فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء**، ص 6

ضرورة الاستفادة منه واجبا هو الجانب المعرفي العالمي[1]. كما سبق ذكره-إذ يقول: "أما صلتنا بالدنيا يجب أن تتسع دائرتها إلى أبعد الحدود، وأن نهجر أخطاءنا إلى صواب غيرها وألا نستحي من التعليم والاقتباس وأن نحث الخطى إلى الأحسن حيث كان في شرق أو غرب [2].

ففي نظر الغزالي، أنه على المسلمين في سبيل إعلاء كلمة الله وتحقيق النهضة الإسلامية أن ينتفعوا بكل التجارب الإنسانية النافعة دون أن يهتموا بمصدرها أو موطنها، وهو بذلك يتفق مع شكيب أرسلان الذي سبقه بالقول: " إن الذين يفهمون الإسلام حق الفهم يوصون بكل جديد لا يعارض العقيدة ولا نخشى منه مفسدة، ولا أظن شيئا يفيد المجتمع الإسلامي يكون مخالفا للدين المبني على إسعاد العباد"[3]

وإن كان الغزالي معجبا بما حققته الحضارة الحديثة من تقدم وازدهار، فإن تعجبه أكثر من قرب هذه الحضارة إلى فطرة الله في هذا الجانب، في الوقت الذي ابتعد المسلمون عنها حين انكمش الدين في نفوسهم، وضعفت العقيدة في قلوبهم، واختل معناه في سلوكهم، لذا دعا الغزالي كافة المسلمين إلى ضرورة العمل والاكتشاف، لتحقيق المعنى الأصيل للتدين مؤكدا بأن: دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامي أول وأن أي عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح ودمغ للإلحاد" [4] والغزالي بذلك ماض إلى تصحيح الفهم الخاطئ للمسلمين، والذي يرى أن العمل يجب أن يكرس للآخرة، أما الدنيا فلا فائدة منها أو الذي يرى العلم والكشوف معادية للدين مبيناً لهم أن الحقيقة على خلاف ذلك وأن القصور في فهم الدنيا والغربة فيها والعجز على امتلاك زمام الحياة، فهذا كله لا يدل على تقوى، بل يدل على طفولة فكرية يضارها الدين، وتنكس بها أولويته وتتقهقر بها تعاليمه [5].

وفي الوقت ذاته فإن الغزالي قد أوجز شروط الاقتباس من الحضارة الغربية حتى لا تضار عقيدة

---

[1]-محمد الغزالي: **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، ص155.

[2]-المصدر نفسه، ص 156

[3]-شكيب أرسلان: **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم**، موقع للنشر الجزائر، د ط، 1990، ص 112

[4]-محمد الغزالي: **علل وأدوية**، ص 84

[5]-المصدر نفسه، ص 196

ولا تمس شريعة وقوله "الاقتباس من الغرب لا يقبل بتاتا إذا خالف نصا في كاتبه أو سنة" [1] مؤكداً على ضرورة رفع اللثام على حقيقة التزكية الأخلاقية في حياة الإنسان.

ومن هنا نخلص إلى أنّ الغزالي وهو ينتقد الجذور العقدية والفكرية والجانب الأخلاقي للحضارة الحديثة فإن نظرته تتفق مع رؤية بعض نقاد الحداثة[2] اليوم أنّه إذا كان الانسان الغربي قد أسس مشروعه الحداثي الذاتي على مجموعة مسلمات منها، عقلنة الأسطورة والتوجه إلى الإنسان والانفصال عن الاله، ومبدأ الثقة في العقل والانفصال عن الوحي، ومبدأ القلق بالدنيا، والبعد عن الآخرة؛ فإن مألات هذا الفعل الانفصالي انتهت به اقرارا إلى استمرار ما ثار ضده مع تغيير الأمكنة والمواقع، أي أسطرة العقل، وتقديس العلمنة وتأليه الإنسان.

المطلب الثاني: العلمانية

تقوم فكرة العلمانية على ثلاثة دعائم وضعها كلا من ميكافلي وهيجل وداروين؛ فميكافلي تقوم فلسفة السياسة على التحلل من الأخلاق اعتمادا على فلاسفة القوة والصراع والنفعية، وتعتمد فلسفة هيجل على الصراع بين الفكرة ونقيضها، ونقيض النقيض، أما فلسفة التاريخ عنده هي علاقة صراع بين العصور، ويعتمد أصل الأنواع عند داروين على فكرة البقاء للأقوى، والدمار والاندثار للأضعف [3] فالعلمانية نموذج مركزي وحدودي يعتمد على العقل، ويرفض السماء والتشريع الإلهي ويقصي الآخر، وفق ثقافته، لكن العالمية في الإسلام كما يتصورها محمد عمارة من منظور قرآني تختلف جذريا عن العالمية العلمانية الغربية، فهي ترفض الانفراد بالعالم وتتهم بالتدافع والتسابق من أجل الرقي والتقدم، الذي يحقق التعددية الحضارية رافضا للفردية وفي هذا يقول محمد عمارة" "فالعالمية الاسلامية هي تنوع وتعارف وتعايش وتدافع وتسابق في اطار الوحدة الانسانية..." [4] ولعل محمد عمارة يدعّم برأيه هذا الغزالي في العلمانية ويعطي البديل الإسلامي كمنهج حياة وهي العالمية.

---

[1]-محمد الغزالي: **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، ص64

[2]-ينظر: محمد سبيلة وعبد السلام بنعبد العالي، **الحداثة وانتقاداتها**، نقد الحداثة من منظور غربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، ص8-11.

[3]-محمد عمارة: **العالمية الإسلامية والعولمة الغربية**، مكتبة البخاري، القاهرة، ط1، 2003، ص 19

[4]-المصدر نفسه، ص11-13

يتمحور مفهوم العلمانية المتداولة في الأوساط الإسلامية في معظمه حول "فصل الدين عن الدولة"، والحقيقة أن هذا التعبير لا يعطي مدلولا كاملا للعلمانية إلا فيما يتعلق بالناحية السياسية وفي هذا يقول سفر الحوالي: "ولو قيل أنها (فصل الدين عن الحياة) لكان أصوب ولذلك فإن المدلول الصحيح هو إقامة الحياة على غير التدين في جميع مجالاتها سواء بالنسبة للأفراد أو للفرد، وتختلف الدول في موقفها من الدين بمفهومها الضيق المحدود: فبعضها تسمح به كالمجتمعات الديموقراطية الليبيرالية وتسمى العلمانية المعتدلة non religions أي أنها مجتمعات لا دينية ولكنها غير معادية للدين وذلك مقابل ما يسمى (العلمانية المتطرفة antireligieux) أي المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها [1]

كما يذكر محمد عمارة في كتابه أن العلمانية هي التي شاعت لكلمة Sécularisme في البلاد العربية وهي بمعنى: الدنيوي والعالمي، والواقعي من الدنيا والعالم والواقع المقابل للمقدس" أي الديني الكهنوتي النائب عن السماء، والمحتكر لسلطتها والمالك لمفاتيحها والخارق للطبيعة وسننها، والذي قدس الدنيا قداسة الدين، وثبّت متغيراتها العلمية والقانونية والاجتماعية ثبات الدين" [2].

أمّا تصور عبد الوهاب المسيري [3] للعلمانية فهو كما قال: "يوجد في تصورنا علمانيتان لا علمانية واحدة، الأولى جزئية ونعني بها العلمانية باعتبارها فصل الدين عن الدولة والثانية شاملة، ولا تعني فصل الدين عن الدولة، وحسب وإنما فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية الدينية لا عن الدولة وحسب بل وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص" [4].

---

[1]-سفر الحوالي: **العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة**، الدار السلفية للنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1987، ص21

[2]-محمد عمارة: **الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية**، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003، ص 17

[3]-عبد الوهاب الميسري (1938-2008م): ماجيستير في الأدب الإنجليزي بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، دكتوراه بجامعة رتجرز، عاد إلى مصر سنة 1969، حيث درّس بجامعة القاهرة (1971-1975)، عيّن خبيرا بالشؤون الصهيونية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ثم عمل مستشارا ثقافيا بنيويورك 1975، ترأس حركة التنصير المصرية 2007 إلى أن توفي، من آثاره: العلمانية الجزئية الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دفاعا عن الإنسان، ينظر: موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الجزيرة. نت عبد الوهاب المسيري تاريخ الوصول 2007/7/3

[4]-عبد الوهاب المسيري: **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002، ص 15

– محمد الغزالي والعلمانية

لعل أبرز المعارك التي خاضها الغزالي وأقوى المواجهات التي واجهها في عصره؛ هي معركته مع العلمانية اللادينية التي تعارض حاكمية الله لخلقه وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة والمجتمع وتحارب من يدعو إلى الإسلام، وتعتبرهم دعاة الرجعية وأعداء التور وهي العلمانية الشاملة كما عبر عنها عبد الوهاب المسيري حسب اعتقادي فإن الحداثة اليوم ما هي إلا مظهر من مظاهر العلمانية وأداة من أدواتها، فقد وقف الغزالي في وجه العلمانيين الذين يبغضون عالمية شريعة الإسلام، ويدعون إلى تغريب المجتمعات الإسلامية، كما أدرك الغزالي خطورة هذه العلمانية عندما فضلت بين الناحية العقدية والتشريعية في الإسلام، وأعلنت الحرب على قوانين الشريعة لأنها ربانية وهي الخاصية التي جعلت لها الهيمنة على قوانين الأرض وضمنت لها الاستمرارية والثبات، فالسعي إلى تعطيلها هو ضرب للإسلام. كما يقول القرضاوي: إن الشريعة هي العدو الأول للعلمانيين في البلاد الإسلامية، لأنها هي التي تنقل الإسلام من عالم النظريات والمثاليات إلى دنيا الواقع والتنفيذ، وهي تهيئ للمجتمع سندا من القوانين من عدوان العادين، وهي تردع نوازع الإيمان وأشد ما تكون عداوة العلمانيين للشريعة فيما كان مضادا لاتجاه الغربية وفلسفتها في التشريع والنظر إلى الفرد والمجتمع [1] فالعلمانية التي قضت على الأخلاق وعطلت حدود الله، وزرعت في أوساط المسلمين الحرام لم يجن منها المسلمون إلا مظاهر الاضطراب، والانحراف وعدم الاستقرار في الشخصية، ولعل خطر هذا الفكر العلماني على بلاد المسلمين أشد سوء من خطر الفكر الإرجائي، لأنه طعن في أصول الدين[2].

ولقد اتسمت مواجهات الغزالي ببعض الشدة مع بعض دعاة العلمانية ومن أمثال هؤلاء نص أبو زيد، فرح فودة، محمد سعيد العشماوي حيث يقول الغزالي عن هؤلاء العلمانيين وغيرهم، لماذا لا نسمي هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقي لهم: المرتدون، فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، و لم يعد في قلوبهم توقير لله تعالى، ولا تعظيم لكتابه ولا احترام لرسوله ولا انقياد لشريعته [3] كما يعجب الغزالي لهؤلاء لحرصهم على الاحتفاظ باسم الإسلام، وأن يظلوا محسوبين

---

[1]-يوسف القرضاوي: **العلمانية في مواجهة الإسلام**، مرجع سابق، ص 29-30

[2]-محمد الغزالي: **عقيدة المسلم**، ص66-67.

[3]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ص 132

عليه، ولعل ما كان يغيض الغزالي أكثر من هؤلاء هو كذبهم على الله عز وجل أن أقحموا أنفسهم على دين الله فهم الذين يعتبرهم الغزالي نباتات سامة في حقول الإصلاح [1] وفي اعتقادي أنّ رأي محمد الغزالي في هؤلاء يؤخذ منه ويرد، خاصة في حكمه عليهم "الردة"، إلا أنني أقول أن محمد الغزالي قد يكون له مبررات لحكمه هذا وهو أدرى بمقتضيات عصره وحيثيات فكر هؤلاء أنذك، إلا أنني أعتبر اتجاههم العلماني هذا، آراء ووجهات نظر تؤدي حتما إلى الحكم عليهم بالرِدة ويرجع الغزالي سبب دخول العلمانية في الأوساط الإسلامية إلى الاستعمار الفكري والثقافي، وإلى البعثات العلمية، وأيضا إلى الأقليات المسيحية حيث كان متفطنا ، إذ أخذ على نفسه أن يكشف عملاء الغرب في ديار المسلمين وينتهك أثارهم التي يتخفون وراءها ويتخذون لها عناوين شتى من الحرية والتقدمية والتطور والتحرر والتنوير وغيرها [2] من أجل ذلك تصدى لكل من سلامة موسى ولويس عوض ومشيل غفلق وغيرهم من النصارى، كما ردّ طه حسين نزار قباني، عبد الرحمان الشرقاوي وغيرهم من المسلمين، ومن أمثلة ما كتب طه حسين يقول: "إن الدين الإسلامي يجب أن يعلّم فقط كجزء من التاريخ القومي لا كدين إلهي نزل بين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في قيم الحياة السياسية، أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة، فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين" [3] هنا قرر طه حسين أن يتم إبعاد الإسلام عن الحياة العامة، ولقد ركز الغزالي في الدفاع عن الإسلام–على إبراز خصائص التشريع الإسلامي، ومقاصده وعلاقته بالعقيدة والإيمان وذلك في جميع المجالات. ففي المجال الاجتماعي مثلا اهتم الغزالي بالمقاصد الإيمانية للبناء الأسري، فتبين مكانة المرأة في الإسلام لأنها مداخل أعدائه.

كما اهتم بتبيان مقاصد الشريعة من إقامة الحدود التي هي تعبير على إقامة العدالة الإلهية فوق الأرض، إذ حين غاب تطبيقها بين المسلمين في واقعهم غاب العدل وضاعت الحقوق[4].

---

[1]-يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، مرجع سابق، ص 80

[2]-المرجع نفسه، ص 82

[3]-طه حسين: **مستقبل الثقافة في مصر**، مرجع سابق، ص 62

[4]-ينظر: محمد الغزالي: **حقوق الإنساني بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة**، ص188.

فقد وضّح الغزالي من خلال ذلك أن التشريع الإسلامي له أسس عقدية ينبثق منها وله غاية تربوية وخلقية يهدف إليها، وهذا التشريع هو رباني المصدر، وهو يجعل الإنسان بذلك يخاف مخالفته خشية من الله، ويقينا منه أن الله ليس بظلاّم للعبيد، وبالتالي يلتزم التطبيق قصد تحقيق سعادة الدنيا والنجاة في الآخرة خلافا للقانون الوضعي، فهو بشري المصدر، حيث يخلو من الأبعاد الإيمانية والتزكوية فإذا غابت القوة غاب تطبيقه. ولذلك تنفيذ القانون إذا أنيط بسلطة مادية وحدها كان شديد الإرهاق للناس، فإذا ابتعدت هذه السلطة لم يكن هناك ظلا لقانونا ولا تقديرا لمصلحة[1].

وعليه فإن احترام القانون والسعي إلى تطبيقه يرجع في الأساس إلى أصله وغايته وفي هذا يقول: " إن قداسة القانون تعود قبل كل شيء إلى أصله وإلى علاقة الناس بهذا الأصل، فإذا اعتمد القانون على أنه من عند الله جعل الناس هيمنته على أعناقهم جزء من صلاتهم وزكاتهم، والتشريع الذي يستعمل هذه الغاية هو الذي تستقيم به الأحوال وتستقر به الأوضاع [2]، وبهذا فإن الغزالي في فكره يربط دائما عقيدة الإنسان بحياته ربطا وثيقا، فهي المنطلق وهي الغاية، وذلك حتى تستقيم حياتهم وسلوكهم الذي هو ثمار لتزكية أخلاقهم.

وانطلاقا من هذه القناعة التي هي من مقومات إيمانه، تصدى الغزالي للعلمانية التي تعمل على الفصل بين الدين والحياة، حيث يقرر أنه لا يمكن الفصل أبدا بين الربوبية والحاكمية، ومن ذلك فهو مرتد، لقوله **تعالى**:﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[3] مضيفا أنه: "لا يجوز للناس أن يتخذوا غير الله ربا أو حكما، والذي يبعد عن الله جاحدا للحق خائن للثقة وكذلك الذي يتبع غير ما شرع الله ويحكم بغير ما أنزل الله لماذا يعطي بشرا ما حق منازعة الله في أمره ونهيه وتحليله وتحريمه؟ لماذا يملك إنسان ما أن يدع كلام الله جانبا وأن يطرحه وراء ظهره، ثم يأتي لنا من عند نفسه بأحكام يزعم أنها أولى بالإتباع من أحكام الله. أهو أصدق من الله، أهو أبصر

[1]-محمد الغزالي: **هذا ديننا**، ص 243-244

[2]-المصدر نفسه، ص 250

[3]-سورة الأنعام، الآية 114

منه بمصالح الخلق؟ أهو أذكر لما نسي رب العالمين من حاجات الناس [1].

وبذلك فالغزالي في ردّه على العلمانية كان يقظا في ضبط المفاهيم واعيا بأن الحرب على الشريعة هي محاولة القضاء التدريجي على الإسلام كله، وأن إبعادها عن الحياة هو محاولة طمس لأصول العقيدة لذلك نجده يؤكد في ردوده على الدين الإسلامي هو انقياد مطلق لله فيها أمر ونهي، وأن العلاقة بين الانسان وربه تقوم على أساس مبدأ السمع والطاعة لقوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[2].

وقد جاء في حوار للغزالي مع أحد العلمانيين[3] قال له: ماذا عليك لو كسبتم الإيمان والأخلاق وتركتم شؤون التشريع والاقتصاد والاجتماع تعملون فيها وفق العقل الحر والزمان المتجدد؟ أجاب الغزالي موضحا له أن الإسلام كلا متكاملا عقيدة وشريعة لا يقبل البتر والتجزئة، وقد حاول بنو اسرائيل قديما فعل ذلك فقيل لهم ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾[4] فيرد عليه الغزالي قائلا: "إنك يا صاحبي مخادع كبير حين تعزل الاسلام عن الشرائع والمعاملات وحركات الحياة والأحياء... إنك كسبت طائلا" [5].

ومن ردوده أيضا كتابه الأول: "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين" الذي أوضح فيه أن هدف هؤلاء العلمانيين هو فتنة المسلمين عن دينهم، وإبعادهم عن عقيدتهم بأروع وسائل الحيل والمداهنة، وحين نقرأ كتاب "جولد تزيهر" العقيدة والشريعة" نجد توافقا كبيرا بين أفكاره وما يذهب إليه دعاة العلمانية في العالم الإسلامي.

---

[1]-محمد الغزالي: **هذا ديننا**، ص 214

[2]-سورة النساء، الآية 65

[3]-محمد الغزالي، **جرعات جديدة من الحق المر**، ج3، ص152.

[4]-سورة البقرة، الآية 85

[5]-محمد الغزالي: **جرعات جديدة من الحق المر**، ج5، ص 152-153

أما عن كتابه "من هنا نبدأ" فقد جاء ردا على كتاب خالد محمد خالد قبل تغيير رأيه، في طريق التغريب والعلمانية، حيث يرى أن الإسلام يمكن أن يقبل القسمة التي قبلتها الكنيسة، فيعطي الدنيا لقيصر ويعطي المسجد لله، وليس لله مكان في حياة الناس الاقتصادية أو السياسة أو الاجتماعية، ومن هنا رد الغزالي عليه ردا علميا موضوعيا، مهذبا حتى تبين له الحق، وأثمر ذلك العدول عن آرائه العلمانية كتابه (الإسلام دين ودولة).

أما كتب الغزالي التي قاومت التغريب والعلمانية كتابه "ظلام من الغرب" وكتابه (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين) و"الاستعمار أحقاد وأطماع" وقذائف الحق" وغيرها [1]. فضلا عن أفكاره الموجهة ضد العلمانية والتغريب، والمبثوثة في كثير من كتبه الأخرى وخطبه وحواراته.

ونورد في هذا المقام رؤية أحمد الرسيوني للإصلاح الأخلاقي أنّه جزء من الإصلاح الاجتماعي الذي هو عمل المربين والدعاة والعلماء، وأن الهيئة الاجتماعية تؤثر على الأخلاق، وهناك تدهور في الأخلاق وليس في العبادات، رغم أن المقصد الأول في البعثة هو إتمام مكارم الأخلاق وتزكيتها، ذلك أنّ قوانين الإسلام بنيت على الأخلاق، فأوضاع المسلمين ليست ضعيفة فقط، بل القضية الأخلاقية متردية، فقد يجوز تخلفهم سياسيا واقتصاديا، فهذا ممكن لكن أن يكونوا متخلفين في الأخلاق وليس لهم عذر كأمة أخلاق [2] ويتساءل أحمد الريسوني عن موقع المسلمين وترتيبهم في الأخلاق عالميا؟! وما موقعهم في الصدق، في الاتقان، في الغش في العمل؟! ربما سيجدون أنفسهم في درجة دون الوسط! والاشكالية كما يتساءل: كيف أن جيوشا من علماء المسلمين ودعاتهم والصوفية، والمربين لم يتمكنوا من أن يجعلوا المسلمين الأمّة الأولى في الأخلاق؟! كما تساءل محمد الغزالي السؤال نفسه، وهو يعالج أهم اشكالات عصره، مدركا أن حلّها في السير نحو نهضة إنسانية حقيقية.

كما يذكر محمد الغزالي في كتابه قول "وليم جيمس" "إننا إذا عرفنا كيف يستطيع الزرع تحويل ضوء الشمس والماء والكاربون إلى سُكر ليتغذى به لوسعنا أن نغيّر وجه المدينة تغييرا شاملا.

---

[1]-عبد الحليم عويس، **الشيخ محمد الغزالي: تاريخه وجهوده وآرائه**، مرجع سابق، ص 89

[2]-أحمد الرسيوني: **محاضرات في الأخلاق**، مقاصد تأصيل وتفعيل . http://raissouni.net, 2019/04/10

غير أن جهلنا بأسرار أجسامنا ومظاهر الكون حولنا لا يمنعنا من استخدامها والاستمتاع بها ولن يكون جهلي بأسرار الدين ما نغالي من الاستمتاع بالحياة الروحية السامية التي يهيئها لي، ولقد وعيت آخر الأمر الحكمة البليغة القائلة، لم يخلق الانسان في الحياة ليفهمها؛ وإنّما خلق ليحياها [1] وهو يؤيد في بعض ما قال هذا المفكر أنّ إدراك كنه المادة صعب، وإدراك كنه الروح أصعب وإدراك كنه الذات العليا خالقة المواد والأرواح جميعا أوغل وأعمق في الصعوبة والامتناع، كما أنّ الوقوف عند الصفات الظاهرة فحسب لا يخدش اليقين، أمّا رفضه لأسئلة تعدى قدرة العقل هو من فبيل ما أوصى به الدين ويوحي به العقل الرصين إلاّ أن هناك أسئلة أخرى يجب أن تثار ويُجيب عنها العقل...، وذلك عندما تحتوي العقائد على نزاعات ومتناقضات ويقبلها فإنّها تعطّل وظيفته الفكرية.

كما أن إكراه المرء على أمور بحجة أن العقل لا يدرك كل شيء هو مغالطة واضحة، فإذا كان الوثنيون يعيشون بقلوب تنعقد على مشاعر عميقة، فهل معنى هذا أننا نسّوي بين الإيمان بالباطل والإيمان بالحق؟ بحجة أنّ الإيمان المطلق يهب صاحبه قلبا مستقرا وفؤادا رضيا؟ هذا ما يجب أن يُسأل عنه "وليم جيمس" وهو ما يحدثنا عن متعته بالحياة الروحية التي جلبها له الإيمان بعدما أسكت الأسئلة الشائكة التي هجست في نفسه قديما وأوهت صلته بالكتاب المقدس [2].

ويخلص من خلال ما سبق ذكره، في هذا المبحث أن جهود الغزالي اتجهت إلى إعادة النظرة التكاملية للإسلام وأنه دين عقيدة وشريعة إيمان وعمل خلق وسلوك وكل متكامل؛ حيث أدرك أن الخلل الذي أدى إلى تراجع المسلمين نظرتهم التجزيئية وسوء فهمهم للدين الذي أدى إلى التدين المغلوط وانتشار البدع والخرافات. لذا دعا الغزالي إلى تنقية التراث الإسلامي والرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة وإلى تجاوز الخلافات وتجنب التقعر في الجدل الذي لم يجن من ورائه المسلمون في الجانب العلمي إلا الهزيمة والتخلف وكسر الهمم.

أما عن الصعيد الخارجي وبالنسبة للفكر الوافد، فقد حارب الغزالي دعوات التنصير، وتصدى للفكر العلماني ودعاة الاستشراق والتغريب مدركا أن أي مساس بالشريعة هو امتداد للنيل ومن

[1]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، دار الشهاب للطباعة والنشر، ص 24

[2]-ينظر المصدر نفسه، ص 25-27

العقيدة والإسلامية إيمانا وسلوكا[1].

وبناء على ما سبق يتبين أن محمد الغزالي قد حرص على حسن توجيه طاقات الأمّة، بتأكيده على أهمية حفظ طاقات النفس، وتوجيهها للإفادة منها على النحو الأمثل، كما دعا إلى ضرورة تخليص الأمة من الشهوات المفسدة للروح الإسلامية؛ مؤكدا على الأثر التزكوي على الفرد والمجتمع، ذلك أن من أهداف التزكية الأخلاقية إرضاء الله، والحذر من مطامع الدنيا، والاعتدال في التمتع بها، وذلك بإحياء مقاصد الشريعة في إعداد الإنسان معمّرا ومصلحا في الدنيا ومتطلعا إلى الآخرة؛ وفي نظره أنّ العبادات لا تصنع ذلك التغيير إلاّ إذا حققت مقاصدها، فالصلاة مثلا إذا لم تمحو الحسد والحقد من نفس الإنسان، فإنّها لم تغيّر فيه شيئا، ذلك أنّ السجود الحقيقي ليس انطواء الجسم أمام الله بل هو انقياد القلب والعقل لهداياته كما سبق ذكره.

[1]-ينظر: سهيلة مازة: **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، مرجع سابق، ص241-244.

المبحث الثالث: التزكية الأخلاقية وسؤال الحداثة

المطلب الأول: الحداثة[1] والمنظور الأخلاقي

في الدلالة الاصطلاحية تعرف الموسوعة البريطانية الحداثة على أنّها حركة ظهرت في أواخر القرن العشرين وتدعو إلى إعادة تفسير التعاليم الكاثوليكية التقليدية في ضوء النظريات التاريخية والفلسفية، والنفسية وتدعو إلى حرية الضمير، وترى أن العهدين القديم والجديد مقيدان بزمامها وأنّ هناك تطور في تاريخ الديانة الانجليزية [2].

ويرى عبد الوهاب المسيري أنّ الحداثة الغربية ليست مجرد استخدام العقل والعلم والتقنية، وإنما استخدامها خارج نطاق انساني أو أخلاقي [3] أي أنّها وعلى وجه الدقة "استخدام العقل والعلم والتقنية المنفصلين عن القيمة Value Free في التعامل مع الواقع" هذا ما يُحيلنا إلى البعد المعادي للإنسان الذي تّم عن وعي أو غير وعي، وفي هذا الإطار أصبح العالم الغربي منفصلا عن القيمة بمعنى لا توجد معايير إنسانية أخلاقية أو دينية تحكم مختلف التعاملات والمعاملات الإنسانية، وبالتالي ففي نظره أنّ مصطلح الحداثة من أهم الظواهر التي انتجتها الحضارة الغربية والتي تعكس تحيزاتها [4] حيث تبدأ مرحلتها من نهاية الحرب العالمية الأولى حتى منتصف الستينات من القرن العشرين ويعرفها على "أنّها تتبنى العلم والتكنولوجيا والعقل كآليات وحيدة للتعامل مع الواقع، ومن أهم خصائصها أن المادة هي أساس الفكر ومصدر المعنى والقيمة، وأنّ التكنولوجيا العلمية تمثل معيار القيمة، كما تعمل على السيطرة على الطبيعة، ومن هنا يرى المسيري أنّ الحداثة منظومة امبريالية داروينية تحكمها العقلانية المادية في اطار ثنائية الانسان والطبيعة حيث يكون فيها الانسان مركز الكون. لذلك نقد

---

[1]- تعرّض ابن منظور لمادة (حدث) الحديث نقيض القديم... حدث الشيء حدوثا وحداثة وحدث أمر إذا وقع، وحداثة السن كناية عن الشباب وأول العمر. (ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر بيروت 1300 هـ، مادة حـ د ث).

وإلى جانب هذا المعنى فإنّ للكلمة بعداً دينيا لحديث النبيّ ﷺ: " إياكم ومحدثات الأمور" (رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، السلسلة الصحيحة للألباني (9372)) ومحدثات الأمور هي كل ما ابتدعه أهل الهوى من الأشياء.

[2]-ينظر: عبد الوهاب المسيري، **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، ط1، القاهرة، مكتبة الشروق، ص 34. علي عدنان رضا النحوي، **تقويم نظرية الحداثة**، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط2، (1414هـ-1994م)، ص57-60.

[3]-عبد الوهاب المسيري، المرجع نفسه، ص 34-35.

[4]-المرجع نفسه، ص36. وينظر: علي عدنان رضا النحوي، **تقويم نظرية الحداثة**، مرجع سابق، ص76-77.

عبد الوهاب المسيري الحداثة الغربية التي تعتبر العقلانية المظهر الأساسي للحقيقة، كما أنّها تتسم بالطابع المادي الحسّي، وبالتالي أصبح التقدم سمة حضارية وقانون عاما طبيعيا، يخص الانسان وحاجاته قد أصبح وعليه فإنّ عملية التقدم ليس لها غاية إنسانية محددة أو مضمون أخلاقي محدد، فالتقدم مثل الطبيعة مجرد حركة علمية، ما يفسّر أن منطق التقدم الغربي-أي الحداثة-الغربية تنهار معه قيمة الانسان الأخلاقية والروحية وتحل محلها قيمة السلعة، لأن المنطق المادي أيقونة الانسان الحداثي بقدر ما هو أيقونة التقدم-كما عبّر عليه المسيري [1] وبذلك يصبح التنافس والتسابق من أجل السلع والمال مقصد الانساني الحداثي الذي تملكه الأنانية وحب الذات[2].

ونلاحظ أن محمد الغزالي يلتقي مع المسيري أيضا في تقديم النموذج البديل الذي يقوم على خصوصية حضارية إسلامية بمنطلقاتها النظرية والعقدية، الذي تنبع من تراثنا، وهو بديل توليدي غير تراكمي ينطلق من الانسان ولا يعتمد على النظرة الضيقة، حيث هو بديل يقوم على عنصر جوهري وهو أسلمة المعرفة والعودة إلى الخصوصية الإسلامية الحضارية، وهذا لا يمنع أبداً الأخذ من الغرب، والانتفاع بحضارتهم المادية بما يحافظ على الهوية الثقافية والحضارية للمسلمين.

أما طه عبد الرحمن يؤكد في كتابه "من الانسان الأبتر إلى الانسان الكوثر"[3] أنّ كل نظرية تربوية تحتاج إلى تأسيس فلسفي يجعل وجودها مشروعا وبناءها معقولا، والنظرية التربوية الاسلامية تحتاج إلى شرعية دينية، وشرعية عقلية، ذلك أن التدين في حق المسلم ليس مجرد سلوك تعبدي يلجأ إليه لتسكن نفسه ويطمئن قلبه، وإنما هو طريقة لتحقيق ذاته في الوجود، وأول سبيل لبناء تلك النظرية هي النظر في الخطاب التربوي السائد ونقده نقدا إيمانا في أصوله ومسلماته، خاصة الخطاب

---

[1]-عبد الوهاب المسيري من المفكرين المعاصرين، تميز بإنتاجه المميز، حاول تقدم مشروع فكري نهضوية، كان له موقف نقدي من الحضارة الغربية وفلسفتها المادية لا سيما اشكالية الحداثة الغربية، محاولا بهذا النقد إعادة صياغة معاني الحداثة تنظيرا وتطبيقا يتماشى مع الحضارة الإسلامية.

[2]-عبد الوهاب المسيري، **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، المرجع نفسه، ص 35-36. وينظر: علي عدنان رضا النحوي، **تقويم نظرية الحداثة**، مرجع سابق، ص61-63.

[3]-يفصل طه عبد الرحمان في كتابه في مسألتين إحداهما تتعلق بالسلوك ويقصد به فقد التربية، والمسألة الثانية تتعلق بالفكر، ولكي يتحول الإنسان من الأبتر إلى الكوثر لا بد له من تربية وتزكية ذات أسس خمس هي: أن يكون المقوم التربوي ثابتا مستقلا، حيًّا ومبدعا، وأن تتم التربية بالتأصيل الإيماني، وأن تهدف إلى تجديد الإنسان بكليته، وأن يتم هذا التجديد بإحياء روح الإنسان أولا، ثم يتم إحياء الروح بتوسيع العقل "إيمان دفاق" و"تثبيت الإرادة" "عمل تواق".

الحداثي، مع الإشارة أنّه لا يمكن أن توجد نظرية إسلامية في التربية في ظل اغفال مفاهيم "التزكية" النفسية والأخلاقية، لذا فهذه النظرية ليست اصلاحا جزئيا لشخص ما، ولكنها تقوم بإعادة التشكيل الكلي للإنسان مقصدا ووجهة وهي كما عبر عنها ولادة قلبية جديدة، تهدم أركان نفسه القديمة وتصحح قلبه "ولادة كوثرية" كما يؤكد على أن هذا التأسيس مقيد بالتاريخ وممارسته[1].

ورغم أن المقصد الأساسي للحداثة هو في كل ما تنتجه وتصدره، إلا أنّها تبقى المؤسسة الحداثية هي المسيطرة على تربية الأجيال الحالية على مناهجها البديلة[2] فكرا وتنظيما وسلوكا أين غابت المفاهيم الأساسية في العلمية التربوية من الهدى، التدبر، النور، البصيرة، التهذيب، حتى أن مفهوم التزكية الذي يُعد محوريا في الرؤية الاسلامية للعملية التربوية، أهملته الحداثة كما ذكر طه عبد الرحمن وأنتجت الانسان الأبتر الذي لا تستثمر من قواه، ولا يحقق من امكانياته إلا قدراً ضئيلا لتركيزها على ماديتها، وإغفال النظرة الكلية للكون والإنسان، وهنا يلتقي كلا من محمد الغزالي وطه عبد الرحمان في تأكيدهما على أنّ التربية تنبّه العقل المسلم أن يتعامل مع كل ظاهرة على أنّها آية تستوجب النظر والاعتبار[3]، والبحث عن موطن الإيمان وتزكية نفسه، خاصة ونحن نعلم أن الإنسان الحداثي أصبح لا يخفي عنه إلا أشياءً قليلة، وأنّ العالم تجرد له من أسراره منذ الثورة الصناعية أي ما يسّميه "عصر الأنوار"، فإن تسلط هذه الرؤية على عقل الانسان منعته من التفكّر في الملك والملكوت، وحجبته أن يسبح بعقله وقلبه في الكون، ويدرك ببصيرته ما لا يدركه بصره، كما أن هذه الرؤية هي التي جعلته يعيش في خلق الذي لا يرتاح منه إلا بهداية من الوحي وأنواره وبالتالي فإن الشهود على التأسيس وبناء الحضارات لا يتحقق إلا بتفوق أخلاقي حي[4]، لذا وجب على المسلم أن يتوسل بالمعرفة المادية والقوة العلمية لتحقيق الشهود بعد تحقيق تفوقه الأخلاقي، وكما سبق ذكره يرى محمد الغزالي أن الشهود على الناس مجاله علم القيم والأخلاق، وهو يتعجب ممن يظن أن رتبة الشهود تكون في إقامة الصروح العلمية والتقنية فحسب، وهذا الرأي أنتجته العلمنة في

---

[1]-طه عبد الرحمان: **من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر**، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط2، 2016، ص36.

[2]-علي عدنان النحوي: **تقويم نظرية الحداثة**، مرجع سابق، ص84-85.

[3]-طه عبد الرحمان: **من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر**، مرجع سابق، ص40.

[4]-محمد الغزالي: **تراثنا الثقافي يمتد في فراغنا**، ص 93.

عقل ونفس المسلم [1] وهو بهذا يوافق رأي طه عبد الرحمن فرغم أنّ الحضارة الغربية التفتت بالفعل إلى الكون الكبير واكتشفت من أسراره ما فات القرون الأولى، ولكن اهتمامها بالكون كان لارتفاقها منه وانتفاعها به، لا لتُزوّد منه باليقين الواجب والإيمان المبرور [2] ذلك أن العرض من البحث الكوني الذي دعا إليه القرآن هو الانتقال من الكون إلى المكوّن ومن المخلوق إلا الخالق ومن آيات الإبداع إلى المبدع؛ والحضارة الحديثة قد تدان في هذا الجانب-كما يقول الغزالي-إلاّ أنّ أهل الإيمان قد يدانون قبل غيرهم عند تحديد التبعات وتنصب موازين العدالة [3]. ويعتقد الغزالي أنّ السبب الأكبر في شيوع الالحاد، وهجر الدين هو سلوك جمهور المتدينين وتفكيرهم. وفي هذا الصدد ذكر علي الوردي وهو ينتقد حال العرب وموقعهم في ظل الحداثة والعلمانية إذ يقول "لو خيّر العرب بين دولتين علمانيتين ودينية لصوتوا للدولة الدينية وذهبوا للعيش في الدولة العلمانية" [4] وهو بقوله هذا يطرح اشكالية المتدينين -كما عرضها محمد الغزالي-فهم يدّعون الدفاع عن الدّين بقصور في العقل، وبساطة في إدراكهم للكون، إذ ليس بالضرورة أن يكون الملحد علمانيا، كما أنّ المسلم ليس بالضرورة أن يكون مؤمنا يقينا. ولعل هذا القصور في توظيف العقل-رغم أنّه سلطة من سلطات الإيمان، هو ما أدى إلى ظهور العنف والإرهاب الذي أسس له باسم الدين.

كما نجد طه عبد الرحمن يفكك طبيعة الدولة الحديثة وتدبيرها التسيّدي [5]، فيخبرنا أن الدساتير والحقوق وغيرها ليست سوى أغلفة تخفي الظلم القائم في أصله على منازعة السيادة الإلهية، وتلك منازعة لا يجد أظلم منها لأنّها لا تحرر الإنسان كما تحرره السيادة الإلهية، وإنما تستبعده، وذلك ظلم مزدوج، ظلم غيبي بمنازعة الخالق، وظلم مدني باستعباد الخلق، وفي هذا الصدد نجد طه عبد الرحمن يقول: "الدساتير والحقوق وغيرها ليست سوى أغلفة تخفي الظلم القائم على منازعة

---

[1]-ينظر محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ص 48-49. ينظر: طه عبد الرحمان: **من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر**، مرجع سابق، ص52.

[2]-محمد الغزالي: **ظلام من الغرب**، ص 48

[3]-علي الوردي، **وعاظ السلاطين**، دار ومكتبة دجلة والفرات، ط2، 2010، ص64. وينظر كتابه: **مهزلة العقل البشري**، 1994، دار ومكتبة دجلة والفرات، ص 48

[4]-علي الوردي: **وعاظ السلاطين**، المرجع نفسه، ص 106

[5]-طه عبد الرحمن: **روح الدين**، المركز الثقافي العربي، 2012، ص24.

السيادة الإلهية، "كما يؤكد أنّ الحوار الديموقراطي والقول التحليلي لا يتحقق بهما الخروج من التسيّد، فلا بد من العمل الجذري أي "التزكية" المتدرجة لتخليص الإنسان من حب التسيّد السياسي القائم على التغييب، والمورث لحب التعبد الديني القائم بدوره على التسيّد (الشهود) إذ كما يقول "الخروج من التسيّد إنما هو دخول في التحرر المورث لحب الإيمان حتى يجد الفرد له حلاوة لا تعدلها حلاوة، ويستشعر رقة سعة ونشوة لا تفي بها العبارة كمن فكّت عنه أغلاله وحطّت عنه أثقاله...[1]

المطلب الثاني: محمد الغزالي والحداثة الغربية:

تبين للباحثة من خلال نقد محمد الغزالي للنموذج المعرفي والحضاري الغربي، وبكل ما يحمله من قيم بعيدة عن الجوانب الأخلاقية والروحية-رغم اقراره بالجانب الايجابي له-أنّه قد قدّم لنا نموذجه البديل كرد على تداعي خصوصيتنا الحضارية ومنطلقاتنا العقدية والمعرفية، وكذلك نظرتنا إلى الكون والانسان؛ حيث يرى الغزالي أن النموذج البديل أن يكون نابعا من التراث الاسلامي وينطلق من الانسان الذي لا يدعي الكمال في علم ولا يتنافى مع العقل والتجربة، كما يؤكد على ضرورة الأخذ من الغرب والانتفاع بما يمكن الانتفاع به، شرط أن يتفق مع خصوصياتنا، وألا يهدد هويتنا الثقافية والحضارية.

وإذا لم يكن لمحمد الغزالي في فكره مصطلح الحداثة فقد عايش مقتضياتها ودعواتها، وكان فكره منفتح على الآخر يتفاعل معه رداً أو نقداً بما يوافق الخصوصية الحضارية أو ما يوافق العقل السليم، وإذا كان أغلب الحداثيين يجمعون على أنّ أدوات الحداثة تقوم على الركائز المذكورة سابقة-وهي العلمانية والعقلانية، والعلم، والحرية الفردية (الليبيرالية) والديموقراطية واحترام حقوق الإنسان، النسبية في العلم، فإنّ محمد الغزالي كان من المفكرين المعاصرين الذين كان لفكرهم حضوراً بارزا في اكتشاف الوجه الحقيقي للحداثة عمليا وواقعيا بجميع مقوماتها، فقد أوضح الغزالي في العديد من كتبه[2] ومؤلفاته أن المنظومة الغربية (الحداثة) أدت إلى إزاحة الانسان عن المركز، واختزاله في المرجعية المادية أي يرد إلى الطبيعة في قوانينها وسننها، وبالتالي تنتزع عنه قداسته في أنّه إنسان

[1]-طه عبد الرحمن: **روح الدين**، مرجع سابق، ص25-26.

[2]-محمد الغزالي: ظلام من الغرب، تراثنا الفكري بين ميزان الشرعة والعقل، يمتد في فراغنا، جرعات جديدة من الحق المر، ليس من الإسلام، علل وأدوية، سر تأخر العرب والمسلمين.

متكامل بالعقل والقلب والوجدان.

كما أدرك الغزالي أن العقل الفردي القائد للحضارة يتشكل من أربعة أسس ومقومات هي: مبدأ صياغة "داروين" المتمثلة في أنّ البقاء للأقوى والأصلح، وصياغة "ميكافللي" في أن السياسة لا تخضع للأخلاق وأنّ الغاية تبرر الوسيلة، صياغة ماركس وأنّ محرك التاريخ هو صراع الطبقات كتناحر الأمم، أما الرابعة فهي صياغة "فرويد" ونيشته" في أنّ الغريزة هي المحرك لحياة الانسان.

إضافة إلى أن محمد الغزالي قد دعا إلى نقد التراث الاسلامي وغربلته، كما أنّ سمة المعاصرة لفكره قد وجهت روحه المتوقدة وفكره النقدي حتى برز مميزا في كتابه "السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه"، حيث نجده قد استخدم جملة المبادئ المؤسسة لتجربته الروحية في سجاله مع المخالفين المعاصرين ومناهجهم تحليلا ونقدا ورداً مثل الاشتراكية / الشيوعية / الليبيرالية / الاستشراق / والداروينية والعلمانية، -كما سبق ذكره-وذلك ايمانا منه أنّ الإسلام للإنسان والحياة[1]. كما يؤمن من أنّ الفكر الإسلامي هو الصبغة العقلية للإنسان المسلم، إذ كان في جملته مستحدثا بعد نزول القرآن الكريم واتضاح السنن، ومن دوافع استحداثه عوامل لا تنحصر في طبيعة نصوص القرآن، ولا في تقويم الحديث، بل تتجاوز ذلك إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانتشار المسلمين في العالم، كان له طابع ثقافي وحضارة مادية، أدّى إلى التقاء الثقافات والمواريث بين الأخذ والرد، وتحريك الدعوات الفكرية والثقافية. وبالتالي فإنّ الغزالي كان من السباقين في نقده للتراث في أغلب ما كتب حيث يقرر أنّه لا نهضة إلا بغربلة التراث الذي كانت فيه عللا وآفات تسببت في عرقلة مسار النهوض والتقدم، والتي لا تزال تعاني من آثارها إلى اليوم كما يصف محمد الغزالي حال أمته فيقول: "نظرت إلى أمتي الإسلامية، واستغربت عجبا من مواقفها أمّة هي خمس العالم، نبحث عنها في حقول المعرفة فلا نجدها في ساحات الانتاج فلا نحسّها في نماذج الخلق الزكي والتعاون المؤثر، والحريات المصونة، والعدالة البالغة فنعود صفر اليدين"[2] وبذلك قدم الغزالي خطة تستفي ما يوافق الكتاب والسنة والعقل السليم من التراث وأكد على بعض المحاور منها:

[1]-محمد الغزالي: **تراثنا الفكري بين ميزان الشرعة والعقل**، ص94.

[2]-المصدر نفسه، ص95.

1- اعادة النظر في المرويات تقرر أن الإسلام توسع بالسيف حيث يؤكد أن الحرية الدينية حق، ويأتي من يجهل بالقرآن فيقول أن آية {لا إكراه في الدين} منسوخة؟!.

2- تنقية تفاسير القرآن من الترهات والخرافات والإسرائيليات.

3- اكمال منهج نقد الحديث، وعدم الاكتفاء بصحة السند، فقد يصح الحديث سندا ويضعف متنا لمخالفته القرآن أو العقل أو العلم أو المشاهدة، أو السنة الكونية أو المقصد الشرعي.

ومن المفكرين الذين أثار فكرهم جدلا كبيرا المفكر الجزائري محمد أركون[1]، حيث كان لمحمد الغزالي موقفا معه في مؤتمر "الصحوة الإسلامية والمجتمع الإسلامي" بالجزائر، وكان مضمون مداخلة محمد أركون حول اعتبار نص القرآن خطابا لغويا يجب اخضاعه لأحكام ومقايس النقد الأركيولوجي وهذا ما أثار ثائرة محمد الغزالي حينها قال له: إن كنت تؤمن بصحة ما تدعو إليه فأنت مرتد! وقد اتهم محمد الغزالي أنذك مع يوسف القرضاوي بتهمة التحريض على استباحة الدماء، إلا أنّ موقف الغزالي ليس إلا رأيا منه وحكما خاصا قد يخطئ ويصيب، ولعلّ حكمُ على ظاهر قول أركون يعود لحرصه الشديد على الدين وحميته الإسلامية، أما عن كلام محمد الغزالي فقد وضعه ضمن شروط إن كان يعتقد في صحة ما يقول وليس مجرد القول فقط وخاصة أن فكر محمد أركون نتج عنه صدام عنيف بين حراس التراث الديني وبين دعاة الفكر الحداثي.

المطلب الثالث: آثار الحداثة على التزكية الأخلاقية

-لعل المقارنة الكبرى للحداثة الغربية بدأت بتقديس الإنسان وانتهت بالقضاء عليه، حيث أن العالم الغربي يعيش تقدما تكنولوجيا وعلميا مذهلا، وفي الوقت ذاته يعاني الفراغ الروحي والأخلاقي والوجداني؛ ذلك أن سلم السلع والاستهلاك المادي كان على حساب سلم القيم والأخلاق وبهذا يكون الانا حسب الرفاه المادي وفقد الراحة الروحية والقيم الأخلاقية في الآن نفسه[2]، كما أن الحداثة أحدثت انقلابا على المرجع المطلق[3] "وهو الله الخالق" أي انقطاع الصلة بين الإنسان وربّه

[1]-ملتقيات الفكر الإسلامي، **ملتقى الصحوة الإسلامية والمجتمع الإسلامي**، الجزائر، 1984.

[2]-ينظر: علي عدنان رضا النحوي، **تقويم نظرية الحداثة**، مرجع سابق، ص84-85.

[3]-آلان تورين، **نقد الحداثة**، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، 1977، ص59-60.

وهذا التحول يعتبر من أهم نتائج الحداثة أو المشروع التحديثي الغربي [1] حتى أصبح الانسان لا يرغب في الاعتراف بأصله الإلهي، وبالتالي طغت عليه سمة الاغتراب وتمّ تحرير القيم، والغايات الأخلاقية والإنسانية وساد التصور بأن العالم خُلق صدفة[2] فآمن الإنسان حينها بعبثية الحياة، وأنّه لا شيء يستحق منه التضحية والاهتمام، ولعلّ من أهم آثار الحداثة على التزكية الأخلاقية مايأتي:

أ-تعميق الفردية: تقوم نظريات الحداثة الغربية على العربية والاعلاء من شأن الفرد مقابل الجماعة، ثمّ أنها في مراحل ما بعد الحداثة دفعت بالإنسان الغربي نحو التروع الشديد للفردانية والتفرد، أي التميّز والاختلاف عن كل ما يحيط به، ممّا يجعله يستسلم لضغوط العولمة باسم الاستقلال الذاتي وتوكيد الذات. ثم يؤول إلى زيادة التفكك الهدام والعنيف للأنشطة الحياتية المعتادة والهشاشة المخيفة لشبكات الروابط الإنسانية والالتزامات المتبادلة التي كانت تساندهم وتشعرهم بالأمان [3].

ب-انعدام القيم العليا والأخلاق:

منذ بواكر العهد الصناعي ظهر المشروع المركزي للتنوير الذي كان فيه استبدال الأخلاق المحلية والعرفية والتقليدية، والقيم الأخلاقية وكل أشكال الإيمان المتعالي بأخلاق نقدية وعقلانية قدّمت كأساس لحضارة كونية فتعاظمت بذلك في عصر الحداثة النسبية المعرفية والأخلاقية معا لتختفي النزعة النضالية والأحلام المثالية؛ حيث أصبح الإنسان الحداثي يحارب التضحية بالذات الحاضرة في سبيل الغايات البعيدة ويحارب فكرة القبول بالمعاناة في سبيل نيل الخلاص في الحياة الأخروية، كما أنّها شككت في قيمة التضحية حتى أعلن المجتمع الحديث نهاية فكرة المجتمع المناضل[4].

---

[1]-محمد عمارة: **مستقبلنا بين التجديد الاسلامي والحداثة الغربية**، مصر، مكتبة الشروق الدولية، 2007، ص 39

[2]-عبد الوهاب المسيري، **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، ص 256

[3]-وائل حلاق، **الدولة المستحيلة والإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي**، ترجمة: عمرو إسلام، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1 2014، ص 184-185

[4]-المرجع نفسه، ص 185.

جـــ-المال صنم الحداثة:

نتج عن الحداثة أن طبعت في صميم القناعة أن الناتج الإجمالي للسعادة البشرية يزيد كلما زاد تبادل المال؛ حيث أصبحت حياة استهلاكية جعلت من العالم بكل أحيائه وموجوداته وموضوعاته للاستهلاك وبالتالي إذا كان الانسان الغربي قد أسس مشروعه الحداثي الذاتي كل مجموعة مسلمات منها: عقلنة الأسطورة والتوجه إلى الإنسان والانفصال عن الاله، ومبدأ الثقة في العقل والانفصال عن الوحي، ومبدأ القلق في الدنيا والبعد عن الحياة الآخرة فإنّ مآلات هذا الفعل الانفصالي انتهت به اقرارا إلى استمرار ما ثار ضده-مع تغير الأمكنة والمواقع، أي أسطرة العقل وتقديس العلمنة وتأليه الإنسان.

المطلب الرابع: سؤال الحداثة وبديل التزكية الأخلاقية:

يقصد هنا: هل الإنسان الحديث في علاقته مع الله ومع المجتمع يختلف عن الإنسان في زمن ما قبل الحداثة؟

توصف التجربة الدينية السابقة لزمن الحداثة بأنّها أشبه ما تكون بتجربة "الأبوة والبنوّة"، معنى أن الإنسان القديم في علاقته مع العالم كان شديد الخوف من المجهول ومن الكوارث الطبيعية وكان أقل تشكيكا لما حوله من مفاهيم وتصورات، بل أكثر تصديقا لها، وكان يرى حاجته لله في كل شيء[1] من حوله وفي أزمة ونزاع، لذلك يمكن أن نوصف تجربته بأنّها شعور عالٍ بالانجذاب نحو القدرة الإلهية المتعالية عن بشريته الضعيفة، أما انسان اليوم فإنّه مع زمن الحداثة والتقدم التكنولوجي والعلمي أصبح أكثر امتلاكا لنفسه وأقوى تدبيرا لها ولعالمه الخارجي من السابق، فقد استطاع الوصول إلى دقائق العلوم المختلفة مع اتسّاع قدرته العلمية في سنن الميادين، حتى وصل إلى حالة الشعور أنّ الانسان قادر على تدبير شؤون حياته بمعزل عن الخالق، فظهرت فيه نزعة نحو تغييب صفات الاله أو محاولة تمثلها بشكل ضمني غير صريح وهو ما يطلق عليه بـــ"أنسنة الوجود أو كما يسّميه طه عبد الحمن بـــ"التسيّد"[2] ويعني نزوع الانسان نحو امتلاك صفات الاله أو بتعبير أبو حامد

[1]-علي عدنان رضا النحوي: **تقويم الحداثة الغربية**، مرجع سابق، ص55-56.

[2]-ينظر: طه عبد الرحمن: **روح الدين**، مرجع سابق، ص25.

الغزالي: بمنازعة الخالق سبحانه في صفاته[1] ومن الفوارق أيضا بين الانسان الحديث وانسان ما قبل الحداثة أنّ الانسان الحديث كما يراه الفيلسوف "ايريك فروم" مخدوع بكذبة الخلاص الإنساني، والسعادة الدنيوية، وهو أيضا شديد الوعي بضرورة كسر القيود الخارجية التي تحد من حريته وهو غير مدرك للقيود الداخلية التي تقيده، وهذا ما يوهمه أنّه حر، إضافة لذلك فإنّ الانسان الحديث يسير وفق قاعدة: "لا جهد لا ألم" إذ هناك حالة من الخوف اتجاه الألم النفسي ولا الجهد الذي يوربه التعلم، أو التعب الذي يورثه بناء العلاقات شكل هادئ من خلال المواقف والأحداث جراء الاحتكاك والتعايش، أو الصبر على أذى العلاقات والصبر على مشاكل الحياة الزوجية، لذلك نرى الانسان الحديث أسرع إلى القطيعة تجنبا للألم والصبر النفسي لمواجهته بمعنى عدم قدرته على تزكية نفسه وخلقه لمواجهة هذه العلاقات واستمرارها، وخاصة مع تواجد الوسائل الحديثة للتواصل الاجتماعي التي تستطيع بها أن تلغي علاقة كاملة بالضغط على زر الحجب مثلا! وبالتالي فالإنسان الحديث أصبح أشد تفردا واستقلالية وعزلة وأقل تأثرا ووعيا بالأوهام التي تحيطه، وهذا كلّه على تدنيه في علاقته مع الله التي تحتاج إلى جهد عملي في الشعائر[2]، وجهد نفسي في تدريب النفس على التزكية وتربيتها ومجاهدتها، كما يؤثر ذلك على علاقته بالناس في تحمّل الأتلاف والأذى وفي جهد الصبر على ديمومة العلاقات وتحسينها، وهذه الفوارق بين الانسان القديم والانسان الحديث (المعاصر) كان لابد أن تختلف معها الخيرية الدينية؛ كما يرى بعض الفلاسفة وأن الانسان الحديث أقل تجربة دينية من القديم، والقصد بكلمة أقل ليس الكم لأنّ التجربة لا تقاس عموما، بل المقصود هو قلة حضور هذا الشعور الديني في حياة الانسان، وهذه في الحقيقة حالة مغلقة ومخيفة في الواقع المعاصر وتستدعي معها سؤال التزكية النفسية والأخلاقية وفعاليته في الزمن المعاصر للتخفيف من حدة النشوة العلمية والمادية والغرور الإنساني حتى تستعيد له توازنه.

ولعل مفهوم التزكية محاطا بأوهام مسبقة في أذهان بعض الناس من قبيل تصورها والاعتقاد أنّها نشوة صوفية أو سلبية أو أنّها انسحاب من الواقع الإنساني، وهذا ابتعاد عن مفهوم التزكية الحقيقي، ذلك أن التزكية كما رأينا تقوم بتربية الذات ودفعها نحو الخير والصبر والنصح، فهي ليست

[1]-عمار سواح: اختلاف التجربة الدينية وسؤال التزكية. Hpp://www.alrashad.org.10/04/2019

[2]-المرجع نفسه.

لحظات انسحاب من واقع بقدر ما هي جهد نحو اكتمال الذات وانضاجها في سبيل تعاملها مع الواقع بشكل سليم[1]، والتزكية كما يرى محمد اقبال[2] أيضا ليست تنكرا للذات بل اثباتا لها، ولا تنقضها بل تكملها وهي سبيل من سبل تحقيق الاستخلاف في الأرض وهو ما يذهب إليه كل من محمد الغزالي ومحمد اقبال في رؤيتهما للتزكية الأخلاقية.

وإذا نظرنا إلى مسائل الغرور والعجب والكبر والحياة والشهرة وآفات اللسان والقلب وغيرها من الرذائل نجد أنّها مسائل تعالجها كتب التزكية[3] بأمثلة حيّة من الواقع وبإدراك حقيقي للإنسان، كيف يفكر وكيف يتعامل فهي تقصد الانسان والرقي بواقعه الإنساني، ومن هنا أصبحت العلاقة اليوم بين التزكية والانسان والواقع علاقة تفاعلية وبالتالي فإنّ سؤال فعالية التزكية في الزمن المعاصر أصبح واقعا، وتزداد أهميته في ظل وجود وسائل التواصل الاجتماعي التي تفتح أبوابا كثيرة من الآفات والنفسية والاجتماعية، وتعزر من فردانية الانسان المعاصر ودورانه حول نفسه، وهذا ما قد يحجبه عن رؤية حقيقة العلاقات كما قد يحجبه عن علاقته بربّه ولعل الانسان المعاصر في حاجة ماسّة إلى ما يسميه الفيلسوف "أريك فروم"[4] "العين التالية" التي تكون بوابة الولوج إلى النفس والوعي بها، ومن ثمّ يكون وعيه تجاه خالقه اتجاه المخلوق، وقد تعني ما يقرأوه بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ ﴾ [5] بأنّها العين الجارحة والعين التي يبصر بها الانسان نفسه وعيوبه، بأن يكون يقظا، ونجد قول النفري في المخاطبات "من سألك عني فسله عن نفسه فإن عرفها فعرَفني إليه، وان لم يعرفها فلا تعرِفْني عليه فقد أغلقت بابي دونه".

---

[1]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي من الإسلام**، ص60.

[2]-محمد إقبال: **تجديد الفكر الديني**، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ص76.

[3]-محمد الغزالي: **الجانب العاطفي**، ص334.

[4]-أريك فروم: عالم نفس وفيلسوف ألماني أمريكي (1900-1980م)، من مؤلفاته: The art of loving, Escape from reesdom، الهروب من الحرية. http://ar.m.wikipedia.org

[5]-سورة البلد: الآية: 8.

وحسب اعتقادي فإنّ التزكية التي تقنع الانسان المعاصر في ظل تحدياته وواقعه، أن يدرك أن المعرفة الإنسانية لا يمكنها أن تعلو إلى ما وراء حدود هذا العالم الإنساني، الذي سخر له ليعيش في كوكبه، وأن هناك خطأ من الانكسار في المعرفة البشرية، تمثل قديما يطلب موسى عليه السلام من ربّه أن يراه بالعين البشرية وبطبيعته التي خلق عليها، فكان الرد أن أغّمي عليه حين نظر للجبل، فلم يستطع بحواسه وأدواته[1] أن يحيط بالخالق لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]

واعتقد أنّ أهم المراتب التي ينبغي للمؤمن المتزكي أن يصل إليها هي –كما يسميها طه عبد الرحمن– رتبة "الممنونية"[3] حيث يرى فيها العبد أن النعم والمنن الإلهية رزق من الله الذي قد لا يستحقه، وأنّه لولا خالق الأسباب لما وصل الانسان لهذا الرزق علما كان أو معيشة، لذلك ينسب كل شيء إلى الله، وتصبح علاقته مع الله علاقة شهودية، شهد له الله تعالى على كل عمل عمله أو علم وصل إليه بفضله، وييصر عجز نفسه في استحقاقها لهذا الرزق، فيعبده كأنّه يراه، ويزكي نفسه لطاعته عبادة وعملا، وإذا وصل الانسان لهذه المرتبة من التزكية يشهد أنّها بفضل الله ورحمته لقوله تعالى:﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[4] وبذلك تتحقق له عبادته لله وأنّه عبد من عباده.

---

[1]-عمار سواح: **اختلاف التجربة الدينية وسؤال التزكية**، موقع واحة الفكر.http://www.alrashad.org .

[2]-سورة الأعراف، الآية 143

[3]-طه عبد الرحمان: **روح الدين**، مرجع سابق، ص26.

[4]-سورة النور، الآية 21

ويخلص مما سبق أنّ التزكية التي تسهم في حضور التجربة الدينية بل التي يعيش بها المؤمن دينه ودنياه[1].

لا يمكن أن تقدم في مقال أو كتاب فقط على أشكال الوعظ والتوجيه والإرشاد، أو محاضرة أو خطب ولكنها حالة من الحضور والشهود والانجذاب نحو الخالق، وأيضا حالة من المجاهدة المستمرة، وهو عمل التزكية النفسية والأخلاقية المرتبطة بالإحساس والمعاناة والقلق؛ وقد تتجلى هذه المعاناة في حالات الصبر عند الاختبار كما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يؤمر بذبح ابنه، أو كتفويض يعقوب عليه السلام أمره لربه عند فقده ليوسف، وربما يتجلى في الحياة العادية بتفاصيلها وبأملها ومعاناتها وسعادتها [2] وبالتالي فإنّ سؤال التزكية الأخلاقية يكون عمليا أكثر منه سؤالا نظريا لأنّه يعتمد على المجاهدة والتربية، إلا أنّه بحاجة أيضا إلى أسس نظرية مازالت لم تستثمر بشكل جيد في حياتنا المعاصرة بسبب النظرة القاصرة تجاهها، وهذا ما يقصده محمد الغزالي بالتزكية الأخلاقية كبديل للتصوف، وأنّه لابد من تجديد هذا المفهوم بالنظر إلى الضرورات المستجدة في عصرنا والمختلفة عن العصور السابقة، واختلاف حال الانسان نفسه باختلاف أدواته الفكرية والعلمية والحياتية التي تؤثر عليه.

[1]-محمد الغزالي: **جدد حياتك**، ص30.

[2]-عمار سواح: اختلاف التجربة الدينية وسؤال التزكية، موقع واحة الفكر.http://www.alrashad.org

خاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد أفضى البحث في موضوع "التزكية الأخلاقية في فكر محمد الغزالي" إلى جملة من النتائج نعرضها فيما يأتي:

– تأثر وتفاعل محمد الغزالي مع مختلف الوقائع والأحداث التي عاشها طوال مسيرته، مما شكل محطات بارزة في مشواره الفكري والدعوي، حيث انعكس هذا التأثير، وبرز في مختلف كتاباته ومواقفه.

–ومع ثراء القضايا التي شغلت محمد الغزالي وتنوعها، وخاصة الجانب التربوي والأخلاقي، فإنّ موضوع التزكية الأخلاقية ومحاولة ربطه بالواقع بتحويله إلى سلوك كانت في مقدمة أولويات واهتمامات فكره، حيث تطرق إلى أغلب قضايا التصوف واعتبره جانبا مهما في الفكر الإسلامي، فسعى إلى تصحيح مفاهيمه الخاطئة، محاولا بذلك إخراجه من حيزه الضيق ليكون طاقة محركة إيجابية.

– فقد أدرك محمد الغزالي أنّ تنقية التصوف جزء من تقنيات اشتغال الإنسان على ذاته من أجل إحداث قدرا من التوازن بين الرغبات الروحية والمادية في ظل الفراغ الروحي الذي يعاني منه إنسان اليوم، وحاجة المجتمع إلى العديد من قيم التصوف التي تفتقر إليها الحياة المعاصرة لمواجهة المخاطر المحدقة بأمنه الأخلاقي والنفسي والاجتماعي.

– بحث محمد الغزالي في الخلق والسلوك وهو يعي أنّ الصراع العالمي ليس بين الإنسان والإنسان بقدر ما هو صراع بين تطبيقات غيبية للإسلام ومسالك بشرية حديثة.

وخلص إلى أنّ مشكلة المسلمين اليوم ليست في معرفة الحق بقدر ما هي في توطين النفس على انتهاجه وترجمته عملا وسلوكا، كما أدرك ذلك أن الأوضاع والأزمات العربية والإسلامية الراهنة تقتضي إعادة سؤال التزكية الأخلاقية في شروط تستدعيها من جديد، والتي تظهر التردي الأخلاقي على مستوى الخطاب والممارسة للفرد والمجتمع. وبالتالي لم تعد مسألة الأخلاق والقيم السائدة أمرا أكاديميا يتناوله الباحثون بالدرس والتمحيص لغايات المعرفة فحسب بل صارت مسألة حياتية.

– وبالتالي فإنّ رؤية ومنهج محمد الغزالي النقدي أوصلاه إلى عمق إشكالية التزكية الأخلاقية، وما نجم عنها من انحرافات، وأنها جوهر في الدين بعد العقيدة، وأدرك من خلالها إلى أنّ عمل التزكية

هي حالة من الحضور والشهود والانجذاب نحو الخالق، وهي أيضا حالة من المجاهدة المستمرة كما أنها الوسيلة لتخلي الفرد من شوائب العصر وآثار الأفكار الدخيلة على فطرة الإنسان المسلم وثقافته الأصيلة إلاّ أنّه بحاجة أيضا إلى أسس نظرية لم تستثمر بشكل جيد في حياتنا المعاصرة، وهذا ما قصده محمد الغزالي بالتزكية الأخلاقية لتكون بديلا يتطلب التجديد وفق الضرورات المستجدة في عصرنا، واختلاف وضع الإنسان باختلاف أدواته العلمية والفكرية والحياتية.

كما أدرك الغزالي أنه إذا كان العلم يشحن الأذهان بألوان المعرفة، فإن التربية هي الإفادة من هذا التقدم لتزكية الشخصية وتهذيب سلوكها.

-شدد على حاجتنا إلى إذكاء الجانب العاطفي من الإسلام عندما وصل إلى أن التصوف الرشيد هو التصوف السلوكي، الذي يعد في مقام الإحسان من الدين، وأن أبرز مظاهره هي تزكية النفس والخلق ومحبة الله. أما ملامحه فمنها انفتاحه على المجتمع الإنساني ودعوته إلى الحب والأخوة، وتحقيق مصالحه بين الناس، وبذلك يتخطى التصوف حالة سوء الفهم وما يترتب عنها من أحكام وإعادة تأهيل الزوايا بالقدر الذي يجعل منها مؤسسات تربوية تعليمية وتزكوية .

كما أكد محمد الغزالي في مشروعه التزكوي على ضرورة ربط التزكية بالعلم والتربية، ويتصل بهذا الجانب ضرورة عودة الدرس التزكوي الخلقي للجامعة بالقدر الذي يسعى في إعداد دراسات أكاديمية تتناول تجارب المجددين الإصلاحية، وتعنى بتأصيل الجانب التزكوي، وتعمل على تحرير إشكالية المصطلح والمفاهيم المتعلقة بالتصوف والتراث الروحي.

-إن محاولة البحث في إثارة إشكال معرفي حول التزكية الأخلاقية، قد تجيب عما إذا كان البديل الذي قدمه محمد الغزالي للخروج من أزمة العصر، جديرا بالدراسة والبحث، وما إذا كان بالإمكان أن تتبنى المشاريع العالمية الإسلامية تطبيقه في الواقع؟ ولا أدّعي من خلال هذه الدراسة أنني أتيت على الموضوع من جميع أطرافه، وإنما هي محاولة للكشف عن الجانب التزكوي للغزالي وأهميته، وقد تفتح آفاقا لإشكالات ودراسات حوله، أما الدراسة المحيطة بمشروعه الفكري فتتطلب فريقا من الباحثين للانفتاح على آفاقه المعرفية.

الفهارس

فهرس الآيات الكريمة

فهرس الأحاديث النبوية

قائمة المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾	2	115
﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ... ﴾	31	130
﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ... ﴾	38	111
﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾	40	81
﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾	45	76
﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ... ﴾	233	85
﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾	115	79
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾	143	173
﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ... ﴾	165	146
﴿ * لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ... ﴾	177	115
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ... ﴾	186	122
﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ ... ﴾	197	111
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... ﴾	216	149
﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ ... ﴾	221	181
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾	222	73

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ ... ﴾	225	175
﴿ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ ... ﴾	226-227	182
﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ... ﴾	232	112
﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ... ﴿٢٣٨﴾ ﴾	238	175
سورة آل عمران		
﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ ... ﴾	41	118
﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ ... ﴾	147	119
﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ ... ﴾	175	144
تعالى: ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾	185	74 ،64
سورة النساء		
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ... ﴾	48	120
﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۡۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ... ﴾	49	109
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ... ﴾	65	233
﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ... ﴾	128	137
سورة المائدة		
﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ ... ﴾	2	85
﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ... ﴾	16	217
﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾	54	80
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ... ﴾	38	182

سورة الأنعام		
﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِی خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ... ﴾	1	153
﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖۗ ... ﴾	91	126
﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ... ﴾	114	232
سورة الأعراف		
﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ... ﴾	57	217
﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ ... ﴾	100	173
﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ... ﴾	143	248
﴿ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا ﴾	163	95
﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ... ﴾	172	133
سورة الأنفال		
﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ ... ﴾	35	125
﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾	49	181
سورة التوبة		
﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم ... ﴾	103	111
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ ... ﴾	115	96
سورة يونس		
﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ ﴾	26	32

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾	42	84
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾	63	216
سورة هود		
﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ ... ﴾	56	148
﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ... ﴾	120	117
سورة يوسف		
﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ... ﴾	111	173
سورة الرعد		
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾	11	43
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ ... ﴾	38	147
سورة إبراهيم		
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ ... ﴾	14-13	145
﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾	40	139
سورة الحجر		
﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾	43	125
﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ... ﴾	85	127
سورة النحل		
﴿ * وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ... ﴾	51	144
﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾	53	146
﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ... ﴾	90	135

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ... ﴾	97	75
سورة الإسراء		
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾	9	117
﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ... ﴾	35	137
﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ...﴾	44	129
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾	70	
﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...﴾	82	205
سورة الكهف		
﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ... ﴾	28	194
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾	1	153
سورة مريم		
﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾	41	215
سورة طه		
﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾	50	217
﴿*وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾	83	101
﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾	84	101
﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ...﴾	-123 124	84
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ...﴾	131	74

سورة الحج		
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ... ﴾	46	172
﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾	78	96
سورة المؤمنون		
﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾	61	85
سورة سورة النور		
﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ... ﴾	21	110
﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا ... ﴾	28	113
﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾	31	73
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾	55	84
سورة الفرقان		
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾	1	153
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ...﴾	22	62
﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ... ﴾	63	84
سورة الشعراء		
﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾	89-88	102
سورة النمل		
﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾	2-1	198

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ... ﴾	59	109
﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴾	60	198
﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ... ﴾	62	122
﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...﴾	97	83
سورة القصص		
﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ...﴾	77	123
سورة العنكبوت		
﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾	43	163
سورة الروم		
﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾	7	176
سورة السجدة		
﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	16	83
سورة الاحزاب		
﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... ﴾	35	119
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾	41	119
سورة فاطر		
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ...﴾	18	110
﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ ... ﴾	28	144

سورة الزمر		
﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ...﴾	3	214
﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾	11	129
﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ...﴾	23	185
﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾	32	78
﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ ...﴾	36	84
﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ...﴾	53	82
﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ...﴾	67	126
سورة غافر		
﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ...﴾	7	216
﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ...﴾	44	148
﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ...﴾	60	121
سورة فصلت		
﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ...﴾	7-6	111، 120
سورة الشورى		
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ ...﴾	13	95
﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ...	21	214

﴿		
سورة الجاثية		
﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ... ﴾	5-3	221
﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾	29	119
سورة محمد		
﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾	24	153
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾	10	85
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ ... ﴾	11	137
سورة ق		
﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾	16	79
﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ... ﴾	22	62
سورة الرحمان		
﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾	60	78
سورة الحديد		
﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ... ﴾	4	119
﴿ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ ﴾	7	79
﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ ﴾	12	64
﴿ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ... ﴾	27	123

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ ... ﴾	77	27
سورة الحشر		
﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ ... ﴾	19	147
سورة الطلاق		
﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾	3	77
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ... ﴾	12	119
سورة الملك		
﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾	1	153
﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾	10	102
سورة القلم		
﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾	28	175
سورة المعارج		
﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا ٥﴾	5	129
سورة نوح		
﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾	28	216
سورة النازعات		
﴿ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾	18	120
﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨﴾	38-37	134، 141

سورة الأعلى		
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾	15-14	110، 118
سورة البلد		
﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨﴾	8	247
سورة الشمس		
﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ ...﴾	15-1	109
﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾	7	72
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾	10-9	43
سورة الضحى		
﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾	4	123
سورة الانشراح		
﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥﴾	5	
سورة العلق		
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾	19	79
سورة البينة		
﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ٨﴾	8	78
سورة العاديات		
﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعٗا ٥﴾	5	175

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات	112
أربع من كنّ فيه كان منافقاً،	140
اعقلها وتوكل	78
أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا	141
أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله	116
إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل	138
إنّ ربكم حي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خاليتين	123
إياكم ومحدثات الأمور	238 (هامش 1)
الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله	121
شيء يصنعه النساء يتحببن إليه إلى أزواجهن	219
الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله	76
فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا	112
فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أنّ لا إله إلا الله	121
قالوا عبادة رسول الله	124
كان خلقه القرآن	116
لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله	83
لدنيا أهون على الله من شاه ميتة على أهلها	65
اللهم آت نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها	111

ما لم تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له	140
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد عليه	220
من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه	141
وازهد في الدنيا يحبك الله	75
وعظنا رسول الله موعظة ذرفت بها العيون	126
وما تقرب إليّ عبدي بشيء	122
ويحك... ما هذا؟ قال: من الواهنة قال: أما إنها لا تزيد إلا وهنا،	219

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أولا: قائمة المصادر:

- **محمد الغزالي:**

1. الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط3، 1984.
2. الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مكتبة رحاب، الجزائر، ط1، دت.
3. الإسلام والطاقات المعطلة، الزيتونة للإعلام والنشر، الجزائر، دط، 1987.
4. تراثنا الفكري بين ميزان الشرع والعقل.
5. الجانب العاطفي من الاسلام، نهضة مصر والنشر ة التوزيع ط3 2005 .
6. جدد حياتك، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، 1986.
7. حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام وإعلان الأمم المتحدة، دار الهناء للنشر والطباعة، الجزائر.
8. خلق المسلم دار المعرفة، الجزائر دط، دت.
9. دستور الوحدة الثقافية، دار السلام للنشر والتوزيع، الجزائر دط، دت.
10. الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، القاهرة، مكتبة وهبة، ط3، 1990.
11. دفاع عن العقيدة والشريعة، دار الكتب الحديثة، مصر، ط3، 1384هـ-1964م.
12. ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار الهنا الجزائر.
13. سر تأخر العرب والمسلمين، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.
14. السنة بين أهل الفقه والحديث، دار الشروق، بيروت، ط 1409هـ.
15. ظلام من الغرب، دار الشهاب للطباعة والنشر.
16. عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق، دار الشهاب، باتنة.
17. عقيدة المسلم، عقيدة المسلم، دار القلم، دمشق، 1420هـ-1999م
18. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الكتب، الجزائر ط1، 1987.

19.فن الذكر والدعاء عند الأنبياء، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة.

20.قصة حياة، دار الرشاد للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر.

21.قضايا المرأة بين تقاليد الراكدة والوافدة، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1992.

22.كيف نفهم الاسلام، دار الهناء للنشر والطباعة، الجزائر.

23.مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف تفكر فيه، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1989.

24.مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، المحاكم الشرعية، الدوحة، 1402ه.

25.مع الله، دار الهناء والطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر.

26.من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار الهناء والطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر.

27.من هنا نعلم، دار الكتب الحديثة، ط6، 1965.

28.نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1413 هـ-1992م.

29.هذا ديننا، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1990.

ثانيا: قائمة المراجع

30.إبراهيم سلامة، **خلق ودين**، دراسات اجتماعية أخلاقية دينية، ط1 (1373-1954) شركة ومطبعة الباي، الحبلي وأولاده، مصر.

31.أحمد ابن ماجه في السنن: أبواب الزهد، باب: مثل الدنيا.

32.أحمد الطربين: **تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر – دراسة في التطورات والاتجاهات السياسية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1 1994م.

33.أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، **ايقاظ الهمم في شرح الحكم لأبن عطاء الله السكندري**، دار الفكر.

34.أحمد زروق، **قواعد التصوف**، تحقيق محمد زهري النجار، نشر مكتبة كليات الأزهرية، القاهرة، ط3، 1409 هـ/ 1989م) .

35.أحمد فريد، **التزكية بين أهل الصوفية**، دار ابن تيمية.

36.أحمد في مسنده، ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1421 هـ-2001 م.

37.أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، **المدرس في الأزهر الشريف**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م

38.الأصفهاني أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقة الأصفياء**، ج1، ط2، 1967.

39.آلان تورين، **نقد الحداثة**، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، 1977.

40. البخاري في صحيحه: كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس

41.البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الصحيح، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ،الطبعة: الأولى، 1422هـ.

42.بدوي عبد الرحمن، **موسوعة المستشرقين**، دار الملايين، بيروت، ط 1984.

43.تاريخ العلامة ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني بيروت 1960، ج2.

44.ابن تيمية: **الفتاوي الكبرى**، دار الكتب العلمية، ط1، 1987-1408، ج14.

45.ابن تيمية، **درء تعارض العقل والنقل**، جامعة محمد بن سعود، السعودية، دط، دت، 1982.

46.أبو حامد الغزالي: **احياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط 1404.

47.ابن حبان في صحيحه، **كتاب الرقي والتمائم**، ذكر التغليظ على من قال بالرقى والتمائم، متكلا عليها.

48.الحلاج حسين بن منصور، **نشر لويس ماسينيون**، الجريدة الآسيوية، المطبعة الوطنية، باريس.

49.حلمي مراد، كل زعيم قصة: **كمال أتاتورك**، مجلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ع407.

50.حميدي خميسي، **مجلة اللغة والأدب**، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر، عدد 10، 1417ه-1996م.

51.الخطيب التبريزي، **شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1.

52.خليل عبد السلام، **محمد الغزالي، أبعاد المشروع الفكري**، دار النعمان.

53.الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، المطبعة الخيرية مصر، ط 1306 .

54.رمضان خميس الغريب، **محاور المشروع الفكري لدى الشيخ محمد الغزالي**، دار الحرم للتراث، ط1 2002-1423ه.

55.روى البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة 19/1، رقم الحديث: 50.

56.الزركلي: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م.

57.زكي مبارك، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، دار المناهل، بيروت.

58.سفر الحوالي: **العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة**، الدار السلفية للنشر والتوزيع، بيروت، دط، 1987.

59.سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، **أبو القاسم الطبراني**، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

60.سميح عاطف الزين، **الصوفية في نظر الاسلام**، دراسة وتحليل، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

61.سهيلة مازه، **الجانب العقدي في فكر محمد الغزالي**، رسالة ماجيستر (2011-2012).

62.سيد قطب: **معركة الإسلام والرأسمالية**، دار الشروق بيروت، ط1، 1980 .

63.سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق القاهرة ج1.

64.الشافعي، **الديوان**، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط3، 1426هـ-2005م.

65.الشعراني، **الطبقات الكبرى**، شركة ومطبعة مصطفى الباي الحليبي وأولاده بمصر، ط1، 1954ج1.

66.شكيب أرسلان: **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم**، موقع للنشر الجزائر، د ط، 1990.

67.الشيخ محمد الكسترازي، **موسوعة الكسترازي فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان**، دار آية بيروت 1426-2005.

68.الطبراني، **المعجم الكبير**، ت، أحمد بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم.

69.طه عبد الرحمن: **العمل الديني وتجديد العقل**، المركز الفقافي العربي، ط2، دت.

70.طه عبد الرحمن، **روح الدين**، من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمائية، المركز الثقافي، العربي، بيروت، الدار البيضاء، 2012.

71.طه عبد الرحمن، **سؤال العمل الديني**، بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، الدار البيضاء، 2012.

72.عبد الحليم عويس: **الشيخ محمد الغزالي تاريخ**، وجهوده، وآرائه، دمشق دار القلم .

73.عبد الحليم عويس، **الشيخ محمد الغزالي صور من حياة مجاهد عظيم**، القاهرة 1993م .

74.عبد الفتاح روّاس قلعه جي، **مدخل إلى علم الجمال الاسلامي**، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (1141-1991) .

75.عبد القادر الكيلاني، **فتوح الغيب**، دار احياء التراث العربي، مطبعة منير بغداد 1984.

76.عبد القادر المغربي، **جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات**، دار المعارف، لبنان.

77.عبد القادر نور، **حديث الاثنين للشيخ محمد الغزالي**، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1.

78.عبد الكريم الجيلي، **شرح الأسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأسرار**، مطبعة القيماء، دمشق، 1920.

79.عبد الله حلاق، **الصحوة الاسلامية (مناهج، مدارس، حركات)**، بيروت، دار سبيل الإرشاد، ط1، 1420هـ- 1999م.

80.عبد المجيد الصغير، **قيمة الجمال في تداولها الاسلامي**، مجلة "عوارف" العدد 20، طبعة 2007.

81.عبد الوهاب المسيري، **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2002.

82.عبد الوهاب المسيري، **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، ط1، القاهرة، مكتبة الشروق.

83.ابن العربي، نصوص الحكم، تحقيق أبو العلاء عفيفي، طح، دار الكتاب العربي، بيروت 1980.

84.عفيفي أبو العلا، **التصوف الثورة الروحية في الاسلام**، 1965 س9 ع 97.

85.علاء الدين وحيد، **محمد الغزالي وتحطيم القيود**، دار سنابل للنشر والتوزيع، مصر.

86.أبو العلاء عفيفي، **التصوف والثورة الروحية في الاسلام**، دار الشعب للطباعة والنشر، بيروت.

87.علاء محمد الغزالي، **السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي**، الغطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، فتحي الملكاوي، أحمد العسال، مؤسسة آل البيت (1417هـ – 1997م).

88.علي الوردي، **مهزلة العقل**، الشيري، دار ومكتبة دجلة والفرات، ط 1994.

89.علي الوردي، **وعاظ السلاطين**، دار ومكتبة دجلة والفرات،ط2 ، 2010.

90.علي الوردي، **وعاظ السلاطيندار**، مكتبة دجلة والفرات، ط2، 2010.

91.علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، دار المعارف، ط8، ج1.

92.علي عدنان رضا النحوي، **تقويم نظرية الحداثة**، دار النحوي للنشر والتوزيع، ط2، (1414هـ-1994م).

93.ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت.

94.عماد الدين خليل: **الشيخ الغزالي**، صور من حياة مجاهد عظيم، دار الصحوة،ط1.

95.فتحي حسن ملكاوي، **العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي**، حلقة دراسية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، الأردن .ط (1417-1996)

96.فهيمي خشيم، أحمد زرزق والزروقية، **دراسة حياة وفكر ومذهب وطريق**، ط2، 1980.

97.الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ط (1403-1983) .

98.القشيري، **الرسالة**، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان 1955.

99.قطب عبد الحميد قطب: **خطب الشيخ محمد الغزالي**: دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع مصر، القاهرة، المجلد الأول، دط، دت.

100. ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق محمد المعتصم البغدادي، ط7 (1423هـ-2003م).

101. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار الأندلس، بيروت.

102. مالك بن انس في موطئه، **كتاب حسن الخلق**، باب ما جاء في الحياء.

103. محاضرة لطلبة بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر، سنة (1985-1988).

104. محمد اقبال، **تجديد الفكر الديني**، ترجمة عباس محمود، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 (1421ه-2000م).

105. محمد الصلابي، **أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** ﷺ، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1409هـ-1988م.

106. أبو محمد الكلابادي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، تقديم يوحنى الحسين، دار صادرر، بيروت، ط2، 1427.

107. محمد النحوي، **القول المختصر المبين ومناهج المفسرين**.

108. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، **ولاية الله والطريق إليها**، القاهرة.

109. محمد سبيلة وعبد السلام بنعبد العالي، **الحداثة وانتقاداتها**، نقد الحداثة من منظور غربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006.

110. محمد شلبي: **الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الاسلامي**، دار الصحوة، القاهرة، دط 1987م.

111. محمد عبد الله دراز: **دراسات اسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية**، دار العلم، الكويت ط 1400 هـ 1960م.

112. محمد عمارة: **الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية**، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003.

113. محمد عمارة: **العالمية الإسلامية والعولمة الغربية**، مكتبة البخاري، القاهرة، ط1، 2003.

114. محمد عمارة: **المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي**، خريطة عامة، ج1، دار المقاصد،

ط1، 2018م.

115. محمد عمارة: **مستقبلنا بين التجديد الاسلامي والحداثة الغربية**، مصر، مكتبة الشروق الدولية، 2007.

116. محمد عمارة، الشيخ الغزالي، **الموقع الفكري والمعارك الفكرية**، دار الفكر، دار الرشاد، ط1 (1418-1998) .

117. محمد عمارة، **الشيخ محمد الغزالي، الموقع الفكري والمعارك الفكرية**، دار الرشاد، ط1 (1418-1998).

118. محمد يوسف، **تجديد الفكر الاسلامي على مشارف قرن جديد، قراءة في تجربة الشيخ محمد الغزالي**، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط 1419-1999.

119. ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف**، مطبعة دار المعارف، بيروت 1327 هـ.

120. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

121. مقداد، **فلسفة الحياة الروحية**، دار الشروق، ط1، 1985.

122. ابن منظور محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

123. النووي أبو زكرياء يحي بن شرف، **شرح النووي على مسلم**، دمشق، دار الخير 1996.

124. وائل حلاق، **الدولة المستحيلة...الاسلام ومأزق الأخلاق الحداقي**، ترجمة عمرو عثمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2014.

125. وصفي عاشور أبو زيد، **مئوية الإمام محمد الغزالي**، دار المقاصد ط1 1439-2018.

126. أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، **مدخل إلى التصوف الاسلامي**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1979.

127. ياسين عبد السلام، **المنهاج النبوي تربية وتنظيم وزحفا**، الشركة العربية الإفريقية للنشر والتوزيع، ط3.

128. يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته –رحلة نصف قرن–**، مؤسسة الرسالة،

بيروت، ط01، (1421هـ- 2011م).

129. يوسف عبد الفتاح: **التجديد السياسي والواقع العربي المعاصر**، رؤية إسلامية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، القاهرة.

130. أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر، القاهرة 1950.

الدوريات:

131. عمار طالبي: **الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر**، إسلامية المعرفة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، عدد خاص عن الشيخ محمد الغزالي، السنة الثانية، 1417هـ/1997م، ع7.

132. فتحي الملكاوي: العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي، أحمد العسال، تنظيم المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، 1417-1997.

133. الملتقى الفكري الإسلامي المنعقد بقسنطينة، الجزائر، سنة 1989.

134. يوسف القرضاوي: مجلة إسلامية المعرفة، مطبعة زعباش، الجزائر، 1997.

المواقع الالكترونية:

135. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة https://ar.am.wikipedia.org.net

136. عمار سواح: اختلاف التجربة الدينية وسؤال التزكية، موقع واحة الفكر.http://www.alrashad.org

137. موقع الدكتور عبد الوهاب المسيري، الجزيرة. نت عبد الوهاب المسيري.

138. موقع الأستاذ مالك بن نبي: مالك ابن نبي رجل مفكر وحضارة

فهرس الموضوعات

المقدمة	أ
الفصل الأول: **محمد الغزالي عصره وحياته**	
المبحث الأول: عصر محمد الغزالي	**2**
المطلب الأول: الحياة السياسية	**2**
المطلب الثاني: الحياة الاقتصادية والاجتماعية	**7**
المطلب الثالث: الحياة الثقافية	**11**
المبحث الثاني: حياة محمد الغزالي	**15**
المطلب الأول: المولد والنشأة	**15**
1-ميلاده	**15**
2-تعليمه	**16**
3- مساره العملي	**16**
4-محمد الغزالي في الجزائر	**17**
5-العوامل المؤثرة في فكره	**19**
المطلب الثاني: انتاجه الفكري	**20**
المبحث الثالث: مزايا فكر محمد الغزالي ومكانته العلمية	**27**
المطلب الأول: مزايا فكره	**26**
1-الشجاعة الأدبية	**26**
2-استقلاله الفكري	**27**
3-الاستشعار الروحي والإحساس بالآخر	**32**

4-الشمول والتنوع الفكري	**33**
5-لغته	**34**
6- الاجتهاد	**43**
7-نظرته النقدية	**44**
المطلب الثاني: آراء العلماء فيه	**48**
الفصل الثاني: **محمد الغزالي والتصوف**	
المبحث الأول: التصوف بين النشأة وخصوصية اللغة	**52**
المطلب الأول: تعريف التصوف	**52**
المطلب الثاني: نشأة ومراحل تطور علم التصوف	**54**
1-نشأته	**54**
2-مراحل تطور علم التصوف	**55**
المطلب الثالث أقسام التصوف	**59**
1-التصوف المعرفي	**59**
2-التصوف السني	**62**
3-التصوف الطرقي	**61**
المطلب الرابع: التصوف وخصوصية اللغة	**61**
المبحث الثاني: قضايا التصوف	**64**
المطلب الأول: الزهد والتصوف	**64**
المطلب الثاني: الفلسفة والتصوف	**67**
المطلب الثالث: الفقه والتصوف	**68**

المطلب الرابع: المقامات والأحوال وآثارها على السلوك	**70**
المبحث الثالث: التصوف عند محمد الغزالي بين الذوق والنقد	**86**
المطلب الأول: نزعته الصوفية	**86**
المطلب الثاني: مفهوم التصوف عند محمد الغزالي	**87**
المطلب الثالث: نقد الغزالي لبعض قضايا التصوف	**90**
المطلب الرابع: صلة التزكية بالتصوف عند محمد الغزالي	**101**
الفصل الثالث: **التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي –الرؤية والمنهج–**	
المبحث الأول: مفهوم التزكية الأخلاقية/ تحديدات مفاهيمه	**109**
المطلب الأول: مفهوم التزكية الأخلاقية	**109**
1-آفاق التزكية في المصطلح القرآني	**112**
2-ألفاظ التزكية والسلوك	**115**
3-وسائل التزكية	**116**
المطلب الثاني: منهج التزكية عند أهل السنة والجماعة	**120**
1-التوحيد	**120**
2-التزكية بالطاعات وترك المحرمات	**121**
3-التزكية بالنوافل والدعاء	**121**
المطلب الثالث: التزكية في مدارس الزهد والتصوف	**122**
المطلب الرابع: منهج التزكية عند الصوفية	**124**
المطلب الخامس: الرؤية الصوفية للجمال	**127**
1- الجمال في الاصطلاح الصوفي	**127**

2-التفكر في النفس والآفاق	128
المبحث الثاني: رؤية الغزالي للتزكية الأخلاقية	134
المطلب الأول: مفهوم التزكية عند محمد الغزالي	134
المطلب الثاني: علاقة الايمان بالخلق وأثرها على البناء الروحي	136
المطلب الثالث: علاقة العبادات بالأخلاق	136
المطلب الرابع: تصنيف الأخلاق عند محمد الغزالي	142
المبحث الثالث: منهج محمد الغزالي في التزكية الأخلاقية	151
المطلب الأول: القرآن الكريم	152
المطلب الثاني: العقل	155
المطلب الثالث: الوجدان	161
المطلب الرابع: العلم	163
المطلب الخامس: الواقعية	168
المطلب السادس: التاريخ	171
المطلب السابع: الوسطية والاعتدال	174
المبحث الرابع: قيم وأبعاد التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي	179
المطلب الأول: قيم التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي	179
1- الذكر	179
2- الاحسان	181
3- البناء الروحي	183
4- فلسفة الفقر عنده	186
المطلب الثاني: أبعاد التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي	189

1- البعد العقدي	**189**
2-البعد الروحي	**191**
3- البعد الاجتماعي	**193**
4-البعد الحضاري	**196**
5- البعد الجمالي	**198**
الفصل الرابع: **التزكية الأخلاقية عند محمد الغزالي وتحديات العصر**	
المبحث الأول: عوائق التزكية الأخلاقية وسبل معالجتها	**201**
المطلب الأول: الانحراف العقدي	**201**
المطلب الثاني: التدين المغشوش	**207**
المطلب الثالث: الجهل والتقليد	**210**
المطلب الرابع: الأوهام والخرافات	**213**
المطلب الخامس: ترك الأخذ بالأسباب وتعطيل السنن	**216**
المطلب السادس: تصحيح الفهم الخاطئ لعلاقة **الدنيا بالدين**	**219**
المبحث الثاني: محمد الغزالي و التحديات المعاصرة	**225**
المطلب الأول: الحضارة الغربية	**225**
المطلب الثاني: العلمانية	**228**
المبحث الثالث: التزكية الأخلاقية وسؤال الحداثة	**237**
المطلب الأول: الحداثة والمنظور الأخلاقي	**237**
المطلب الثاني: محمد الغزالي والحداثة الغربية	**241**
المطلب الثالث: آثار الحداثة على التزكية الأخلاقية	**243**

المطلب الرابع: **سؤال الحداثة وبديل التزكية الأخلاقية**	**245**
الخاتمة	**251**
الفهارس	
فهرس الآيات القرآن الكريم	**254**
فهرس الأحاديث النبوية	**265**
قائمة المصادر والمراجع	**267**
فهرس الموضوعات	**276**
الملخص	

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص:

تعلن حاجة الإنسان اليوم إلى العودة إلى القيم الأخلاقية والجمالية والروحية في إطار التكامل بين الدين والدنيا لتحقيق الوسطية في المجتمعات الإنسانية، هي قيم متواترة ومتجددة لا تسقط بالتقادم. كما أنّها لغة عالمية، وبذلك يصبح التفكير الجاد في تزكية أخلاق الإنسان المعاصر والبحث في كيفيات إدماج المستجدات على مستوى البحوث لتزكية النظام الخلقي وتجديد روحه من القرآن والسنة وفي ظل غياب البعد الروحي في حياة الإنسان المعاصر، وغياب انسجام الإنسان مع نفسه ومحيطه ومع الحياة فإنّه من الضرورة الاستفادة من التجربة الروحية والصوفية بغية تقديم حل وتصوّر صحيح لتحولات الواقع الإنساني وتلمس بناء تربوي روحي وخلقي يستند إلى أهداف قوية ومرجعية؛ وهنا تظهر الحاجة إلى مدارسة تراث محمد الغزالي في هذا الجانب الروحي والتزكوي وبذلك نحن بحاجة —حسب رأيه-إلى علم تدرس فيه طرق تحويل الحقائق الدينية النظرية إلى تربية روحية وخلق لازم وعمل دائم وأسلوب في الحياة.

وبناءً على ذلك، فهذه الدراسة تحاول تبيان نظرة محمد الغزالي إلى التصوف وما ينبغي أن يكون عليه فكره، حتى لا يظل مجرد إعادة هوية تاريخية، وإنما يكون بديلا لبناء روحي يتصدى به لتغريب العولمة والعلمانية والحداثة. فما هو موقف محمد الغزالي من التصوف؟ وهل تستوجب التزكية الأخلاقية تجربة صوفية؟ وما موقع التزكية الأخلاقية من حياة الإنسان الحديث في ظل التحديات المعاصرة؟

كما سعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف منها:

-إبراز موقف محمد الغزالي من التصوف وبيان أهمية الجانب العاطفي والخلقي عنده، باعتباره محركا باعثا للتجاوب مع الوحي وجعله واقعا معاشا في كل عصر والإفادة من موروث التراث الإسلامي في الجوانب الأخلاقية والتزكوية.

وتقتضي طبيعة البحث استخدام مناهج لمعالجة الإشكالية، فكان المنهج الوصفي بآلياته التحليلية التحليل المنطقي، والتحليل الفلسفي، كما يتطلب الدراسة أيضا استخدام المنهج التركيبي الذي يمكنني من ضبط النتائج المتوصل إليها دون الاستغناء عن المنهج التاريخي الذي توسلت به في نقد النصوص، بالاعتماد على معطيات التاريخ في أجزاء البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Résumé

Il s'agit d'un constat vérifié et confirmé selon lequel la vie moderne devient de plus en plus compliquée, concentrée sur la récurrente satisfaction des besoins de tous les jours d'où l'intérêt d'une élévation d'ordre moral et spirituel de bonté et de beauté, ayant pour objectifs la réconciliation avec soi-même et par conséquent avec son environnement humain et culturel, se référant à ses préceptes religieux d'exigences de tolérance et de coexistence pour s'assurer en besoin vital de paix morale et sociale voire la sécurité intellectuelle sans idées préconçues alors moins de jugements préétablis.

C'est justement la consécration des valeurs humaines autant innées d'acquises mais en perpétuelle mutations sans s'être jamais rendues caducs, grâce à laquelle les humains sont valorisés et valeureux et donne une réflexion d'une telle importance mérité d'être évoquée pour émettre la réconciliation des exigences de la vie moderne avec la surélévation d'ordre spirituelle et philosophique ayant pour objectif conséquent une meilleure intégration des valeurs renouvelés et parfaitement adoptées en ayant référence à l'esprit du coran et la sunna avec la profonde conviction que la vie moderne sans nier le confort matériel qu'elle a apporté voire son mode de vie savante et intelligente elle reste tributaire d'un confort moral que seule la valorisation morale peut apporter.

Il s'agit donc d'un besoin vital et incessant de pouvoir profiter de la conception morale et philosophique au soufisme afin de s'assurer une satisfaction morale et spirituelle de matérialité avérée et pouvoir construire une démarche éducative, culturelle, philosophique et spirituelle en se fixant des objectifs forts et référenciées réconciliant à la fois les fondements de l'héritage spirituel et culturel avec les acquis de la vie moderne autant savante d'intelligente d'où d'intérêt de de passer en revue la réflexion du défunt ***MOHAMED EL GHAZALI*** du vingtième siècle) sur l'angle précis de la conception soufi, qui consiste selon lui sur les voies et moyens à apporter pour meilleure lecture des textes sacrées, c'est-à-dire une bonne façon de transformer les indications religieuses de leurs état théorique a une mise en pratique effective et concrète sans altérer l'esprit et les visées des textes référentiels.

Encore une fois, il s'agit de savoir qu'elle est l'attitude du défunt ***MOHAMED EL GHAZALI*** vis avis du courent soufisme et dans quelle mesure la valorisation morale peut être prise en compte comme une exigence

soufisme dans une vie moderne ou les applications de la technologie numérique en particulier l'industrie savante et intelligente en général occupent tous les esprits, attirent toutes les intentions qui certaines laissent peu de place à la méditation c'est pourquoi un des objectifs centraux de cette thèse est de vouloir savoir qu'elle est la part de considération à attribuer à la valorisation morale à propos de la conception humaine contemporaine face aux défis de la modernité et mettre en évidence un ensemble d'objectifs y afférents :

- Expliquer l'attitude de défunt ***MOHAMED EL GHAZALI*** vis-à-vis du soufisme pour indiquer l'importance de la spiritualité et la temporalité et certainement la meilleure façon d'être humain et devoir voir les choses avec plus de valeurs.
- Le soufisme étant la fraction islamique la plus spiritualisée pour laquelle la méditation spirituelle est la meilleure façon d'être en harmonie avec soi-même et ne répondre favorablement aux préceptes religieux afin d'en faire une réalité effective.

Certainement le traitement indiqué nécessite une méthodologie concluante en voulant apporter une valeur ajoutée qui consiste à faire valoir que le soufisme est réflexion bénéfique à toute l'humanité pour permettre à chacun d'émanciper des contraintes de la vie de tous les jours, il s'agit justement de dépasser le style des descriptions narratives d'imitations répétées pour mettre en pratique une méthode d'analyse comparative et d'évaluation logique et rationnelle, c'est-à-dire la méthode constructive de cause à effet sans se passer des données historiques qui restes adoptées à la vie humaine en tous temps et tous lieux, le monde étant en perpétuel évolution.

Summary:

Today; the man's need to come back to the ethical, the aesthetic and the spiritual values within the compliment of the religion and the life framework in order to realize the mediation in the human societies are constant and removable values that do not fall with prescription. Also is a universal language and so a serious thinking become in compliment the contemporary man's ethics and the research in the manners of integrating updates on the of research level to compliment the ethical system and renovation its spirit of the Quran and the Sunnah and under the absence of the spiritual dimension in the contemporary man's life and the absence of the man's harmony with himself and his circumferences and with the life, then it is necessary to benefit from the spiritual and mystical experience with hope to present an authentic solution and perception for the transformations of the human reality and to touch an educational, a spiritual and a ethical construction relied to a powerful and reference goals; and here is the need to teach Muhammad Al-Ghazali patrimony in this spiritual and compliment side and so-according to him- we need a science in which to teach ways to transfer the theoretical religious facts into a spiritual education, a necessary ethics, a constant work and a lifestyle. Consequently; this study attempts to display Muhammad Al-Ghazali glance to the Sufism and how his thought should be; so that it do not remain merely a historical re- identity, but as a substitute to a spiritual construction by which to face the westernization of the globalization, the secularism and the modernity. What is Muhammad Al-Ghazali position of Sufism? And does the ethical complement require a Sufism experience? And what is the location of the ethical complement of the man's modern life in shadow of the contemporary challenges?

This research looks for achieving a set of goals among them:

- The excretion of Muhammad Al-Ghazali position of Sufism and to show the importance of the emotional and the ethical side to him regarded as an emitter engine responding to the revelation and made it as a living reality in every age and to benefit from the patrimony of the Islamic heritage in the ethical and theological sides. And the research nature requires the usage of methods to resolve the problematic; so was the descriptive method by its analytic mechanisms a logical and a philosophical analysis, as well the study needs the usage of the structural method which enables me to restrain the obtained findings without dispensing the historical method which I arrived to criticize the texts by relying on the history's data in sections of the research.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية